صالح بن ابراهيم السكاكر

أسطورة ساش

رواية



الفارابي

صالح بن ابراهيم السكاكر

أسطورة ساش

(روايـــة)

دار الفارابي

أسطورة ساش

الكتاب: أسطورة ساش
المؤلف: صالح بن ابراهيم السكاكر
saleh_al-sakaker@live.com
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2010
ISBN: 978-9953-71-499-8

الإهداء

إلى أبي الذي علمني كيف أكتب
وإلى أمي التي علمتني كيف أُحب ما
كتبت .

مدخل

.. ليس في الدنيا منظر أبشع من منظر هؤلاء اليتامى أو أبناء الزنى وسائر أولئك الذين نبذهم المجتمع...

دوستويفسكي في «المراهق»

(1)

الصداقة، ذلك البحر الكبير، النهر الذي لا ينضب أبداً، يتدفق سيلها مدراراً، لا تعرف الكلل أو الملل، الصداقة جنة بل أعطيةٌ، لا تعطى ولا تمنح إلا لمن يستحقها، الصداقة ذلك الشيء الذي تتلاشى أمامه كل الأشياء ويقف الجميع له احتراماً وتبجيلاً وتحية. الصداقة هي الروح التي تُمنح لنا في حياتنا الاجتماعية، يستطيع الواحد منا أن يعيش بلا أخ وبلا أخت ولكن بلا صديق صادق فمستحيل. يتضح ذلك عندما تمنحنا الحياة أكبر أُعطية وهي الأخ الصديق، نحن نحتاج إلى الصداقة لأننا نحيا، ونحن نحيا ونتحمل ونتعايش مع الناس لأن في واقعنا صديقاً يهتم بنا، يساعدنا ويمنحنا الإيمان والثقة بالنفس. عندما أتحدث عن الصداقة فأنا لا أتحدث عنها بمفهومها الضيق المحصور لأغلب عقولنا بل إني أتحدث عنها بجميع أشكالها وصورها المتعددة، فصداقة الإنسان لكتابة وصداقة الأب لابنه وكذلك صداقة الأم لابنتها أعظم صداقة وأعمق صداقة لأنها تنبع من أعماق الروح

والإحساس بالطرف الآخر وعواطفه وخلجات مشاعره، فالحياة مهما كانت جميلة ومهما كان واقعنا أجمل تظل الحياة مليئة بالحجارة والعثرات التي قد لا تصادفنا الآن ولكنها قد تكتسحنا بعد فترة! كيف نحمي أنفسنا؟ كيف نقوي عزائمنا؟ كيف نزرع الثقة في ذواتنا؟ هل نعيش منعزلين عن البشر أم نذهب بعيداً إلى القمر أم نظل مستسلمين بلا حركة ولا صوت كالحجر؟ ماذا نفعل؟! سؤال كبير يقتحم الوجود بأسره.. الصداقة والأصدقاء هما الحل لنا، لأننا نعيش مع الناس وخلال الناس وفي محيط الناس، فالحياة الاجتماعية سلسلة مشتركة ومترابطة فأنت تعيش بجسدك مع الغير تختلط بالبشر وتتعايش معهم وتتمازج بأفكارك معهم، كيف يحمي الإنسان نفسه؟ كيف يقوي عزيمته؟ الصداقة وأعلنها مراراً وتكراراً هي البحر العظيم، الواحة المليئة بالخيرات ولكن بشرط أن نختار بأنفسنا ذلك الصديق ولا نوكل تلك المهمة لا إلى الزمان ولا إلى المكان، فجمال الصداقة واستمرارها هو أن يختار الواحد منا أصدقاءه لأنه الوحيد القادر على فهم نفسه ومعرفة ما يتقبله ويستأنس له، لذلك أقولها ألف مرة يجب أن يختار الواحد منا أصدقاءه بنفسه...لذلك كنا ثلاثة أصدقاء..

كنا ثلاثة أصدقاء. أنا وأحمد وشاهين ثلاثة أصدقاء

كالنجوم تتلألأ في السماء، ثلاثة أصدقاء تجمعنا المحبة والود والإخاء، تجمعنا الصداقة المبنية على التوافق والانسجام والواقع المشترك! ثلاثة أصدقاء دائماً ما نلتقي إما لقاء طعام أو لقاء قهوة أو لقاء ثقافة عقلٍ..نعم كنا نلتقي ونتبادل المناقشات والأطروحات، كانت لقاءاتنا تشبه أن تكون سهرات أثينية[1] وجلسات ثقافية وحوارات فكرية اجتماعية، وأحياناً كنا بسنواتنا القليلة نتجاوز الخطوط الحمراء ونتحاور بالسياسة، كانت اهتماماتنا توحي وتدل لمن ينظر إلينا على أننا نماذج مشرقة وصفحات بيضاء تبعث في نفس المتأمل لنا الأمل والبهجة والسرور وقبل كل ذلك الافتخار بهؤلاء الشباب الثلاثة، فقد كنا في كل لقاء نتفق على موضوع معين ونستعد له. فأحياناً كنا نتناقش عن المذاهب والملل والنِحل وأحياناً نتحدث عن الحب ومراتبه وغاياته ونقفز لنتكلم عن العظماء عبر تاريخ البشرية أجمع، وأحياناً كنا نهرب من الواقع ونسافر بخيالنا استغراباً للأسئلة المتعددة، نسافر هناك للفلسفة ومذاهبها وروادها ومدارسها

(1) سهرات أثينية: هي مناقشات فلسفية في حدائق أثينا عند هبوط المساء وقد تكلم عنها أفلاطون، كذلك نجد العملاق الروسي دوستويفسكي يذكر هذا المصطلح في روايته "الشياطين"، ص 44، دار ابن رشد، الطبعة الثانية، ترجمة د: سامي الدروبي عام 1985م.

كنا نتحدث عن الفلسفة من الأزمنة الغابرة حتى ظهور الإسلام إلى وقتنا الحاضر، كنا نناقش الفلسفة نحاورها وتحاورنا نسألها العديد من الأسئلة والتي بدورها لا ترد إلا بالقليل من الأجوبة، كنا نأخذ كل فيلسوف نحاول أن نفهم فلسفته ونبحث عن بطلانها أو إثباتها من حضارتنا وتاريخنا، وكذلك كنا نتكلم عن المؤلفين وكتبهم وفلسفتهم في الحياة فكما نعلم أن لكل إنسان صغيراً كان أم كبيراً متعلماً أم جاهلاً فلسفة تختص به وليست لغيره. كنا نتحدث عن المدارس الفلسفية من أفلاطون وجمهوريته إلى أرسطو وكذلك ديكارت ووجوديته.. ونقفز إلى العملاق دوستويفسكي وكتبه المتلألئة التي يعجز قلمي أن يصفها ويصف ما خطته أنامل ذلك المبدع. وكنا نرجع بتحليلاتنا إلى ابن خلدون ومقدمته العملاقة وفلسفته في التاريخ، وأحياناً كنا نهرب إلى شاعر الفلاسفة أبي العلاء المعري ورسالة الغفران واللزوميات. كنا نتناقش مناقشات ثقافية تتعدى أعمارنا وكان الكتاب لا يفارقنا بل هو صديقنا الرابع الذي دائماً ما يلازمنا ولا يبتعد عنا لأنه كالأكل لنا، كنا نأكل ونأكل من الأوراق لنملأ عقولنا! نعم كان زادنا الكتاب فقد كانت عقولنا طماعة تريد المزيد ولا تتوقف عن أكل الأوراق! كنا عندما نجتمع نحضر مسجلاً ونسجل نقاشنا وبعد الانتهاء نجلس بصحبة أكواب

الشاي المشبع بالنعناع لنستمع إلى أطروحاتنا الثقافية المتواضعة! فقمة المتعة أن يستمع الواحد إلى فلسفته وأفكاره من لسانه! وأذكر في هذا المقام حادثة مضحكة. ففي ذلك اليوم من أيام الرياض الحارة جداً كنا نجتمع في غرفة أحمد وكان الموضوع المطروح للنقاش عن الشعر العربي، كنا نتناقش فهذا يقول بيتاً لفلان وذلك يرد عليه بغيره وثالثنا يخرج عن قاعدة سابقيه ويأتي ببيتٍ من الشعر الحديث، نعم فقد كان لكل واحد شاعره المفضل الذي يحبه ويعشق قصائده ويدافع عنه، فقد كنت ومازلت أعشق أبا نواس ذلك الشاعر الشهواني العابث الذي وبعد توبته عن قصائده الشهوانية وخروجه من السجن كتب ملاحم عملاقة في الزهد والورع وفي الحب العذري والفلسفة

مالي وللناس كم يلحونني سفهاً

ديني لنفسي ودين الناسِ للناسِ

.. وكان أحمد يعشق أبا الطيب المتنبي بفخره بنفسه ومدحه لسيف الدولة الحمداني، ومن منا لا يعشق المتنبي عملاق الشعراء! وكان صديقي دائماً ما يردد مقولة: (لو ساعد الزمان المتنبي لأصبح ملكاً متوجاً!!!) وكنت أنا وشاهين نرد عليه بكلمات يسيرة وبصوت واحد قائلين: (يا أحمد كلمة "لو" تفتح عمل الشيطان ولا تقدم ولا تؤخر)

نقول كذلك والتبجح يملأ وجهينا. .أما شاهين فكان شاذاً عنا فهو متيم بشاعر يعتبر من الشعراء الحديثين فهو عاشق لشعر وفلسفة جبران خليل جبران ودائماً ما يردد بيتاً من الشعر لجبران هو بداية قصيدته العملاقة "المواكب"[2].

الخير في الناس مصنوع إذا جبروا
والشر في الناس لا يفنى وإن قبروا

"آهٍ منك يا جبران" كانت تلكم الكلمات دائماً ما يرددها شاهين بعد أن يلقي ذلك البيت الجبراني!

.. قبل أن أعود إلى الحادثة المضحكة، اعذروني إخواني عن شطحاتي في الكتابة وعدم التقيد و الالتزام بأصول وقواعد الكتابة الأدبية والتسلسل الروائي، فالكتابة عن أصدقائي تجعلني أرتجف واهتز والدمع منسكب ويختل توازن القلم فالعواطف محفورة في أعمق خلجات روحي والذكريات وآهٍ من تلكم الذكريات تجعلني أنساق بلا قصد مني خلف تلك العواطف التي تنتظر بعد سنوات طوال قرار الإفراج

---

(2) "المواكب" من أجمل ما كُتب شعراً في تاريخ القصيدة العربية من وجهة نظري ذلك أن القصيدة تجمع أغلب ما يحتاج إلى معرفته الإنسان من الصدق والحب والخير والغدر والحياء والموت، لأجل ذلك أنصح القارئ الكريم بقراءة هذه القصيدة.

عنها، وها أنذا وفي هذه الصفحات اليسيرة أحاول أن أعتق عواطفي وأعلن حريتها..

ذكريات الأمس الماضية..

أبحرت بي فوق الأمواج العاتية..

.. أعود إلى الحادثة المضحكة فبعد أن انتهت المناقشة في ذلك اليوم أخذنا جهاز التسجيل لكي نستمع إلى ما قلناه عن الشعر العربي وشعرائه.. وكان الشيء المضحك في ذلك الزمان المحزن لي الآن هو أن أحمد المتيم والعاشق للمتنبي ومع انسجامه واندماجه كان يقول بصوت رنان:

"المتخبي! المتخبي! إني أعشقك يا أيها المتنبي..."

كان يقولها بدل أن يقول "المتنبي". كانت تلك الحادثة من ضمن العشرات من الحوادث المضحكة التي تزيد من حلاوة اللقاء وتجعل السعادة مرسومة على أوجهنا التي تمر الآن أمام عيني كشريط بحركة سريعة، تمر تلك الذكريات التي حفرت في داخل ذاتي أعمق معاني الحزن، الحزن أتعلم يا من تقرأ معنى الحزن!!

(2)

كنا ثلاثة أصدقاء وعندما أقول أصدقاء فإني أقصد تلك الصداقة التي تتلاشى أمامها كل الحواجز وتقف الدنيا بأسرها إجلالاً واحتراماً لها. نعم إني أقصد تلك الصداقة التي تغيب في محيطها كل المصالح، فقد كنا كالجسد الواحد إذا اشتكى أحد منا قمنا واتحدنا ثلاثتنا لنجدته ومساعدته، كانت أسرارنا في بئر عميقة لا يصل إليها أحد ولا يفكر بشر في أن يقترب منها. فقد كانت أسرارنا متشابكة ومتداخلة ومرتبطة بعضها ببعض بسبب واقعنا المشترك! كانت صداقتنا كالواحة وسط الصحراء تجعل المشاهد يقف رافعاً يده تقديراً وتبجيلاً لنا، نعم تلك هي صداقتنا نماذج خلابة ومشرقة، كنا نجتمع على الخير والصلاح ونحاول أن نزيد ونطور من قدراتنا الفكرية والذهنية ونبتعد عن سفاسف الأمور وصغائرها، كانت عقولنا أكبر بكثير من أعمارنا، كنا نتحدث بأشياء تكبرنا فقد كان لكل واحد منا فلسفته الخاصة به، وكانت لنا مبادئنا التي نؤمن بها إيماناً خالصاً. نعم كنا ثلاثة أصدقاء كالنجوم تتلألأ في السماء.

.. كنا نحلم حلماً جميلاً بأن نقوي ونعمق من صداقتنا بأن نرتبط بثلاث أخوات حتى تزداد الصداقة وتقوى الألفة وقد اتفقنا ذات يوم ونحن في غرفة شاهين بأن يسمي كل واحد منا على اسم صديقه! نعم يا من تقرأ أسطورة ساش كانت أحلامنا بيضاء عملاقة. كنا نحلم ونحلم ولا نتوقف عن الأحلام، فما من إنسان يحيا ويعيش بدون حلم، بدون هدف يسعى إليه ويبذل في سبيله الغالي والنفيس، فالأحلام هي روح الحياة فهي التي تشعرنا بوجودنا، بل إننا بلا أحلام نكون لا شيء أبداً، حتى الحيوانات تعيش مع الأحلام! فهي تحلم ولكن على قدر وجودها ومحيطها! والقاعدة الفلسفية تقول: بما أني أحلم بكذا وكذا إذن أنا موجود! فالأحلام هي المكون لحياتنا وأدق تفاصيلها، ولكن يجب أن تتحرك الأحلام وتنبثق على أرض الواقع بأفعال تصنع من الواقع مستقبلاً نحيا لأجله. كانت أحلامنا نحن الثلاثة عملاقة وعظيمة تقتحم الوجود بأكمله. .فقد كنت أدرس الإدارة وأحلم بأن أصبح أستاذاً مشاركاً في الإدارة أحصل على الماجستير والدكتوراه من كلية هالي فاكس[3] في كندا ولأني

---

(3) "هالي فاكس" من أفضل الجامعات في مجال الإدارة ويذكر أن شركة مايكروسفت تأخذ من خريجي هذه الجامعة وذلك لتميزهم في فن الإدارة.

أبحث عن التميز ولشدة إيماني بأن التميز ليس هو النجاح فقط وإنما هو الغرابة والنجاح معاً!لذلك كنت لا أنفك أقرأ في علم الإدارة وكل ما له صلة من قريب أو بعيد بهذا العلم الذي أعشقه! نعم أعشقه عشقاً جنونياً ارتبط بي منذ شعرت بوجودي، حاولت في جميع قراءاتي أن أصل إلى إجابة شافية عن ذلك التساؤل الإداري الذي يملأ عقلي.

كيف ينجح ويبدع المدير الإداري بدون أن يصدر الأوامر؟

.. كنت أحاول أن أصل إلى الإجابة عن ذلك التساؤل بل إني في فترة من الفترات أصبحت باحثاً فقط عن إجابة لذلك السؤال المحير: كيف يستطيع الإنسان في حياته الاجتماعية بشكل عام أن ينجح بدون أن يصدر الأوامر؟ قرأت في كتب " لاتسو تارتية كينج " وعرفت أن النجاح والتميز في المنظومة الإدارية بدون إصدار الأوامر يسمى: (ذكاء عدم الهجوم أو سيادة الرجال) وقد حصلت على نتيجة مبسطة استخلصتها بعد عدة قراءات في المجال الإداري وهي: أن تلك الفئة من الإداريين يخلقون كذلك من غير قصد أو ذكاء فيهم، ومن خلال نظراتهم يفهم ما يريدون لذلك تنفذ مطالبهم من دون إصدار الأوامر.

***

.. وكان حلمي الكبير بأن أصبح كاتباً ناجحاً أكتب القصة والرواية، أكتب ما أشعر به، أكتب حزني، بل أكتب واقعي! أكتب ما أؤمن به، أكتب لأخمد ذلك الصراع الرهيب المتأجج الثائر في داخلي، إنه صراع من أجل إثبات الوجود وأن أجعل لوجودي وجوداً آخر، نعم وجوداً في هذا الزمان المليء بالعثرات والمتاعب، كنت ومازلت أعتقد أن الموهبة كالكائن البشري يعتريها الكثير من المصاعب والعلل التي تنتاب المخلوقات لذلك حرصت أن أجعل من صديقيَّ موجِّهين لي ومساعدين لي وكذلك أن أجعل من الحلم واقعاً ملموساً واقعاً جميلاً لذلك كنت أكتب القصص وأحضرها لهما ليقرآها ويقوماها وينقداها. كنت بهذه الطريقة أطور قدراتي الكتابية وأخلق فلسفة كتابية خاصة بي أنا، محاولاً أن أكتب الغريب وأن أمارس الجديد وأتخطى القيود والحواجز لكي أرضي شغفي وولهي وحبي للكتابة الجنونية! وعندما أذكر مصطلح "الكتابة الجنونية" فأنا أقصد تلك الكتابة السلسة التي تجعل القارئ يتشوق شوقاً جنونياً لإكمال القراءة، أحاول أن أستحدث وأبتكر بل أخترع لي مساراً خاصاً طريقة جديدة، أحاول أن أجعل قصصي أنا، فأنا مزيج مركب من روايات وأحداث وواقع حزين وغربة مؤلمة! لأجل ذلك فأنا أكتب كما يقودني قلمي، كما يقودني حبيبي!

نعم إن القلم عشيقي! أحاول أن أكتب ولا أبحث عن الكلمات بل هي من تبحث عني! كنت ومازلت وسأظل أستشف من العملاق فيدور دستويفسكي فلسفته الخاصة في كتبه والحرب المستمرة التي دائماً ما يخلقها في أشخاص رواياته بين الخير والشر، بين الحق والباطل، ذلك الصراع المستوطن في بني الإنسان. .نعم إخوتي إني أحاول أن أستوحي منه تلك الطريقة الرائعة، تلك الفلسفة العجيبة، ذلك السحر الذي يشد القارئ ليكمل الرواية، محاولاً توظيفها في قصصي وفلسفتي بما يتناسب مع معتقداتي وهنا محطة للوقوف والتأمل فليس كل ما يُكتب لديهم يكون صالحاً ومقبولاً من الناحية الخُلقية والاجتماعية لنا. يجب أن نفصل بين المؤلف الذي يحاول النجاح على أكتاف مجتمع وعادات وتقاليد أمته وبين من يحاول ويسعى للنجاح لإصلاح الخلل في نفسه وبعد ذلك يحاول بكل نية سليمة إصلاح الخلل في مجتمعه، إني أعلنها الآن وبعد قراءات متعددة الثقافات أن الكُتاب الآخرين يحترمون أنفسهم باحترامهم لمجتمعاتهم أكثر ألف مرة من كتابنا!! نعم وللأسف فالروائيون عندنا يأخذون نماذج قذرة ويعممونها على مجتمع يضم قمماً شامخة ويجعلون من المرأة وسيلة للوصول إلى غاية قذرة وحقيرة!نعم وللأسف كتابنا يبحثون عن الخلل ليس من أجل إصلاحه

ولكن من أجل نشره، فبنشره تزداد مبيعات كتبهم القذرة! آهٍ لأمة تنشر غسيل نفسها! إن الكاتب الناجح هو الذي يحترم نفسه باحترامه وتقديره لأهله ومجتمعه فهو الذي لا يجعل من أخطاء مجتمعه مادة لكي ينتشر بسببها في الآفاق. إن الكاتب الناجح هو الذي يحترم دينه ووطنه وزوجته وأطفاله أيضاً في المستقبل عندما يصبح كهلاً. ألا يخجل هؤلاء من نظرة طفل أو نظرة زوجة؟ ألا يخجل هؤلاء قبل كل شيء من جلسة مصارحة مع الذات ومراجعة للماضي؟ ألا يخجل هؤلاء! يجب أن يفكر كل كاتب ألف مرة قبل أن يكتب سطراً واحداً؛ إن تلك الكلمات البسيطة إما أن تكون قارب نجاة له وإما حبل مشنقة حول رقبته! وهذا الحبل ليس من قبل رقابة دولة أو من قبل الناس وذلك أحياناً لا يهم وإنما من نظرات طفل ينسب إليه. ألا يخجل هؤلاء من جعل مبادئنا وعاداتنا وقيمنا مادة للاستهزاء والسخرية! يجب أن يحترم كل من يكتب سطراً أو مجلداً زوجته وأطفاله ومجتمعه باحترامه لنفسه ودينه وتقاليد مجتمعه، يجب على كل مؤلف أن يسأل نفسه قبل أن يبدأ بالكتابة:

لماذا أكتب؟

ولمن أكتب؟

إذا عرف كل مؤلف الإجابة عن هذين السؤالين استطاع

أن يكون متميزاً وناجحاً ومحافظاً على احترامه لنفسه، وللأسف أصبح النجاح في الكتابة أن يذم الكاتب ما نؤمن به ليقال إنه ناجح ومتميز!

***

.. نعم إخوتي إني آخذ من كل بحر قطرة، قطرة تتناسب مع ما أؤمن به وما يجعلني أكثر احتراماً لإنسانيتي، لا يهمني من أين أخذ الحكمة ومن كاتبها ولكن الأهم لديّ أن آخذ ما أؤمن به وما لا يتعارض مع معتقداتي، لذلك تجدني آخذ من العملاق مكسيم غوركي كيف يحاول إصلاح مجتمعه وذلك الحب الجنوني لوطنه ومعتقداته، أحاول أن أفهم الأم! نعم أحاول أن أفهم الأم، لأني لم أفهمها، أحاول أن أعرف الأم كما كتبها مكسيم غوركي. أحاول أن أفهم تلك الجامعة التي لم أدخلها ولم أُقبل بها! وأنتقل إلى بحر آخر إلى جبران خليل جبران لآخذ منه تلك الطريقة السلسة في الكتابة وقدرته العجيبة على شد القارئ لما يقرأ وكذلك لقدرته الخارقة على سبر الأعماق الإنسانية والتغلغل في ملكات الوجدان والتحدث عن النفس وما يختلج فيها من المتناقضات، محاولاً بذلك أن أختطف منه حكمته ووصفه الدقيق لكل شيء، وقد حرصت قبل كل شيء أن أشبع شغفي

المعرفي بقراءة السيرة المحمدية وسير الأنبياء وكتب الفقه والمذاهب الأربعة، وكذلك حرصت على أن أقرأ التاريخ، فالتاريخ واقتحامه هو مفتاح الإبداع، وكنت دائماً أضع أمام عيني مقولة: (إن تاريخ العالم قد صنعه الصفوة أي الأقلية)[4]. وأنا وصديقاي أقلية. هذه المقولة تضعني وصديقيّ ممن يمتلكون العزيمة والإصرار على تحقيق طموحهم أمام واقع مهم جداً وطريق لا مناص منه وهو التاريخ ومن ثم التاريخ واقتحام التاريخ، إذا كان التاريخ قد صنعته الأقلية فإن قراءة التاريخ ودراسته إذا امتزجت بالحلم والإصرار تصنع إنساناً مفكراً ذكياً يعشق التحدي لأنه قرأ وفهم أن بداية النجاح شعرة بسيطة تمتزج بالعزيمة والإصرار على تحدي وتخطي كل الحواجز والعوائق للوصول إلى إرضاء الذات وإشباع شغف الروح والنفس...

اعذروني إخوتي فقد نسيت أن أقول لكم إننا ثلاثة أصدقاء سامي وأحمد وشاهين.. ثلاثة أصدقاء كالنجوم تتلألأ في السماء.

(4) ذكر تلك المقولة هتلر في كتابه الجميل "كفاحي".

(3)

كان كثير التأمل يسرح بخياله وبأفكاره، يرى في كل شيء شيئاً آخر لا يراه إلا هو، كان واسع الخيال يطير بخياله بعيداً عن الوجود وعن الأحداث، يحاول باستمرار أن يكتشف السر في كل شيء، متخيلاً صوراً وهمية لا وجود لها في الواقع يخاطبها وتخاطبه، يناجيها وتناجيه كما يناجي المحب محبوبته! كان دائماً يظل متأملاً فترة طويلة وذلك من أجل أن يشعر بحقائق الحياة وصورها المتعددة. كان يعيش في صراع دائم في داخله، ذلك الداخل الممتلئ بالطموح وبالأحلام، صراع من أجل إثبات الذات وتفجير الكنوز المدفونة، كان دائماً يقول ذلك المتأمل: إن الحياة لغز! لغزٌ كبير! وإنها عجيبة وإنها غدارة! ومن أجل ذلك يجب على كل إنسان أن يجابه اللغز ويبحث عن الإجابة بطريقته هو. ويقول أيضاً: إن اللوحة الفنية حتى وإن كانت خطوطاً بسيطة فهي بحث مستمر عن الحقيقة وهي تحليل لكل موجود وليس تقليداً له.. وهي كذلك بحث عن العلو وليس عن التعالي، فالأول كما يقال حقيقة رائعة والآخر خيال. إنه وحيد يرتدي

البساطة ويتغذى بالتأمل ويجلس بالقرب من الطبيعة ليدرك معنى الإبداع والاستغراب! يناجي ذلك الطفل الكائن في كينونته. فدائماً يردد: في كل فنان مهما تغير عرقه وثقافته طفل، طفل يناجيه ويناقشه وأحياناً يعاتبه. إنه الشاعر والرسام والمبدع شاهين، صديقي يسهو في سكينة الليل منتظراً نزول الروح ليبذر في شعره وريشته رياضاً من الإبداع والاختراع! يكتب قصيدة ويضمها بلوحة فنية تجعل المشاهد يبحر ويبحر في عالم غريب، عالم يملأك بالاستغراب، وأنت تتأمل ما يكتب ويرسم ينبثق من داخلك فجأة إنسان آخر يحاورك وتحاوره حواراً مشتركاً بين اثنين! إنه شاهين ذلك الرسام والشاعر والمتأمل، نعم إنه صديقي الفنان الحقيقي الذي يمسك الأشياء من جذورها لينبتها ويعيد تشكيلها بطريقته هو! نعم هو! يعشق الضوء والظل في كل ما يرسم. فكان دائماً يردد: إن كل الأضداد تجتمع في الضوء والظل، الحب والكره، الموت والحياة، الجنة والنار، الليل والنهار، الخير والشر، الحرية والكبت، الظلم والعدل، الحقيقة والباطل.. كل الأضداد تجتمع في الضوء والظل. ومن أجل هذا التباين بين الضوء والظل كان يعشق لوحات الرسام الإيطالي تينتو ريتو ذلك الرسام الذي عاش في القرن السادس عشر الميلادي وتميزت لوحاته بالتباين الشديد بين الضوء والظل وكان صديقي يحلم أن يجعل من ذلك التباين اندماجاً. هذا هو صديقي في غرفته تجد مدرسة مصغرة في الفن التشكيلي

بما تحويه من صور لعدد من اللوحات الفنية، إنه عاشق الريشة صديقي...

* * *

.. وأنا أكتب الآن والذكرى ماثلة أمام عيني، صديقي شاهين وتلك اللوحة الكبيرة التي تتوسط غرفته، تلك اللوحة التي لا تجد فيها محتوى رسام من الألوان والخطوط والأشكال وإنما تجد بها ثلاث كلمات تعبر عن ثلاثة أساليب لإدراك الوجود وفهمه ومن ثم تحليله ورسمه: الواقعية، المثالية، التعبيرية. فالواقعية هي محاولة لتصوير العالم كما نراه بالضبط من دون أي تغيير فيه، أما المثالية فهي تبدأ من أساس واقعي وبعد ذلك تنتقي ما تشاء من عالم المحسوسات والمرئيات، أما التعبيرية فهي مبنية على العواطف الذاتية للفنان، فالفن هو نقل للعاطفة كما ذكر ذلك تولستوي... إنك عندما تترك تلك اللوحة وتتأمل ما بجانبها هناك تجد لوحة مطبوعة للفنان فان كوخ وأخرى للرسام الغريكو وخلف سريره تجد لوحة مطبوعة للرسام بول غوغان ذلك الرسام الذي بنيت المدرسة الفنية التي تسمي نفسها بالوحوش عليه. وهي مدرسة تهتم بالزخرفة في الرسم. وبعد أن تلتفت يميناً تجد لوحة مصورة للرسام بول سيزان رائد الحركة التكعيبية وهي الحركة التي ترسم الأشياء وكأنها تلمسها من جميع الجهات، وبجانبها تجد لوحة مطبوعة لذلك الرسام الخطير

جداً والأكثر ذكاء بابليو بيكاسو[5]، وتتربع على جدران غرفته لوحات مصورة للرسام والفيلسوف والشاعر جبران خليل جبران فهو العاشق المتيم بجبران.

* * *

هذا هو صديقي شاهين، إنه يحاول العثور على شيء ما أو أمر موجود أصلاً حقيقة كائنة ولكن معناها أو مكان وجودها أو كيفية استغلالها واستعمالها ظلت غامضة منذ عرف الكون! إنه يحاول أن يكتشف في كل إنسان الشيء الغامض المبهم، الشيء الذي لا يراه الإنسان بنفسه، ذلك هو شاهين الرسام! كم أبكي الآن وأنا أتذكر ريشته، كم أبكي وأنا أشاهد لوحاته متأملاً تلك الألوان المندمجة المتفاعلة بعضها مع بعض، وأظل أتأمل لوحاته والدموع تشيعني معلنة أن الليالي التي مضت قد خلقت الذكريات، معلنة أن الدنيا قد ظلمت شاهين! والذكرى تزداد صراخاً في داخلي. . .

ذكريات الأمس الماضية. .

---

(5) إن التحدث عن المدارس الفنية وكذلك الاتجاهات في الرسم قد يطول لذلك أحيل القارئ الكريم إلى قراءة كتاب (الحرية والطوفان) مقال باسم (السيريالية والاتجاهات الحديثة في الرسم) لجبرا إبراهيم جبرا ص 202 وقد أخذت من هذا المقال بعض المعلومات بتصرف.

أبحرت بي فوق الأمواج العاتية..
ذكرتني الذكريات بأصدقاء..
لهم داخل قلبي إخاء..

والسنوات مرت الآن والذكرى تعيد إلي تلك الحادثة التي لن أنساها ما حييت عندما اتصلت بشاهين والفرح يملأ عقلي وكل جسدي! نعم فرح النجاح، فرح العودة! قلت له قبل كل شيء: أين أنت يا صديق الروح؟ كنت أريد أن أقابله وأن أبشره. نعم أبشره. فهو يعرف أن سامي ذلك الكاتب القصصي قد مرت عليه ظروف نفسية جعلته يبتعد عن أجواء الكتابة، كنت أريد أن أعطيه قصة كتبتها في يوم واحد، نعم لقد تفجرت في ذلك اليوم الغريب من أيام الشتاء، كتبت وكتبت وعندما أنهيت الكتابة لم أفعل ولم أفكر إلا في أن أبشر أعز البشر شاهين، قابلته وأعطيته القصة، تلك القصة التي تتحدث عن الفوضى، فوضى العواطف والمشاعر لدى البشر، تتحدث عن الحب العذري الذي يكتمل بالارتباط، كنت فرحاً وأنا أتأمل نظرات صاحبي تلك النظرات التي تزرع الثقة وتحييها في شخص سامي، كم كنت سعيداً وأنا أمسك القصة. عشرون ورقة، عشرون ورقة أخرجتها من روحي ومن قلبي! عشرون ورقة أول من لمسها وقرأها صديقي شاهين، عشرون ورقة هي الأقرب إلى روحي، أعطيته الأوراق وتركته ليتفرغ لقراءتها. خرجت مسرعاً أمشي والسعادة تملأ روحي، لست عاشقاً عادت إليه

معشوقته ولست أباً ينتظر رجوع ولده وفجأة رجع والنجاح وسامه، لا لست أي شيء! بل أنا كاتب وأحاول أن أصبح كاتباً بكل ما في هذه الكلمة من جبروت وعظمة! إني سعيد جداً لأن القلم عاد إليّ، أحسست أن الدنيا لا شيء أمام سعادتي! كيف يتكون العشق بين كاتب وقلم! كيف يتحول هذا العشق إلى جنون؟ نعم كنت كذلك في ذلك اليوم لقد عاد إليّ معشوقي! بعد أن تركت صديقي خرجت أمشي والفرح يُظهر علامات من الابتسامات! لقد كنت الأسعد في ذلك الوقت، وبينما أنا والسعادة نمشي في الشوارع اتصل بي شاهين طالباً مني أن أعود إليه، وكنت تركته قبل ثلاث ساعات تقريباً وبسرعة البرق توجهت إلى غرفة شاهين، دخلت الغرفة وإذ به يستقبلني ويمد لي لوحة! نعم لوحة قد وقع في ركنها كاتباً (العفاف) قلت له والاندهاش يمتلكني: ما هذه اللوحة الرائعة؟ قال لي وتقاسيم وجهه تمتلئ بالمحبة والود: هي لك! رددت عليه والحيرة تقتحم تفاصيل وجهي الفرح: لي أنا لماذا؟ فرد عليّ صديقي قائلاً: هذه لوحة رسمتها ريشتي قبل ساعة تمثل أبطال قصتك! عندما سمعت ما قال لم أستطع أن أرد أو أن أتكلم أو أن أعبر، لقد أُصبت بالعجز ولم استطع خلق الكلمات وأنا الكاتب! لقد كان الموقف أكبر من كل الدنيا، بدأت نظرات الصداقة تكمل سرد الحكاية، اقتربت منه وقبلت جبينه! أتعلمون لماذا قبلت جبينه؟! لأنه بهذه اللوحة قد حقق لي أحد أحلامي بأن يرسم فنان أبطال قصصي كالعمالقة! وأنا أتذكر تلك الحادثة

أتساءل: هل يوجد أصدقاء في هذه الدنيا مثلنا؟ هل يوجد ارتباط وانسجام روحي مثلنا؟ هل يوجد إحساس بالطرف الآخر ومعرفة بمشاعره كما يحصل بيننا؟ نعم كنا ثلاثة أصدقاء...

هذا هو شاهين صديقي الشاعر والرسام والمتأمل والطيب لقد كان أطولنا وأكثرنا هيبة جسدية تمنحه طلة شامخة، وكانت الحبوب تتناثر على وجهه من أجل ذلك كان دائماً يردد: "هذا هو جزاء الرسام". هذا هو شاهين يدرس في كلية الفن التشكيلي والحالم بأن يصبح كجبران فيلسوفاً ورساماً وشاعراً. لذلك كان يدرس في النهار ويرسم في الليل وحدته وعزلته ويكتب القصائد كل ذلك من أجل أن يثبت وجوده، كان يحلم بأن يكمل دراسته في الفن التشكيلي بإيطاليا، نعم هذا هو شاهين ينبوع من القوة والعظمة والإرادة وأيضاً من الشفقة والشعور بالآخرين.. هذا هو صديقي شاهين.. كنا ثلاثة أصدقاء كالنجوم تتلألأ في السماء.

(4)

كثيرٌ هم أولئك المتأملون، المستغربون، أولئك الذين يعيشون في استغراب واضطراب دائم ولا يبرحون يتساءلون:

لماذا وقع هذا؟

لماذا يحدث كل ذلك؟

إلى متى يستمر ذلك؟

ما هو الموت قبل الوجود!؟

لماذا أنا كذلك؟

كثيرٌ هم المستغربون من كل شيء موجود في حياة البشر، كثيرٌ هم أولئك المتعجبون، أولئك الذين يعتقدون أن الحياة ليست إلا أضحوكة تمتلئ بالمتناقضات! كثيرٌ هم أولئك البشر الذين يعتقدون أن كل شيء موجود بين يدي الإنسان ومع ذلك يدع الإنسان كل شيء يمر أمامه بلا أي فعل أو حتى صوت! كثيرٌ هم أولئك الذين يوصفون بأنهم بشر. ولكن لقب الإنسان أو من يستحق أن يكون إنساناً من

وجهة نظر أولئك المستغربين هم أولئك الأشخاص الذين ينذرون أنفسهم وحياتهم من أجل تحطيم كل العوائق والظروف التي تغيب وتغلق عقل الإنسان!

.. كان أكثر المستغربين استغراباً، بل كان أكثر الناس تعجباً واستفهاماً، كان يرى في كل شيء أشياء وليس شيئاً واحداً! كان دائماً يقول: "إني باحث! باحث ومفتش عن الفضيلة! إني باحث عن الحق! عن الحقيقة، إني مؤمن بالحرية التي أساسها ومنبعها العدالة! إني أبحث عن الفضيلة الكبرى عن الحكمة، في مدينة الفارابي كل شيء يجعل الإنسان حكيماً! نعم إني أبحث عن حقيقة الأشياء". وعندما نسأله: أية حقيقة؟ كان يرد والاستغراب قد ملأ تفاصيل وجهه قائلاً: "الحقيقة للأسف لا أعرفها! ولو كنت أعرفها لما بحثت عنها! إني أحاول أن أقوم بالتفكير، أحاول أن أصل إلى حقيقة ما هو ضروري أو باطل أو ما هو صالح أو مقيد ومضلل وفاسد! إني كسقراط أحاول أن أسأل أسئلة متعددة من أجل أن أقترب ولو مجرد اقتراب من فضيلة الذات لمحبة الأشياء الجميلة، إنني كسقراط وكالفارابي! أمثلهما في هذا الزمان! أحاول أن أصل إلى الحقيقة التي تقودني إلى الحكمة، لكني وفي الوقت نفسه أعترف أني لن ولن أصل إلى حقيقة كل شيء! فالوصول إلى ذلك الهدف أشبه بحلم لا يطال! ولكني أحاول أن أتعرف على جزء يسير

من تلك الحقيقة! أنا أفكر وأستمر بالتفكير والتأمل لكي أشعر بوجودي، لست وجودياً ولست من أنصار الفلسفة الوجودية التي تعطي الحرية الكاملة والمطلقة لكل رغبات الذات وملذاتها والتي بدورها تقود لا محالة إلى الشك والانحلال، فأنا أؤمن بوجود خالق ومسير لهذا الكون ولكني أؤمن بحسب فهمي! عندما أتفلسف فهذا لا يعني أني ملحد أو غير مؤمن، بل إني أتفلسف وأحاول ذلك من أجل إسعاد ذاتي! قد يقول قائل: السعادة لا تأتي هكذا! ولكن هذا القائل لا يعرف أن للسعادة أوجهاً متعددة وسمات متنوعة، إني أحاول أن أعيش وحيداً متفلسفاً وأحياناً ساخطاً فقط وذلك من أجل أن أكون سعيداً!! فالسعادة تكمن أحياناً في إذلال الذات وكبح ملذاتها وشهواتها وجعلها حزينة! إنني كسير الجناح! محطم حتى أبعد الحدود، أشعر أني حي ولكني ميت! وميت ولكني حي! صحيح أن القدر هو الذي اختارني وصديقيّ لذلك الواقع الأليم الفظيع ولكن ما حيلتي يجب أن أحيا هذا الواقع، يجب أن أفسر كل شيء تفسيراً آخر، يجب أن أقلب المعادلات حتى أجد الحلول الأخرى وإذا لزم الأمر أخترع حلولاً جديدة! يجب أن أقوم بالتفلسف وأحياناً بالتخبط! فكلنا نذهب في طريق نشذ ونتخبط ولكننا نعود إلى الحق والحقيقة نرجع إلى الحكمة إلى الفضيلة، يجب أن أجد نفسي وأبحث عنها! وأجعلَ غيري يعرف من أكون ومن أنا!!"

"... إني أحتفل بنفسي وأتغنى بنفسي..
وكل ما أدعيه أنا عليك أنت أن تدعيه
لأن كل ذرة تنتمي إليّ تنتمي إليك أنت أيضاً..

ها هي ذي المائدة قد مدت بالتساوي للجميع.. وهاهو ذا الطعام للجوع الطبيعي
وهو للطالحين كما للصالحين.. إني أضرب المواعيد للجميع!!
ولن أقبل أن يُهمل أحد أو يمس شعوره بشيء
فالخلية المستقعدة، والطفيلي، واللص، كلهم مدعون ههنا..
والعبد بشفتيه الغليظتين مدعو، والممروض جنسياً مدعو،
وليس بينهم وبين الآخرين من فرق.

أنا شاعر المرأة والرجل سواء بسواء،
وأقول إن المرأة عظيمة كالرجل،
وأقول ليس هناك ما هو أعظم من والدة الرجال.

إني لست شاعر الخير فحسب، إني لا أرفض أن أكون شاعر الشر أيضاً
ما هذا الهذر عن الفضيلة و الرذيلة؟

فالشر يدفعني وإصلاح الشر يدفعني، أما أنا فأقف غير مبالٍ،
فليست مشيتي مشية من يبرز العيوب ويكثر الرفض.
إني لأرطّب جذور كل شيء ينمو ويترعرع.

بين ثناياي عديد من أصوات طويلة بكماء،
أصوات أجيال لا تنتهي من المساجين والعبيد،
أصوات الممروضين واليائسين واللصوص والأقزام،
أصوات دورات من التمهيد والتراكم،
والخيوط التي تربط بين النجوم، والأرحام ونطفة الآباء،
وحقوق الذين داسهم الآخرون،
والمشوهين والعاديين والفاهين والحمقى والمحتقرين،
والضباب في الهواء والصراصير تدحرج كريات من الزبل.

بين ثناياي أصوات محترمة،
أصوات الجنس والفحشاء، أصوات محجّبة أرفع عنها الحجاب
أصوات خليعة أنقيها وأبدل أشكالها.

أظن أن بوسعي أن أذهب وأعيش مع الحيوانات، فهي مستكينة قانعة بنفسها.
وإني لأقف وأطيل إليها النظر.

فهي لا تعرف جهداً ولا تئنّ متشكية من أحوالها،
ولا تأرق في الظلام وتبكي لخطاياها،
ولا تُضيق صدري بحديثها عن واجبها تجاه ربها،
وليس بينها حيوان يتذمر، أو حيوان جُنّ بسعيه وراء المقتنيات،
لا يخر أحدها ساجداً لآخر، أو لبني جنسه ممن عاشوا قبل آلاف السنين،
وليس بينها وجيه أو بائس على وجه البسيطة كلها.

هذه هي المدينة، وأنا أحد سكانها.
وما يهم الغير يهمني: السياسة والحروب والأسواق والجرائد والمدارس،
ورئيس البلدية، والمجالس، والمصارف، والمكوس،
والبواخر، والمصانع والأسهم، والمخازن والعقارات والأراضي.

لقد آن لي أن أفسر نفسي. فلنقف!

المعلوم أنضوه عني،
وأقذف بالرجال والنساء جميعاً في غمرة المجهول.

تدل الساعة على اللحظة هذه. ولكن ما الذي تدل عليه الأبدية؟

الماضي والحاضر في ذبول . لقد ملأتهما ، وأفرغتهما ،
وها أنا أستمر فأملأ ثنايا المستقبل.

أيها المصغي هناك! أعندك ما تُسره في أذني؟
أنظر في وجهي وأنا انتشق عطر المساء،
(وتكلم بإخلاص، فليس من يسمعك غيري، ولن أمكث إلا دقيقة أخرى).

أتراني أناقض نفسي؟
حسناً إذن، إنني أناقض نفسي،
(عظيم الاتساع أنا ، وأحوي الجموع الزاخرة).

لقد ركزت همي في الذين هم قربي، وأنا على عتبة الباب أنتظرهم.
من فزع من عمل يومه؟ من ينتهي من عشائه قبل غيره؟
من يريد المشي برفقتي؟

تكلم قبل أن أذهب، أم أنك ستبطئ فيفوت الأوان؟

لن تكاد تعرف من أنا أو ماذا أعني،
ولكني، إلى ذلك، سأكون صحة لك طيبة،
وأنقي دمك وأنسِغُه،
فإذا لم تجدني بادئ الأمر، تشجع،

وإذا افتقدتني في مكان، ابحث عني في مكان آخر.
لقد وقفت في مكان ما في انتظارك...»[6]

***

إنني خليط مركب، خليط معقد أحياناً، وسهل أحياناً أخرى! خليط من ولت وتمن من أفلاطون من سقراط وبرجسون وغوته وفريدريك نيتشه وأبقراط وابن خلدون وبلزاك وجوجول والقصيمي صديقي! خليط من كل شيء، أحاول أن أطبق تعريف الثقافة فآخذ من كل شيء شيئاً بسيطاً! أحاول أن أجعل الشيء يختلط مع الشيء الآخر، إنني خليط من الماضي البعيد جداً وخليط من ذلك الماضي القريب، وخليط من هذا الحاضر، من هذا الواقع الأليم الذي أعيشه وأعيش كل جزء منه والجرح يزداد! إنني إنسان مجروح ينزف ألماً، مجروح ليس من حبيبة تركتني وحيداً وليس من صديق خذلني، لا والله بل أنا مجروح بسبب

---

(6) قصيدة «أغنية نفسي» لولت وتمن من ديوان (أوراق العشب) 1855 م بتصرف. ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، راجع كتاب «الحرية والطوفان» مقال بعنوان «أغنية نفسي» ص173، هذه القصيدة قد أحدثت ردوداً متباينة في المجتمع الأمريكي وذلك في القرن التاسع عشر الميلادي وهي قصيدة في زهاء ألفي بيت كما ذكر ذلك جبرا إبراهيم جبرا.

واقع! وأبكي على واقعي وأمقت هذا المجتمع الذي هو تجسيد لهذا الواقع! وأشعر بالكره لهذا المجتمع وكثيراً ما أحتقر كل جزيئات الحياة وأحياناً أصل إلى احتقار ذاتي! إن الفلسفة والتفلسف تجعلني أبتعد بخيالي على الأقل عن هذا الواقع المؤلم المحزن، تجعلني أذهب إلى مكان بعيد جداً. وحدنا أنا وفيلسوف نجلس معاً نتفلسف ونتناقش! أحاول أن أبتعد معه عن المجتمع، عن الأشخاص! فأنا أكره المجتمع والأشخاص الممثلين للمجتمع! أحاول أن أكون بعيداً عن الناس، أحاول أن أصنع لي خلوة وعزلة عن البشر، لأن عقلي كره البشر! أعلنها صراحة ومن غير مراء: إني أكره و أحتقر البشر! ويا حبذا الموت ومرحباً به!!

موت يسير معه رحمةٌ
خير من اليسر وطول البقاء
ما أطيب الموت لشرابه
إن صح للأموات وشك التقاء[7]

هذا هو أحمد صديقي، الهزيل جسداً، القصير قامةً، القوي الكبير عقلاً! المتمرد بأفكاره، يفكر ويفكر وإذا توقف

(7) أبو العلاء المعري (اللزوميات)، ص 76، دار الجيل، بيروت، 1969م.

عن التفكير كان التأمل هو أساس الوجود لديه! قال مرة وثلاثتنا على طاولة الطعام في الملجأ في السنوات الأولى من المرحلة الثانوية!

غدوت مريض العقل والدين فالقني
لتسمع أنباء الأمور الصحائحِ
فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالماً
ولا تبغ قوتاً من غريض الذبائحِ
ولا تفجعن الطير وهي غوافل
بما وضعت فالظلم شر القبائحِ[8]

نظر إليه شاهين وكان الذهول، ذهول وتعجب شاعر يملأ وجهه فقال: ماذا تقول! لكن الله سبحان تعالى أحل أكل اللحوم والأسماك وأنت يا صديقي عندما تقول كذلك فأنت تخالف مبدأً شرعياً! لو قلت مثلاً: أنا أبتعد عن أكلها للحفاظ على صحتي لكنت على حق ولم أستطع أن أجادلك ولكنك تحلل وتحرم وهذا يعني عدم الرضا والتسليم وهذا يؤدي إلى الكفر!!!

---

(8) يقصد الغريض: الطري أي ما ذبح وما لم يذبح من البر والبحر، راجع (اللزوميات) إشراف: عمر أبو النصر، ص 112 بتصرف. دار الجيل، بيروت، 1969م.

رفع أحمد رأسه وبدأ يتأملنا وكأنه يشاهد مناظر قديمة تعود إلى أزمنة غابرة قد مضى عليها الدهر وقال:

ودع ضرب النحل الذي بكرت له
كواسب من أزهار بنت فوائح[9]

كنت أريد أن أرد على فلسفته المسروقة!! ولكنه وقف وابتعد عن المائدة رافعاً رأسه وبصوت قوي قال:

ولا بيض أمات أرادت صريحة
لأطفالها دون الغواني الصرائح[10]

وبحركة سريعة وضعت يدي على كتفه والحزن، نعم حزن الصديق على صديقه وقلت له:

- ما هذا الكلام يا أحمد! ما هذه الفلسفة يا فيلسوف!

---

(9) هذا البيت يلخص كثيراً فلسفة أبي العلاء المعري حيث يرى أن النحل عندما تعب واجتهد لأجل الحصول على العسل، لم يكن يعمل ذلك ليأخذه غيره! راجع كتاب «اللزوميات» إشراف: عمر أبو النصر، ص17بتصرف. دار الجيل، بيروت، 1969.

(10) وهذا البيت أيضاً يلخص شيئاً من فلسفة المعري، حيث يرى أن صغار البهائم أحق أن تشرب اللبن من الإنسان. راجع كتاب «اللزوميات»، إشراف: عمر أبو النصر، ص 17بتصرف. دار الجيل، بيروت، 1969م.

أتحرم ما أحله الله! أتريد الدخول إلى نار جهنم! لن تنفعك صلاتك ولا صومك وهذه الأفكار تحتل عقلك!!

ابتعد عني قليلاً والتفت إلى شاهين ومن ثم أغمض عينيه وخفض رأسه وقال:

ما الخير صوم يذوب الصائمون له
ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وإنما هو ترك الشر مطّرحاً
ونفضك الصدر من غلٍ ومن حسد[11]

عاد شاهين والحزن يستوطن تقاسيم وجهه وكأنه أم تشفق على طفلها قائلاً:

- أحمد بالله عليك، ما هذا الكلام! وما هذه الفلسفة الغريبة الشاذة! بل ما هذه النزعة الإنسانية التي طغت عليك وجعلتك إنسانياً وأملت عليك ألا تأكل من لها دم وتطور بك الحال حتى مع البيض والعسل! لماذا؟ لم تكن كذلك يا صديقي! هل تريد أن تكون نسخة المعري في هذا الزمان! ما هذه الكلمات الغريبة؟ استغفر ربك وتب الآن فإن من حرم شيئاً أحله الله قد كفر! نعم كفر! أتعلم معنى الكفر؟!

---

(11) راجع كتاب «اللزوميات»، إشراف: عمر أبو النصر ص 17 بتصرف. دار الجيل، بيروت، 1969 م.

ارتفع وجه ذلك الفيلسوف واتجه نحو كرسي يتوسط غرفة الأكل وقال:

- الشر وطبيعته أكثر في الإنسان من الخير! والناس يأكلون بعضهم بعضاً بالحسد والكذب والنميمة و الحقد! ونحن يا صديقيّ شئنا أم أبينا، نحن أغراب في هذا المجتمع! إنني يا صديقيّ لا أحلل ولا أحرم شيئاً، وإنما أقول أبياتاً من الشعر أشعر أنها تخصني في هذا الزمان! إنني أحاول بابتعادي عن أكل تلك الأشياء أن أبتعد عن الدم عن الألم ولو مع الحيوان، لأن الألم صفة للشر الذي انتشر بين الناس! إن الألم هو المخلوق الذي يقتلني ويجعلني أعيش غريباً!

أولو الفضل في أوطانهم غرباء
تشذ وتنأى عنهم القرباء
وزهدني في الناس معرفتي بهم
وعلمي بأن العالمين هباء

***

وأرواحنا كالراح إن طال حبسها
فلا بد يوماً أن تكون سباء

وما قبلت نفسٌ من الخير لفظة
وإن طال ما فاهت به الخطباء

***

أرى فلكاً ما زال بالخلق دائراً
له خبرٌ عنّا يصان ويخبأ
فلا تطلب الدنيا وإن كنت ناشئاً
فإني عنها بالأخلاء أربأ
وما نوب الأيام إلا كتائب
تبث سرايا أو جيوش تُعبأ

***

بني الدهر مهلاً إن ذممتُ فعالكم
فإني بنفسي لا محالة أبدأُ
متى ينقضي الوقت والله قادرٌ
فنسكن في هذا التراب ونهدأ
تجاوز هذا الجسم والروح برهة
فما برحت تأذى بذاك وتصدأ

***

إن مازلت الناس أخلاق يُعاش بها
فإنهم عند سوء الطبع أسواءُ
أو كان كل بني حواء يشبهني
فبئس ما ولدت في الخلق حواء
بُعدي من الناس برءٌ من سقامهم
وقربهم للحجى والدين أدواء[12]

***

هذا هو أحمد صديقي، الفيلسوف الساخط المتهم البشر، يعشق الانطواء والخلوة! وهو السبب الرئيس بعدم عيشنا معاً بعد خروجنا من الملجأ! يعشق الوحدة ويرى أن الوحيد والمنفرد بذاته يستطيع أن يكتشف نفسه ويعرف نفسه! بالوحدة يستطيع الواحد منا أن يعرف حدود ذاته وكينونته على الأقل، إنه فيلسوف بكل شيء وأي شيء حتى بأصغر جزيئات الحياة، كان دائماً يردد: ظلمة، وحدة، عزلة، حزن، قلم، ورقة، تأمل، استغراب، أسئلة، تصنع فيلسوفاً..! ويضيف ".. لست أثق بأي شيء ولا أهتم لأي شيء سوى قدسية

---

(12) سباء: الذهاب بالخمرة من بلد إلى آخر. راجع كتاب (اللزوميات)، ص 68، 69، 70، إشراف: عمر أبو النصر بتصرف. دار الجيل، بيروت، 1969م.

التأمل وصدق الخيال... الخيال يؤدي بنا إلى أن نضع أنفسنا في أماكن الآخرين فندرك حاجاتهم ونشعر بعواطفهم، ونهتم لحزنهم وفرحهم وهذا يؤدي بنا لا محالة إلى أن نحبهم..»[13].

البعد والاستغراب والتأمل والتساؤل والألم والغموض والفوضى والتمرد والواقع المرير هي خلاصة الفيلسوف أحمد، خلاصة ذلك العبقري، ذلك الحكيم، ذلك الطفل! نعم طفل ولكنه يفكر أكثر ألف مرة من إنسان بالغ وعاقل! إنه طفل يبكي على واقعه الذي جعله في ركن من الأركان المظلمة في هذا المجتمع، وحيد وهو يعيش بين الناس، وحيد بعواطفه وبأحاسيسه وبما يملكه من رؤية وتصور وجنون فيلسوف، وحيد تمتلئ غرفته بالكتب الفلسفية، جمهورية أفلاطون، الفوضى والعبقرية، اللامخرج، الحزن العميق، الكلمات، جان بول سارتر، الفوضوية السارترية الوجودية، الإنسان المتمرد، ألبير كامو، هذا هو الإنسان، هكذا تكلم زارا، ما وراء الخير والشر، نشوء الأخلاق، فريدريك نيتشه، آلام فارتر، فاوست، الفيلسوف غوته، والكثير من الكتب الفلسفية التي تمتلئ بالمذاهب والأفكار الفلسفية، يعيش

(13) راجع كتاب (الحرية والطوفان) بحث بعنوان (ما هي الرومنسية) ص84، 86 بتصرف. جبرا إبراهيم جبرا. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

بينها، يأكل الكلمات ويستمر في التأمل والاستغراب وطرح الأسئلة، ليستمر فيلسوفاً باحثاً كما يقول عن شبح فلسفي يسمى الحقيقة!

".. إن مهنتي كفيلسوف هي أن أمقت كل وجود للكذب والدجل! أن أمقت كل كريه يجعل من شهواته طريقاً للوصول لملذاته، إن مهنتي أشرف المهن فأنا أسمى من العالم والشاعر وحتى الرئيس! إني أنفذ إلى كل شيء من أجل أن أحصل على شيء واحد يكفيني..."

كانت تلك الكلمات تتردد في كل لقاء يحضره أحمد، كان يقولها بصوت رنان يملأ الوجود تأملاً واستغراباً لذلك الفيلسوف العاشق المغرم بالمتنبي المزدري الزمان وأهله...

أذم إلى هذا الزمان أهله
فأعلمهم فدمٌ وأحزمهم وغد
وأكرمهم كلب وأبصرهم عم
وأسهدهم فهد وأشجعهم قرد!!!

(5)

الهواء جميل جداً، يرسل نفحات من النسمات، الليل رائع وقلوب العشاق تتطاير! الأشجار تتمايل يميناً وشمالاً بكل برودة، وكأنها تعزف لحناً موسيقياً، الغيوم قد تلاشت هذا اليوم، الشوارع جفت من الأمطار المستمرة منذ أيام، الازدحام كالعادة ازداد بعد توقف الأمطار، الرياض غريبة هذه الأيام فالأمطار ليست بالعادة لها! وكثرة الأمطار تجعل الرياض واحة وسط الصحراء، الشتاء هذه السنة كان متذبذباً، يتأرجح بين البرودة الشديدة والجو المعتدل، تكتسي عروس الصحراء حلة جديدة ورونقاً ساحراً، كل شيء جميل، يبعث في أهالي الرياض المتعة والنشاط وحب الحياة، كل شيء ممتع ورائع والأروع من كل ذلك أننا كنا ثلاثة أصدقاء مجتمعين في غرفة شاهين. كان اجتماعاً نافعاً ومثمراً فقد تناقشنا في هذا اليوم الربيعي عن الحب وعن العشاق، عن الحب الخالد الذي تتلاشى في رحابه كل المصالح المادية والجسدية، كنا نتكلم عن ذلك الشعور الغريب الذي يُخلق

فجأة وبلا مقدمات بين اثنين رجل وامرأة، كنا نتحدث في ذلك الزمان، وآهٍ من ذلك الزمان الذي مضى، كم أتمنى أن يتوقف الزمان لحظة عند ذلك الزمان، في غرفة شاهين، كم أتمنى وأنا أكتب صفحات الماضي الآن لو أن الزمان ظل ثابتاً عندما كنا معاً، في ذلك المكان تكلمنا وتكلمنا وتناقشنا وسمعنا قصائد عن الحب وفي الحب، وبحكم وجودنا في معقل جبران، في غرفة شاهين، كانت أول أبيات سمعناها بصوت شاهين لجبران...

والحب في الناس أشكال وأكثرها
كالعشب في الحقل لا زهرٌ ولا ثمرُ
وأكثر الحب مثل الراح أيسرهُ
يُرضي وأكثره للمدمن الخطرُ
والحب إن قادت الأجسام موكبه
إلى فراشٍ من الأغراض ينتحرُ
كأنه ملكٌ في الأسر معتقلٌ
يأبى الحياة وأعوانٌ له غدروا

***

فإن لقيت مُحباً هائماً كِلفاً
في جوعه شبعٌ في ورده الصدر.

والناس قالوا هو المجنون ماذا عسى
يبغي من الحب أو يرجو فيصطبرُ؟
أفي هوى تلك يستدمي محاجره
وليس في تلك ما يحلو ويعتبرُ!
فقل هم البهم ماتوا قبلما ولدوا
أنى دروا كنه من يحيا وما اختبروا

كان شاهين يردد تلك الأبيات من قصيدة جبران "المواكب" والزهو والخيلاء والافتخار قد ملأ تقاسيم وجه ذلك الرسام، كان مفتخراً بجزالة وقوة الألفاظ وقربها إلى القلب، إن هذا الاعتزاز قد أعداني وأحمد كذلك! فانبرى كل واحدٍ يدافع عن شاعره المفضل فقلت أنا على لسان أبي نواس..

أموت ولا تدري وأنت قتلتني
ولو كنت تدري كنت لا بد ترحمُ
أهابك أن أشكو إليك صبابتي
فلا أنا أبديها ولا أنت تعلمُ
لساني وقلبي يكتمان هواكمُ
ولكن دمعي بالهوى يتكلمُ
ولو لم يبح دمعي بمكنون حبكم
تكلم جسم بالنحول يترجمُ

وأكملت أفتخر بشاعري أبي نواس فقلت:

إذا التقى في النوم طيفانا
عاد لنا الوصل كما كانا
يا قرة العينين ما بالنا
نشقى ويلتذ خيالانا؟
لو شِئتِ إن أحسنتِ لي نائماً
أتممت إحسانك يقظانا
يا عاشقين اصطلحا في الكرى
وأصبحا غضبى وغضبانا
كذلك الأحلام غرارة
وربما تصدق أحيانا

وأضفت وصوتي ازداد ارتفاعاً وكأني أخاطب آلاف البشر!

والله ما طلعت شمس ولا غربت
إلا وذكرك مقرون بأنفاسي
ولا شربت لذيذ الماء من ظمأ
إلا وجدت خيالاً فيكِ في الكاسِ
ولا جلست إلى قوم أحدثهم
إلا وكنت حديثي بين جلاسي

ما أصغر الناس في عيني وأسمجهم
إذا نظرت فلم أبصركِ في الناسِ

وقف أحمد فجأة ووجهه أصبح محمراً، وعلامات التعجب تملأ تقاسيم وجهه وقال:

- أتذكرون الحب! أتذكرون الشعر! ولا تذكرون المتنبي! اسمعا يا أنتما!

لعينيكِ ما يلقى الفؤاد وما لقي
وللحب مالم يبق مني وما بقي
وما كنت مِمن يدخل العشق قلبه
ولكن من يبصر جفونكِ يعشقِ
وما كل من يهوى يعِف إذا خلا
عفافي ويرضى الحب والخيل تلتقي

-الصمت، يجب الصمت! قال كذلك شاهين وبدأ ينشد أبياتاً لشاعره جبران:

يا زمان الحب هل يغني الأمل
بخلود النفس عن ذكر العهود؟
هل ترى يمحو الكرى رسم القبل
عن شفاهٍ ملها ورد الخدود؟
أو يدانينا وينسينا الملل
سكرة الوصل وأشواق الصدود؟

هل يصم الموت آذاناً وعت
إنه الظلم وأنغام السكون؟
هل يغشي القبر أجفاناً رأت
خافيات القبر والسر المصون؟
.. تلك أيام تولت كالزهور
بهبوط الثلج من صدر الشتاء
فالذي جادت به أيدي الدهور
سلبته خلسة كف الشقاء...

***

لو عرفنا ما تركنا ليلة
تنقضي بين نعاس ورقاد
لو عرفنا ما تركنا لحظة
تنثني بين خلوٌ وسهاد
لو عرفنا ما تركنا برهة
من زمان الحب تمضي بالبعاد
قد عرفنا الآن لكن بعدما
هتف الوجدان: "قوموا واذهبوا!"
قد سمعنا وذكرنا عندما
صرخ القبر ونادى " اقتربوا!"

- آهٍ يا حرقة الشيوخ، آهٍ من الحب ومما يفعله بالبشر! إنها قمة الحب وحرقة البعاد، إنها فلسفة جبران، فلسفة الحب الجبرانية! آهٍ يا وله الشيوخ، آهٍ يا قمة عذاب الاشتياق، آهٍ يا كلمة "لو".

قال كذلك شاهين واعتدل في جلسته، فانبرى أحمد يتكلم، من أجل أن يسكتنا ويسكت شعراءنا! بل ويسكت كل الدنيا! قال أحمد وكأن المتنبي يرتشف الشاي معنا!

أرق على أرقٍ وغيري يأرق
وجوى يزيد وعبرة تترقرقُ
جهد الصبابة أن تكون كما أرى
عينٌ مسهدة وقلب يخفق
ما لاح برق أو ترنم طائر
إلا انثنيت ولي فؤاد شيق
جربت من نار الهوى ما تنطفي
نار الغضى وتكل عما تحرق
وعذلت أهل العشق حتى ذقته
فعجبت كيف يموت من لا يعشق!
وعذرتهم وعرفت ذنبي أنني
عيرتهم فلقيت فيه ما لقوا

- الصمت، السكون، الوقوف، أمام عملاق، أمام

شاعر العربية الأول والأوحد! أمام المتنبي يجب أن يصمت كل شعراء الدنيا على اختلاف لغاتهم ومللهم ومعتقداتهم أمام عظمة وجزالة وعذوبة شعر المتنبي، كل شيء يزول ويذهب ويتلاشى أمام تلك الأبيات، أمام تلك الكلمات التي يجمعها ذلك الفيلسوف الشاعر، شيء غريب جداً وكأنه يخلق كلمات لا توجد أصلاً! لم توجد في المعاجم إلا بسببه! يرتبها ويصوغها على مزاجه، إنه الشاعر الأول، فلن نستطيع أن ننجب كالمتنبي شعراً، فالكلمات في أبياته تتراقص وتتمازج لتشكل لحناً موسيقياً يجعلك تسافر إلى مكان بعيد جداً فقط المتنبي وقصائده العملاقة وذلك المكان البعيد عن كل الوجود! نستطيع أن نقارن بين الأشياء، نستطيع أن نقول: هذه قصيدة جيدة وتلك متوسطة، نستطيع أن نقول كل ما نريده في مجال الشعر والشعراء ونحكم بناء على أذواقنا وما نحب ومالا نحب، فنحن نملك حرية الرأي في اختياراتنا ولكن يجب أن نتوقف ونتناسى الحرية والديمقراطية ونترك أذواقنا وما نحب ومالا نحب، نعم يجب أن نتوقف عن آرائنا وذلك عندما نسأل سؤالاً ليس له إلا إجابة واحدة: من هو شاعر العربية الأول بل من هو شاعر الدنيا الأول؟ سؤال إذا طرح أمامنا يجب أن نتوقف ولا نتفلسف ولا نكثر الهرج والمرج! فالجواب تحكيه مخطوطات المتاحف وكتب الغرب قبل كتبنا! تحكيه الدنيا عربيها وأعجميها! إن جواب السؤال

ببساطة: إن من يتربع على عرش الشعر العربي وغيره بلا جدال وبلا نقاش هو أبو الطيب المتنبي أبى من أبى ورضي من رضي!

كان يتكلم أحمد بكل حماس وكنت وشاهين نسمع ولا نردا نتلقى الكلمات ولا نناقش، كان يتكلم ذلك العاشق المتيم بالمتنبي، ونحن صامتون ساكتون متأملون لذلك المجد الشعري الذي يصعب تكراره!

اعتدل شاهين في جلسته وارتشف قليلاً من الشاي وقال:

- إن الشعر هو أجمل الفنون، والشعر كما نعرف هو تعبير عن عواطف عميقة لو عُبرت نثراً لضحك الناس من قائلها! وجمال الشعر بلا جدال عندما يسمع الواحد منا المتنبي وتلك القصائد الخالدة...

رد سامي فقال:

- لقد صدقت يا شاهين فشعر المتنبي له فلسفة خاصة، وله طريقة عجيبة تجعلك تتأمل كل حرف من أبياته! وبيت واحد للمتنبي يُعرف من ألف بيت لغيره!

انبرى أحمد والفخر بشاعره يملأه فقال:

- صدقتما إن في شعر المتنبي سحراً خلاباً، يجعلك كالمسافر في الفضاء وكأنك عاشق تنتظر اللقاء!

قاطعت استرسال أحمد وبصوت مرتفع قلت:

- عشق ولقاء! أرجوك ابتعد عن تلك المصطلحات!

نظر أحمد إلى صديقيه وعيناه تمتلئان تعجباً واستفهاماً وقال:

- ابتعد! لماذا ابتعد!؟

تدخل شاهين وكأنه قارب نجاة فقال:

- لقد صدق سامي ابتعد وابتعد عن كل ماله صلة بالحب! بل يجب أن تبتعد حتى عن التفكير في الحب! لأننا يا صديقيّ لم نصل حتى هذا العمر إلى قبول ذواتنا! والحب هو قبول من طرف آخر فكيف نطلب أو نتمنى هذا القبول ونحن إلى الآن لم نقبل أنفسنا! صديقيّ لقد أخطأنا بتحدثنا عن الحب، فنحن الثلاثة لم يخلق الحب لنا! يجب أن نضع قلوبنا داخل غرفنا قبل أن نخرج، الحب خلق لكل البشر أما نحن فلم يخلق الحب لنا!

رد أحمد وعلامات الاقتناع تظهر على تقاسيم وجهه فقال:

- لقد صدقت يا شاهين، الحب لم يخلق لنا البتة!!

قام شاهين من مكانه والاصفرار بدا واضحاً على صدغيه وقال وعيناه إلى السماء:

- هكذا هي الدنيا، تخلق أحداثك بلا علمك! حياتك تشكلت ويجب أن تعيشها كما تشكلت لا كما أنت تريدها! وكأنه مفروض عليك أن تذهب في طريق معين ولا تتكلم ولا

تناقش فالكلام لا ينفع ولا يغير فقد فرضت عليك وانتهى! عندما أرى غيري من العاشقين أشفق على نفسي وعلى مشاعري، وأشفق على تلك العواطف التي أمتلكها والتي تحتاج إلى قلب امرأة، نعم أشفق عليها فالحب روح الحياة وروح الوجود.. دائماً يمر أمامي طيف الرسام الإيطالي دافنشي، ذلك الرسام الذي عاش ومات عازباً! وأقول في ذاتي: هل أستطيع أن أعيش بلا حبيبة كما عاش هل أستطيع؟ وفجأة وأنا أتساءل إذ بصوت ينفجر من أعماق العقل قائلاً بكل جبروت: يجب أن تستطيع، يجب أن تكون كذلك، يجب أن تعيش كما لم تكن تعيش! يجب أن تنشئ لك عالماً آخر في خيالك! يجب أن تمارس دور الكذب على النفس والكذب على الواقع!

في فكري أنشأت عالماً آخر..
ووجوداً له طرق مغايرة في الحياة..
وربطت بعضها ببعض سلاسل من حديد..
ومنحتها شكلاً ولكني لم أسمها أي اسم!![14]

---

(14) أبيات للشاعر الروسي ميخائيل ليرمنتوف (1814-1841م) قتل هذا الشاعر غدراً وخيانة وهو لم يكمل السابعة والعشرين من عمره، وقد ترك هذا الشاعر تراثاً أدبياً عملاقاً ويكفيه روايته العملاقة (بطل من هذا الزمان) التي تعد من أجمل ما كتب على مر التاريخ الأدبي.

- لقد صدقت يا شاهين، والله لقد صدقت، إذا كنت الرسام والفنان ويأتي إليك طيف أولئك الفنانين الذين عاشوا وماتوا ولم يعرفوا الحب والارتباط فأنا قريب منك فدائماً أضع الروائي الألماني: فرانز كافكا[15] أمام عيني فهو أشهر عازب مر في تاريخ الأدب العالمي، حيث تتجلى الوحدة والانطواء في أغلب كتاباته، نعم إني أراه أمامي وأحاول أن أغرس في روحي وفي عقلي أن الحب أجمل ما في الوجود ولكنه لم يخلق لي قط! الحب يا صديقيّ يتطلب قليلاً من المستقبل وللأسف أخاف أنا من ذلك المستقبل في هذا المجتمع.

قال كذلك سامي وعاد يلملم دمعة توشك أن تسقط من عينيه..

---

(15) فرانز كافكا (1883-1923م) من أعظم من كتب القصة والرواية على مر العصور، تجد في كتاباته الكثير من الغموض الذي يبحر في عقل القارئ بعيداً، وهذا الغموض أدى إلى وجود العديد من الدراسات التي تتناول مؤلفاته، يقول أحد الكتاب العالميين متحدثاً عن كافكا: (إن كافكا هو الدليل المرشد الذي لا غنى عنه عبر القرن العشرين، فنحن نستطيع أن نفهم القرن من دون فوكنر بدون بروست بدون جويس لكن لا نستطيع أن نفهمه بدون كافكا) للمزيد راجع كتاب (\الآثار \الكاملة مع تفسير\اتها، فرانز.كافكا)، ترجمة: إبراهيم وطفي، الطبعة الثانية، 2004 التوزيع: دار الحصاد للنشر، سورية، دمشق.

قام أحمد وأقفل جهاز التسجيل وبدأ ينظر إلى صديقيه وتكلم فقال:

- نحن والحب معادلة صعبة! أفكر أحياناً بأن أعتزل الدنيا وأفعل كما فعل فيلسوف الشعراء أبو العلاء المعري بأن أعيش في مغارة وآكل القليل من الطعام والرديء منه! نعم لقد أيقنت أن معادلة يجتمع فيها الحب وسامي وأحمد وشاهين معادلة لا تنفع معها القوانين أبداً! إنها معادلة قد حُسمت منذ زمن! لقد كنا في السابق نتمنى أن نرتبط بثلاث أخوات وللأسف لم نكن نفهم الحياة جيداً، لم نكن نفهم هذا المجتمع! نعم هذا المجتمع الذي ينقسم فيه الناس إلى أقسام: قَبَلي وغير قَبَلي أما نحن فأين نحن من هذا التقسيم؟! كان الخيال يعيش فينا أكبر من الواقع الذي نعيش فيه، كان واقعنا معروفاً لدينا ولكن للأسف لم نجعل للواقع أية أهمية أو وجود! هكذا نحن يا صديقيّ اختارنا القدر لأمر لم يكن لنا أي صلة به، بل أجبرنا على هذا الواقع المرير، هذا الواقع القاتل، هذا الواقع الذي يجعلنا نتمنى الموت، بل أحياناً أرى أمامي السكين أراها وكأنها ترسل رسالة تقول: "اقتل نفسك فالحياة ليست لك!" ترسل لي تلك الكلمات على الرغم من أني أملك الأحلام والآمال، لكن ذلك الشعور يسيطر على فكري والنهاية حسرة وألم وتأمل وصراخ وكلمات، لماذا! نعم لماذا!! نعم لماذا نحن منفيون؟!!

". . أنا الذي تبحث عنه . .
لقد طردت الحب عني إذ طردتني . ."[16]

بدأ أحمد ينظر في الوجود! ووجوده يعني جسده! ويمعن النظر فيه . .

- آه ياليت هذا الجسد الصلد يذوب . . .
وينحل قطرات من ندى،
ياليت . . . !
ضد قتل الذات، رباه، رباه.
ما أشد ما تبدو لي عادات الدنيا هذه،
مضنية، عنيفة، فاهية، لا نفع منها . . ![17]

أمسك شاهين يد أحمد، أمسكها بقوة تحمل الود لصديقه وقال:

- نعم إنه واقع، إنه واقعنا ومهما تكلمنا وقلنا فالواقع لن يتغير! فنحن نفر من الشيء إلى الشيء نفسه! نفر من قيد إلى قيد! من مجهول إلى مجهول! لذلك يجب أن نكذب على أنفسنا ونحاول أن نتناسى واقعنا وحقيقتنا! يجب أن نفسر حياتنا تفسيراً آخر، تفسيراً يخمد الصراع الثائر المتأجج الذي يعيش في عقولنا.

---

(16) أبيات للشاعر فرانسس طومسن.
(17) أبيات لشكسبير في هاملت، راجع كتاب (الحرية والطوفان) جبرا إبراهيم جبرا ص 162 بتصرف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

بعد أن أنهى شاهين كلامه سحب يده من يد صديقه وعاد يتأمل في الطاولة، فترة صمت استمرت ثواني معدودة وأردف شاهين يقول:

- أحياناً أجلس أفكر في فكرة هي بسيطة ومعقدة في الوقت نفسه! وهي فكرة افتقار حياتنا إلى أي معنى! فنحن مهما عملنا ومهما أصبحنا سنظل في أعين كل المجتمع أغراباً! نعم أغراباً ونعيش في ركن مظلم من أركان المجتمع، ألا تشاطرونني الرأي أن حياتنا ليست سوى آلام مجتمعة تقذف بنا في صحارى مجهولة تتركنا بلا أي مساعدة! ألا تشاطرونني الرأي أن حياتنا نحن الثلاثة ليست إلا زوبعة في فراغ! ألا تشاطرونني الرأي؟!

وبلا صوت كانت هي النظرات التي تؤدي دور الألسن وكأنها تقول: نعم نشاطرك الرأي بلا أي معارضة أو ممانعة، فنحن الثلاثة كسفينة تجوب البحار بلا أي موجه أو معين! نحن الثلاثة بكل بساطة لا شيء في هذا المجتمع!

واستمر الأصدقاء يتكلمون والنقاش أخذ مجرى آخر وأصبح شكوى ومناجاة، كل صديق يشكو بنظراته لصديقه، كل صديق تنزل دمعته على صديقه! كل صديق يمسح دمعة صديقه بقلبه قبل يديه، لقد تلاشى كل شيء وانبثق الواقع، وأصبح الواقع هو الواقع وتلاشى الكذب على الذات وابتعد

الخيال، لقد كان الأصدقاء في وقت حرج جداً، كان الشعور بالانهزام قوياً جداً وكان هذا الانهزام يسيطر على الوجود! وساعده ذلك الليل الذي يجعل الحزين أكثر حزناً والمهزوم أكثر انهزاماً!!

" .. لم هكذا. إذن كل شيء يبدو موجعاً وصعباً!

أأنتظر شيئاً ما! أأحن إلى شيء ما؟!

قد أصبحت لا أنتظر من الحياة شيئاً،

فأنا أبحث عن السكينة والحرية،

.. وأود أن أنسى وأن أغفو...!"(18)

.. وبينما الأصدقاء والانهزام وليرمنتوف موجودون في مكان واحد! إذ بصوت يعلن الصمت لكل الأصوات، إذ بصوت الحق، صوت النجاة، صوت المؤذن..

" الله أكبر.. الله أكبر..

حي على الصلاة..

حلى على الفلاح..

الله أكبر.. الله اكبر..."

.. إنه الصوت الذي يقرع القلوب قبل الأجساد، ليشفي غليان الانهزام، الانهزام أمام الذات وأمام النفس.."الله

(18) أبيات للشاعر الروسي ميخائيل ليرمنتوف.

أكبر".. صوت الحق، كل الباطل يزول ويتلاشى "الله أكبر" تلاشى الانهزام وهواء الروحانية يسيطر على الأصدقاء وكأن شيئاً لم يكن! وافترق الأصدقاء الثلاثة على صوت المؤذن كل لحياته التي رسمها وآمن بها...!

(6)

في تلك الليلة التي لن أنساها لم يغمض لي جفن! وأنا الآن في غرفتي مستأنس، الصيف في مدينة الرياض قد بدأ منذ فترة، الحر ثقيل لا يطاق، أشعر أن مسامات جلدي تحترق! الليل أشد حراً واكتئاباً من النهار، القمر بدر تحيط به هالة من الضوء الساطع، ذلك الضوء القمري الذي يغازل غرفتي مكوناً نوراً ملائكياً، الهواء يحمل ذرات من الأتربة التي تتجمع على النافذة، أشعر أن غرفتي حزينة، متعبة! كل شيء صامت الآن ومتماسك وجبار، الهواء بدأ يحمل روائح غريبة، بسبب كونها روائح حسنة! كل شيء صامت، أنا والغرفة والناس، يحمل ذلك الصمت المطبق في جنباته العديد من الأسئلة التي تنتشلني إلى البعيد إلى اللانهاية! كنت أتقلب على فراشي المهترئ، أرمي بجسدي الذي يشبه الريشة مرة يميناً ومرة شمالاً، إنها الحادية عشرة ليلاً، كنت مستمتعاً بما أقرأ، بل كنت مسافراً إلى مكان بعيد جداً عن البشر وعن العالم! نعم لقد كنت أنا والإخوة كاراموزف! كنا نتكلم

ونتناقش وكان أليوشا[19] يعاتبني أحياناً والملك المتربع على عرش تلك المناقشة فيدور دوستويفسكي! كنت أبحر داخل "الإخوة كاراموزف" وأعيش بكل عواطفي ومشاعري بعيداً عن كل الوجود، كنت مستمتعاً بعظمة ما كتبته أنامل فيدور دوستويفسكي، نعم كنا ثلاثة! أنا والإخوة كاراموزف ودوستويفسكي، كنا ثلاثة مجتمعين على ضوء القمر وما أجمله من اجتماع! ليل وكتاب وكوب من الشاي وأم كلثوم تخترق كل الصمت وبهمس تغني "سهران لوحدي" لم أكن يا أم كلثوم وحدي فقد كنت راكباً سفينة دوستويفسكي! أحاول أن أبتعد عن الكتاب لا أستطيع فكل ورقة تشدني إلى أختها، كل ورقة تتغنى بالتي تليها! شيء غريب وعجيب يأخذك بتلك الأعجوبة إلى عالم آخر، أحياناً وأنا أقرأ له أشعر أنه كتب بالعربية ولم يكتب بالروسية![20] بدأ صوت أم

---

(19) أليوشا هو أحد أبطال أعظم رواية في التاريخ (الأخوة كارامورف) وأليوشا هذا راهب كما صوره دوستويفسكي حيث قال عنه: (لم يكن أبداً متعصباً متزمتاً ولا حتى على ما أعتقد زاهداً متصوفاً، وباعتقادي أنه كان خيراً، إنسانياً، ومحباً لبني البشر، وحسب، وكل ما هنالك أنه بدأ متقدماً على زمنه) راجع كتاب (دوستويفسكي حياته - أعماله) ص531 بتصرف، تأليف: هنري ترويا، ترجمة: علي باشا. دار علاء الدين - الطبعة الأولى- 2006 م.

(20) قد تكون هذه المبالغة صحيحة! لأن من يقرأ مؤلفات دوستويفسكي بترجمة الدكتور سامي الدروبي يظن أن أصل الرواية قد كتب بالعربية ولم يترجم، وهذا دلالة على إبداع المترجم.

كلثوم يزداد وسهران لوحدي تتعاظم والصمت يتلاشى من الوجود.. الساعة الآن الحادية عشرة والنصف ليلاً، الباب يطرق بشدة، ترى من سيأتي في هذا الوقت المتأخر من الليل! ؟ الإجابة لا تحتاج إلى الكثير من العناء، فليس لي في هذا الوطن غير أحمد وشاهين! فتحت الباب وإذ بشاهين يدخل مسرعاً، كان وجهه يعبر عن الإجهاد، قلت له مستفهماً ومتعجباً في الوقت نفسه:

- ماذا بك، ماذا حصل؟!

أرسل لي تلك النظرة الهائمة وتوجه مباشرة إلى الطاولة وأخذ يشرب من الماء البارد ليزيل اشتداد الحر الذي لا يطاق، جلس على الكرسي الخشبي، كانت يداه تحملان لوحة فنية! وقفت أمامه ولم يتكلم وكأنه يحاول أن يستجمع قواه لحدث هام! قلت له ملحاً:

- ماذا بك؟!

ابتسم شاهين! نعم ابتسم صديقي ووضع اللوحة بجانبه بعد أن كانت في حضنه واعتدل في جلسته فانتصب الظهر وقال:

- قبل كل شيء أعتذر لأني أتيت إليك في هذا الوقت المتأخر ولكن ليس لي غيرك! والحقيقة أيضاً أنه منذ عدة ساعات خطر ببالي شيء غريب جداً! كنت مستلقياً على الأريكة متنقلاً من قناة إلى أخرى ومن ثقافة إلى ثقافة

أخرى، كان الاكتئاب يحتل واقعي وبينما أنا كذلك إذ بي أقف أمام محطة، المشهد الذي استوقفني كان غريباً! بدأ يسحرني ويستهويني ويحرك في روحي جنون الفنان، كنت أشاهد ذلك الرجل والسلاسل محكمة على أصغر تحركاته ويقوده الجنود إلى المقصلة[21]، نعم رجل محكوم عليه بالإعدام! كنت أركز النظر عليه وأشاهد خطواته التي أظن أنها كالجبال ثقيلة، رجل محكوم عليه بالإعدام هل تفهم معنى ذلك! (قال كذلك شاهين والشحوب وقطرات العرق تزداد على جبينه) أظن أن ساقيه لا تستطيعان أن تحملاه، بل أن تتلقيا أوامر من دماغه! أشعر أنهما كالحجر متصلبتان، ثقيلتان، والأحرى أن الرجل في تلك اللحظات لا يدري ولا يعلم ولا يفهم شيئاً! إني عاجز لا أستطيع أن أجد الكلمات التي تصف ذلك المشهد! أشعر أنه بل إني متأكد أن شريط حياته سيمر كاملاً وخلال ثوان سيتذكر كل شيء وأي شيء بأقل فترة زمنية! وكلما اقترب من المقصلة من الإعدام تذكر أشياء بسيطة من حياته، أشياء مرت كما يقال مرور الكرام ولكنها مستقرة وكائنة ومنتصبة في أعماق ذاته! أتدري يا سامي إني أكره تلك المقصلة، أكرهها! الغريب أنه وأثناء تنفيذ الإعدام تجد آلافاً من البشر يصرخون وبعضهم يبكون

---

(21) المقصلة: آلة يتم تنفيذ الإعدام بها في أوروبا (سابقاً).

والغرابة تكمن أن بينهم أشخاصاً يبتسمون! هل تظن أن من يبتسم في ذلك المشهد هو المتسبب في إصدار قرار الإعدام؟ عندما رأيت وجه ذلك الرجل كان الاصفرار شديداً وكلما اقترب من المقصلة تحول ذلك الاصفرار إلى لون غريب أحاول الآن أن أجد مسمى لذلك اللون فلا أستطيع! إنه منظر غريب وأغرب من كل ما شاهدته في حياتي، والأدهى من كل شيء عندما يوضع جسد الرجل على لوح الخشب الذي تسقط عليه سكين المقصلة، هل تظن أن المحكوم عليه في تلك اللحظة يكون ميتاً أم أنه يحيا عندئذ حياة أشد وأنشط بل حياة أقوى وأعمق ألف مرة من كل ما عاشه في الماضي؟ إنني أتخيل ذلك الصراع، لا أظن أن هنالك صراعاً! بل هنالك صراع!! ولكن بين من ومن! أهو صراع من أجل البقاء أم ماذا؟! أظن أنه لا يوجد صراع! وإنما انتظار، نعم انتظار وترقب ووداع! ينتظر السكين ونزولها الذي هو إعلان شكلي للنهاية! إني أتخيله ينتظر انزلاق السكين وصوت الانزلاق! والانزلاق معناه الموت والفناء! أتُراه يفكر أن تتعطل السكين لحظة انزلاقها وتتوقف حتى يعيش حياة أخرى من الانتظار؟! أتخيل أن تلك اللحظات أطول لحظات العمر وأكثرها إثارة وأزحمها عواطف! أعرف أني سأموت بعد لحظات وأنتظر ذلك! يا لها من لحظات! وعندما يسمع ذلك الرجل صوت الانزلاق يعلم يقيناً أنه قد

مات! أظن أنه يشعر بالحياة على الرغم من أن رأسه قد تدحرج! ويتبادر إلى ذهني أنه يشعر بالوجود خلال الأجزاء القليلة من الثواني بعد سقوط السكين! فالحياة في الروح وليست في الجسد! يا له من مشهد رهيب وعجيب أثار فيّ الجنون! جنون الفنان! جنون الرسام! فرسمت هذه اللوحة! كان ذلك البرنامج يتحدث عن تاريخ فرنسا وعن الحرب التي شنت ضد عقوبة الإعدام وقد تطرق البرنامج إلى كتاب البير كامو (المقصلة) الذي يطالب فيه ذلك الفيلسوف الفرنسي بإلغاء تلك العقوبة...

"... المرة الوحيدة التي رفضت فيها تخفيف العقوبة وأصدرت حكمي بإعدام المتهم ظننت أنني سأشهد رغم موقفي عملية التنفيذ ببرودة أعصاب وعلى كل لم يكن المتهم محبباً إلى النفس: فقد عذب ابنته الصغيرة وألقى بها في النهاية في بئر. حسناً! بعد إعدامه، وطوال أسابيع بل أشهر رزحت تحت كابوس هذه الذكرى.. لقد اشتركت في الحرب كسائر الناس ورأيت شباباً بريئاً يموت لكني أستطيع القول إنني لم أشعر قط أمام ذلك المشهد الفظيع بتبكيت ضمير مثلما شعرت به أمام هذا النوع من الاغتيال الإرادي الذي يسمى عقوبة الإعدام.... إن عقوبة الموت تحاول منذ قرون مع ما يرافقها غالباً من تفننات وحشية أن تجابه الجريمة، لكن الجريمة تعاند مع

ذلك، لماذا؟ لأن الغرائز التي تتصارع في الإنسان ليست كما يريدها القانون قوى ثابتة في حالة توازن، إنها قوى متبدلة تموت طوراً وتنتصر طوراً آخر وتتغذى الحياة الفكرية من تصارعها المتتابع مثلما يتألف التيار من تذبذبات كهربائية متقاربة بما فيه الكفاية. لنتصور سلسلة التذبذبات من حالة الشهوة إلى حالة عدم الشهية من التصميم إلى العدول، هذه التذبذبات التي نمر بها جميعاً خلال يوم واحد ولنضاعف إلى ما لانهاية هذه التحولات، فتكون لنا فكرة عن تكوين الحياة النفسية وتكاثرها. إن تفاوت هذه القوى يتم بشكل عام بسرعة أكبر من أن يسمح لقوة واحدة بالسيطرة على الكائن بأسره. لكن قد يحدث أن تجمع إحدى قوى النفس إلى حد تحتل معه مجال الشعور كله، ولا تستطيع أي غريزة، وإن كانت غريزة الحياة، أن تكبح عندئذ طغيان تلك القوة التي لا تقاوم. ولقد كان ينبغي، كي تكون لعقوبة الموت قدرة تخويفية فعلاً، أن تكون الطبيعة البشرية مختلفة عما هي عليه، وأن تكون مستقرة صافية استقرار القانون وصفاءه، لكنها ستكون عندئذ طبيعة ميتة. . . إنها ليست كذلك. ولهذا فإن القاتل يشعر بنفسه بريئاً حين القتل، مهما بدا هذا غريباً بالنسبة لمن يلاحظ التعقيد البشري أو لم يشعر به في نفسه. إن كل مجرم يحكم على نفسه بالبراءة قبل صدور الحكم. فهو إن لم يقدّر أنه كان على صواب في

عمله، يرى أن الظروف تعذره. إنه لا يفكر ولا يتوقع. وإذا فكر فليتوقع إنه سيعذر كلياً أو جزئياً. فكيف يخشى ما يعتبره بعيد الاحتمال كل البعد؟ إنه سيخشى الموت بعد إصدار الحكم لا قبل الجريمة. ينبغي إذن ألا يترك القانون، لكي يكون ذا قوة رادعة، أي أمل للقاتل، وأن يكون صارماً مسبقاً، وألا يقبل بشكل خاص بأي ظروف مخففة... لقد أمكن لأحدهم أن يكتب: إن العبرة التي تعطيها المقصلة دوماً هي أن حياة الإنسان تكف عن أن تكون مقدسة، حين نرى أن من المفيد قتله..."[22]

خلاصة القول إن تلك المشاهد قد أثارت فيّ الجنون الفني فرسمت هذه اللوحة وقد أسميتها "الرحمة"

- الرحمة.. الرحمة ماذا وكيف!! قلت كذلك والاستغراب قد ملأ عقلي الممتلئ بفلسفة دوستويفسكي!

رد شاهين والابتسامة لا تفارق محياه:

- نعم هي الرحمة ولكني لا أقصد الرحمة كما يظن البعض بعدم تنفيذ الحكم بمن ارتكب جرماً يستحق ذلك ولكني أقصد الرحمة في طريقة التنفيذ.

- وهل تظن أن الطريقة سواء بالمقصلة أو بغيرها ستغير من لون وجه المحكوم عليه أم أن تلك الانفعالات الظاهرية

---

(22) راجع كتاب (المقصلة) ألبير كامو، ترجمة: جورج طرابيشي ص 25، 28، 77 بتصرف. منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - لبنان.

بسبب العقوبة وليس بسبب طريقة التنفيذ؟! قلت كذلك وعاودت التأمل بتلك اللوحة..

رد شاهين فقال:

- إني أجزم أن طريقة التنفيذ تسبب تلك الانفعالات، يا سامي إن تلك المقصلة تقتل كل شيء في داخل المحكوم عليه، ويكفي الحرب النفسية التي تخلق بداخله أثناء الانتظار.

قلت وكأني أخاطب تلك اللوحة!

- كل من يحكم عليه بالإعدام يعيش حالة من الانتظار سواء أكانت أداة الإعدام مقصلة أم مسدساً أو حتى إبرة، والحقيقة يا شاهين أن من قتل أو عمل عملاً شنيعاً فهو يستحق أكثر مما جاءه!!

- ولكن يظل لطريقة التنفيذ الدور الكبير في هذه الانفعالات.. كذلك قال شاهين.

نظرت إلى شاهين وبصوت قوي قلت:

- هل أنت ضد عقوبة الإعدام؟!

وكانت الإجابة التي انتظرتها من شاهين قد خرجت من بين شفتي أحمد الذي كان قد دخل فجأة بينما أنا أطرح السؤال!

- نعم أنا ضدها لأننا بشر! والإنسانية إذا قتلت أحداً حتى وإن كان مجرماً فهي في المقابل تقتل نفسها!

قال كذلك أحمد وتلاشى كما تلاشى شاهين! وظللت وحدي وأمامي تلك اللوحة!

***

ما هو الفن؟ إنه الحقيقة متجردة بريشة رسام، هو كذلك الفن، يعجبني شاهين بكل ما رسمه خلال حياته القصيرة! يعجبني ذلك الإحساس الرهيب ذلك الشعور الثائر، ذلك التصوير الفني الدقيق الشامل الذي يغوص في أعماق الذات الإنسانية ليرسم الإنسان على شكل لوحة تعبر عن المشاعر التي تعيش في داخل بني البشر جميعاً! كيف استطاع شاهين أن يجعل من تأمله لذلك المحكوم عليه لوحة فنية رائعة بل أكثر من رائعة! بكل بساطة للإجابة عن هذا التساؤل أقول: إن شاهين يعيش حياة الآخر! وهذا المصطلح "يعيش حياة الآخر" يجب أن يوجد في كل إنسان وليس في داخل الفنان فقط، إن شاهين بكل بساطة قد رسم أجمل ما يرسم، إنه يرسم المشاعر التي تعيش في داخل الإنسان بلوحة رائعة... إن الرسام العبقري الذي يبحث عن النجاح هو من يرسم المشاعر والعواطف والأحاسيس الإنسانية قبل أن يرسم الطبيعة والكينونة! لأن مشاعر الإنسان هي أساس كل شيء وهي المحرك الأهم لكل تفاصيل الحياة وجزيئاتها الدقيقة.

وأنا أتأمل الآن لوحة شاهين: رجل يقتاد إلى منصة المقصلة مكبلاً بالسلاسل والقيود اثنان من الجنود عن يمينه وشماله، خافض الرأس، ثقيل المشية، تراه من الجانب الأيسر.. وأنا أتأمل تلك الخطوط والألوان المتداخلة وذلك التصوير العميق لأدق ما يختلج في الذات أحن! نعم أحن وأبكي على ما مضى وفات! ذكريات مضت ولن تعود، أكتب الآن والذكرى ماثلة أمامي بكل تفاصيلها: وجه شاهين، نظرة شاهين، ابتسامة شاهين، لوحة شاهين، كل شاهين! وكأن شاهين صديقي أمامي! وكأن الذكرى زالت! نعم زالت وعاد الزمان إلى الماضي وأصبح الماضي حاضراً! وشاهين يتربع على هذا الحاضر!

اعذروني فمنذ عرفت الدنيا وأنا أعيش مع ثلاثة: أحمد وشاهين وذاتي! أعيش مع صديقيّ، لم أعرف أحداً غيرهما ولم أحاول الاختلاط بالبشر قط، ولم أكن اجتماعياً، كتبت الكثير من الصفحات والكثير من القصص، نعم كتبت وكتبت الكثير ولكنه في أدراج غرفتي، الغبار يحتله! لم أفكر يوماً ما أن أكتب من أجل أن أرضي البشر أو أن أكتب لكي يطلع عليه القراء! كنت أكتب فقط من أجل أحمد وشاهين، كنت أكتب حتى يقرآ ما كتبت. لم أفكر يوماً أن أكتب من أجل نشر ما كتبت وذلك على الرغم من إلحاح أحمد وشاهين علي، أمسكت القلم يوماً ما، كنت أشاهد القلم وأتأمل سحر

الصفحات، وذلك الخطاب السري الغامض المبهم الذي يتم بين قلمي وبين صفحة بيضاء تريدني أن أدنسها وأن ألطخ شرفها! لم أستطع خلال سنوات مرت أن أكتب حاولت وحاولت أن أكتب الماضي، أن أكتب عن أحمد وشاهين وعن سامي كذلك ولكني لم أستطع، اليأس يهزمني دائماً، اليأس مما مضى، من ذكرى تتمثل أمامي، أحمد وشاهين وذكرى تحتل كل وجودي، تقتحمني في خلوتي، كنت في الماضي أعتقد أن الحزن هو الذي يقود إلى الكتابة، كنت أعتقد أن الإنسان الحزين أكثر تعبيراً من الإنسان الفرح! كنت أظن في أيام مضت أنه يجب أن أعيش الحزن حتى أستطيع الكتابة! كان هذا الاعتقاد يعيش في داخلي، الحزن يقود إلى الكتابة، ولكن وللأسف فأنا حزين منذ سنوات مضت، حزين منذ غابت شمس صديقيّ ولم أكتب خلال السنوات الماضية سوى فلسفتي!!

.. مرت سنوات منذ غابت تلك الشمس، مرت سنوات والذكرى ماثلة بكل جبروتها وعظمتها في كل حياتي، منذ غابت تلك الشمس وأنا أريد أن أكتب، أن أعبر، أن أخرج ما بداخلي من ذكريات من عواطف من أحداث، عندما عزمت على الكتابة لم أعرف كيف أكتب ومن أين أبدأ وماذا أكتب وماذا أدع!! لم أكن أعرف أي شيء، كل شيء قد اختلط أمامي بشيء آخر! ولكني قد عزمت أن أكتب عواطفي

وعواطف صديقيّ، يجب أن أكتب المشاعر وأجعل الأحداث في ركن بسيط من أركان صفحاتي! في أحد الأيام انسلخت من اليأس وعزمت أن أكتب باسم سامي وأحمد وشاهين، أكتب قصة أو خواطر أو خربشات! لا تهمني المسميات! ولا يهمني النقاد ولا المتفلسفون حينما يقرؤون ما كتبت! لا يهمني أي إنسان أياً يكن على وجه هذه الأرض! ما يهمني هو أن أكتب حتى أرتاح وتستمر القافلة بالمسير!

يا من تقرأ أتعلم أن ما أكتبه الآن هو أول تجربة لي أمام الناس! لم أكتب قط إلا لأحمد وشاهين! ولكن هذه التجربة يكتبها قلبي قبل قلمي، تشيعها دموعي قبل أوراقي، كتبت فقط من أجل نفسي ومن أجل أن أظل وفياً لذكرى صديقيّ، كتبت الذكريات حتى أعيش! كتبت السنوات الماضية حتى أحيا السنوات القادمة.. لم ولن أكتب من أجل أحد غير صديقيّ!!

كل شيء ممل ومحزن، وما من أحد أمد له يدي،
في لحظات شقاء الروح المضنية.
الرغبات..! وما نفع التمني عبثاً إلى الأبد،
والسنون تمضي، أجمل كل السنين!؟[23]

يا أيها القارئ لا تهتم بتداخل الأحداث وعدم التسلسل

---

(23) أبيات للشاعر الروسي ميخائيل ليرمنتوف.

الزمني لها وكذلك تزاحم المشاعر، فأنا مجرد رجل يتألم! وليس هنالك حل لإخماد الألم سوى أن أكتب وأجبر قلمي على الاستمرار بالكتابة ولا أهتم بأي شيء! لا بأدبيات الكتابة ولا بأساسيات الرواية! أبداً لا شيء! فلو كتبت متقيداً بالزخارف الأدبية لما استطعت أن أكمل الكتابة! فالقلم سفينتي والأوراق بحري! وأنا وحيد تعيش في داخله المشاعر وهذه المشاعر المكبوتة لا يهمها الآن سوى أن تخرج ولا تهتم كيف تخرج المهم أن تخرج حتى يستقر العقل وتهدأ الروح وقبل كل شيء حتى تظل أسطورة ساش علماً يرفرف فوق رؤوس كل البشرية أجمع!

وحيداً..
جالساً في صمت هذا الليل.. والشمعة
أمامي تودع الدنيا...
وها قلمي..
يخط بدفتر الذكرى
ويرسم ذكريات من ضباب الماضي
كالظل
بكل غشاوةٍ دموية يسرع
مشيراً نحو ما قد كان يسعد في حياتي..
وما قد كان يمتعني

***

لقد أضحى الكلام الماضي في دنياي
يذهب
موغلاً في البعد عني
... ولم يبق هنا في القلب غير هياكل الماضي
هياكلها السنين وقد
بدت مصطفة.. وحزينة

***

ولكني...
وها أنا أحسد السعداء
في وسط بكل هدوء يغتبطون بالأسرة
سعادتهم.. وضحكتهم
عواطفهم.. تراها في الوجوه...
أنا
ترى ضحكي ثقيلاً ثقيلاً في روحي،
التي تحيا الفراغ،
كما الرصاص
فآهٍ.. آهٍ ياربي
... وعالمي بات مضطرباً
... مشاعر تغلي في قلبي

مشاعر..

عليهم....

لكنها الذكرى

دموع سنيها الأولى

ألا من ضِدها يقف![24]

(24) قصيدة (ليل) ميخائيل ليرمنتوف بتصرف. كتبت هذه القصيدة عام 1830 م. راجع كتاب (مختارات من الشعر الروسي من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر) دار علاء الدين. ترجمة: الدكتور ماجد علاء الدين، الطبعة الثانية، 2002م، ص 116، 117، 118، 119.

(7)

الساعة الآن الثامنة صباحاً، كأس من الشاي وكتاب أنتظر بهما شيئاً ما، الانتظار دائماً يجعل التركيز مشتتاً، هذه قاعدة منذ عرف الكون! كوب شاي وبوشكين والانتظار، النتيجة زوال التشتت وهواء التركيز يحتل الوجود، صحيح أني أنتظر معدل أحمد في الثانوية العامة، في ذلك اليوم الذي لن أنساه ما حييت، ولكن بوشكين شاعر روسيا العظيم قد أزال كل ما له صلة بالتشتت وعدم الاستمتاع بالحياة! كنت أقرأ ذلك الساحر وما خطته أنامله وأسافر بعيداً عن الوجود، أسافر إلى جزيرة ليس فيها سوى شاي وبوشكين وسامي يتقلب على شواطئ الشعر الروسي..

أقسم بالشفع والوتر
أقسم بالسيف وبالحرب المحقة
أقسم بنجمة الصباح
أقسم بصلاة المساء

***

تشجع واهجر الباطل
اتبع بشجاعةٍ طريق الحق
أحب اليتامى وقرآني
عظ مرتعشاً الخلق.

***

يا نساء النبي الطاهرات
أنتن عن كل النساء مميزات
شديد عليكن ظل النقيصة
في الظل الجميل للسكينة
عشن بتواضع: فرض عليكن
أيتها العذارى الحجاب
احفظن القلوب الأمينة
جديرات بالحنان محتشمات
كي لا تلامس وجوهكن
نظرات الأرذال الماكرة!

***

أُعطيت من الكتاب السماوي
يا نبي سجلاً وليس للمتمردين.

أقم القرآن في سكونٍ
غير داعٍ الكافرين

***

لأي شيء ترى يتكبر الإنسان؟
ألأنه عارٍ على الدنيا ظهر
أم لأنه تنسم الهواء حيناً
أم لأنه يموت ضعيفاً كما ولد ضعيفاً؟

***

هل لأن الله يميته
ثم يبعثه بإرادته؟
أم لأن السماء تحفظ أيامه
سواء في الأفراح أو في الزمن العصيب؟

***

هل لأنه منحه الثمار
والقمح والتمر والزيتون،
مباركاً أعماله،
والحدائق والتلال والحقول؟

***

لكن الملاك ينفخ في البوق مرتين،
فيدوّي على الأرض رعد السماء:
فيهرب الأخ من أخيه
ويتبرأ الابن من أمه

***

كل شيء أمام الله يحضر
مشدوهاً بالرعب
ويتهاوى الكافرون
يلفهم الغبار واللهب

***

أوقدت أنت الشمس في الكون
لتنير السماء والأرض،
كزيت الكتان مملوءاً
ينير في بلورة القنديل.

***

صلوا للمبدع، فهو قادر:
يصلح بالريح، في اليوم القائظ

يرسل على السماء السحاب
يهب الأرض ظلاً شجرياً

***

هو رحيمٌ: لمحمد
كشف القرآن المنير.
كذا نرد نحن إلى الدنيا
وكذا ينهمر من المقلة الضباب.[25]

كم هو الشعر جميل بأي لغة.. إذا كانت لغة الشعوب هي الموسيقى فلغة القلوب هي القصيدة! كم أنت عظيم يا بوشكين.. هل أنت شاعر أم ساحر! كلماتك تجعلني أنغمس أكثر فأكثر في بحرك...

في ذهني المسحوق بالكآبة،
أفكاري الثقال تزدحم..
والذكريات صمتت أمامي..!

---

(25) قصيدة (قبسات من القرآن) الكسندر بوشكين. راجع كتاب (القصائد الشرقية، الكسندر بوشكين) ص27، 28، 29، 30، 31، 33، ترجمة وتقديم الدكتور: طارق مردود. دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى، 1999م.

شريطها الطويل ينسحب..
أشحت بانتظار إذا قرأت...
في طية أيام عمري...
وارتجفت..
كم لعنت!!
بثت مر شكواي
وذرفت أدمعي السخينة...
لكنني لم أمسح تلك الأسطر الحزينة..!

يقال إن بوشكين عندما قرأ الترجمة الفرنسية للقرآن التي لم تكن بالترجمة الجيدة حن ذلك الشاعر إلى أصوله وأجداده[26] فقرأ القرآن مرة أخرى وفهم سيرة الرسول النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا الفهم للسيرة النبوية نتأمله بكل صفاء في قصيدة اسمها "النبي" حيث نرى فيها الاندماج الفلسفي لنظرة بوشكين إلى الحياة وتطور أصل الشعوب الكوني، فبوشكين هو القائل إن رسالة الشاعر هي رسالة الأنبياء...

---

(26) أم بوشكين حفيدة لـ هنيبعل العربي الأصل. راجع كتاب (مختارات من الشعر الروسي من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر)، ص 17 بتصرف، ترجمة الدكتور: ماجد علاء الدين. الطبعة الثانية، 2002م.

مضنى بالظمأ الروحي
تعذبت في صحراء مدلهمة
ظهر لي عند مفترق الطرق
سداسي الأجنحة سيرافيم
وبأصابع خفيفة كالحلم
لمس مقلتي:
تفتحت الأحداق النبوية
كما عند النسور الفزعة
لمس أذني
وملأها ضجة ورنيناً
فسمعت ارتجاج السماء
وطيران الملائكة العلوي
ومرور زواحف البحر تحت الماء
وتطاول الدوالي في خمول
التصق بشفتي
وانتزع لساني الخاطئ
الماكر الثرثار،
وأدخل بيمناه المدمّاة
ناب أفعى شجاعة
في شفتي المتجمدتين
شق صدري بالسيف

وانتزع قلبي المختلج
وغرس إبرة محمّاة بالنار
في صدري المفتوح
ارتميت مثل جثة في الصحراء،
أرسل الرب صوتاً إلي:
"انهض يا بني وانظر واستمع
نفذ إرادتي
وعابراً البحار والأرض
ألهب بصوتك قلوب الناس."[27]

يسيطر بوشكين على الغرفة والانتظار يستمر، انتظار أحمد ونتيجة دراسته كان يوماً مهماً لنا نحن الأصدقاء فأحمد قد أعاد دراسة آخر سنة من الثانوية العامة فقد حصلت له حالة من عدم المقدرة على مواصلة الدراسة في العام المنصرم واستبد به اليأس، كان اليأس الذي لازم صديقي هو أن المرض الشديد و الإرهاق الأشد لا يصيبانه إلا في أيام الاختبارات وكانت حالته الصحية تزداد سوءاً أيام الامتحان وضيق لا يُعرف سببه يسيطر عليه وبسببه لا يستطيع أن

(27) قصيدة (النبي) راجع كتاب (القصائد الشرقية الكسندر بوشكين) ص43، 44، 45، ترجمة: الدكتور طارق مردود، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى، 1999م.

يستلقي على ظهره! مرت سنة كانت من أصعب السنوات التي عرفناها نحن الأصدقاء...

كنت أنتظر صديقيّ وقد أبلغت شاهين بالحضور لنجتمع نحن الثلاثة، الغرفة ليست بالكبيرة أو الصغيرة بل هي متوسطة في كل شيء.. الانتظار يستمر والباب شبه مفتوح وشاهين يدخل بينما كنت أمسك كتاب بوشكين وعقلي يحلق في سيبيريا وفوق بطرسبورج! أخذ ذلك الشاعر الكتاب والابتسامة التي لا تفارقه وطلب مني أن أحضر له مسكّن صداع، أحضرت له المسكّن وأنا أقدّمه له إذ به يقول:

- بوشكين شاعر روسيا العظيم، هل تعلم يا سامي ما هو سر بوشكين؟ إن سر وسحر ذلك العملاق أنه يستطيع بفنه أن يتقمص حياة جميع الشعوب! فتراه مرة يتكلم بلسان مواطن إنجليزي وأخرى بلسان مواطن أسباني وكأنه قد ولد وعاش واختلط بتلك الثقافات، فأنا لن أنسى تلك الكلمات البسيطة التي وصف بها بوشكين بلاد الشرق قاطبة إذ يقول: "تلك البلاد العجيبة حيث الرجال شعث قساة والنساء مثل الحوريات.." انظر يا سامي إلى دقة ذلك الوصف وكذلك لسهولته، وأيضاً تأمل يا صديقي هذه الكلمات التي وصف بها بوشكين أستنبول وهي تعبر عن واقع نعيشه الآن...

تنكرت اسطمبول للنبي:

فيه صدق الشرق القديم
عكرة الغرب الماكر
اسطمبول لأجل ملذات الرذيلة
غيّرت السيف والدعاء
تنكرت اسطمبول لعرق الجهاد
وأخذت تشرب الخمر وقت الصلاة[28]

لم يقف بوشكين عند هذا الحد فقد كتب قصائد عديدة تدل على عشقه للشرق وإيمانه بعظمته وعظمة تاريخه الأدبي، انظر يا صديقي إلى هذه الأبيات التي تدل على أن بوشكين قد قرأ الشعر العربي..

فتى جذاب دمث الأخلاق..
لا تخجل مني فنحن أهل
وبداخلنا لهب عاصف
ونعيش حياة واحدة..
لقد تآلفنا معاً:
تماماً مثل جوزة مزدوجة.
أسفل قشرة واحدة..

كان شاهين يتحدث ويذكر قصائد بوشكين بكل حماسة

(28) قصيدة (أسطمبول) المرجع السابق، ص 54، 55 بتصرف.

وكأنه يتحدث عن أبيه الذي لم يره! وكنت أنا أمثل دور المتأمل لعيني صديقي وهو يقرأ عظمة بوشكين، وأردف شاهين يقول:

-هل تصدق يا سامي أن بوشكين لم يكتف بكتابة قصائد عن العرب و الشرق كافة وإنما كتب قصيدة تسمى "المغارة" يتضح بها حبه وعشقه للدين الإسلامي!

وفي المغارة السرية..
وفي يوم الهروب..
قرأت آيات من القرآن الشاعرية..
فجأة هدأت روعي الملائكة..
وحملت لي التعاويذ والأدعية..

التفت شاهين إليّ ووجهه الذي كان يشع حماسة قد تغير كثيراً وبدأ يتأملني ودمعتان تتأرجحان في عينيه وقال:

- لماذا؟! أقولها والدمع منسكب! لماذا يا سامي لماذا من يمجد تاريخنا هم أعداؤنا وللأسف من يسب تاريخنا وقيمنا ورموزنا وحتى ديننا هم أبناء أمتنا لماذا؟!

قال كذلك صديقي وخفض عينيه فلاح فيهما وميض من الحزن والحيرة!

قلت له وكأني منذ زمن بعيد أنتظر وجود ذلك السؤال على أرض الواقع:

- للأسف يا صديقي كتابنا لا يهمهم إلا تشويه المجتمع فكل عمل روائي لا تجد فيه إلا تسليط الضوء والبحث عن النماذج القذرة وتعميمها وجعلها مادة لهم والأدهى من كل ذلك أن أقلام أولئك الخونة قد تطاولت حتى على رموزنا الدينية والاجتماعية وعندما يقال لهم توقفوا يكون الجواب ببساطة: "حرية.. حرية التعبير!!" أية حرية تلك التي تجعل من رموزنا مادة للضحك والاستهزاء! للأسف يا صديقي فبسبب هؤلاء من كتاب وإعلاميين تطاول علينا الغريب وأصبحت مشاكلنا الاجتماعية تناقش في قنوات وبألسنة الغير وكأن هذه البلاد الشامخة لا تملك من يعرف ويفهم ويحلل ويدرك!! كم أبكي وأنا أشاهد في إحدى القنوات رجلاً وأمامه امرأة تقلد نساء بلادي وتمثل في مسلسل أو فقرة فكاهية عن نساء بلادي وثقافتهن! نعم يا صديقي إني أحزن على ذلك المشهد وأجلس أتأمل وأبحر في سؤال: لماذا فقط نحن الذين يتطاول علينا الغير بالنقد والسخرية؟! فكان الجواب عن هذا السؤال أو جزء منه هو: لأننا أعطينا المجال لهم، بكل بساطة بسبب بعض من كتابنا وإعلاميينا وكذلك قنواتنا التي تنشر الانحلال الأخلاقي والقليل جداً من الرقي الثقافي وللأسف تنسب تلك القنوات لهذا الوطن العظيم وثقافة أهله! يا صديقي لا يحق لنا أن نطالب الغير

بالسكوت وعدم التدخل في مشاكلنا وبعض كتابنا يفرحون كثيراً بأن يسبوا ثقافة وطنهم!

- أتعلم يا سامي أني وخلال العديد من القراءات في الثقافات كافة لم أجد كاتباً يحقر مجتمعه بهذه الطريقة الرخيصة كما يفعل البعض هنا! وأنت الأعلم يا سامي بأن أغلب الكتاب والروائيين العمالقة كانوا أكثر البشر حباً ودفاعاً واستماتة لمجتمعاتهم ومبادئهم وعادات شعوبهم وذلك على الرغم من أنهم واجهوا مجتمعات ضدهم ولكن حب الوطن لديهم كان فوق كل شيء، وحب الوطن يعني حب ثقافته التي هي أعظم من الوطن، للأسف العكس يحصل هنا حيث يريدون النجاح على حساب أمة وعلى حساب امرأة بل زاد غرورهم وأصبحوا يريدون النجاح على حساب الدين للأسف، أتعرف يا صديقي ذلك الشاعر الروسي ميخائيل ليرمنتوف الذي قتله مجتمعه ووطنه وهو في عز الشباب؟ اسمع ما يقول ذلك الشاعر المظلوم عن وطنه، أرجوك اسمع!

أحب الوطن لكن حباً غريباً..
لا تنتصر عليه حصافتي! لا المجد المشترى بالدم..
لا الهدوء التام للثقة الأنوف
ولا الأساطير المقدسة في العهود المظلمة..
تحرك فيّ كل الأحلام المفرحة!!!

أرأيت يا صديقي كيف يكون حب الوطن الحقيقي لدى ذلك الشاعر الذي اغتيل في زهرة شبابه ولكنه ظل مخلصاً ومتواضعاً أمام مجد وطنه.. المشكلة يا صديقي أن ما يحدث هنا عكس ذلك تماماً فغرور الكُتاب نجده هنا بكل أشكاله وصوره ونماذجه والشيء المضحك والمحزن في الوقت نفسه أن كثيراً من كتابنا وعندما تطول أعمارهم يعملون أعمالاً صبيانية!!

- ماذا تقصد يا شاهين بكلمة "صبيانية"؟! قلت كذلك والاضطراب وانتظار أحمد يحتلان عقلي..

عاد شاهين يمسك كتاب بوشكين ثم وضعه على الطاولة وقال:

- نعم يا صديقي "أفعال صبيانية" بكل ما لهذه الكلمة من معنى، حيث أنك تشاهد وتسمع بكل وضوح ذلك الكاتب الذي يعتبر نفسه الأفضل والأشهر والأجمل حتى! يقول وقد استبد به الغرور: "هؤلاء نحن العظماء، هؤلاء نحن المشهورون، هؤلاء نحن النجوم، إنني نجم وأسطورة....!!" أرأيت يا صديقي لماذا أصفهم بأوصاف صبيانية! إن الكاتب مهما بلغت شهرته ومجده وعظمته أصقاع المعمورة يجب عليه أن يترفع ويرتقي عن تلك المدائح الذاتية التي يرى من خلالها أنه النجم والأوحد والمميز! إن من يرى في ذاته تلك الأشياء حتى وإن كان كذلك فهو فقاعة

صابون ستزول يوماً ما! إن الكُتاب العمالقة لم يكونوا عمالقة قط أثناء حياتهم بل إن ما كتبوه وما سطرته عقولهم هو الذي جعلهم عمالقة بعد رحيلهم، ألا يفهم ذلك الذي يعتبر نفسه النجم!!! هل تصدق يا سامي أني أحياناً أؤمن أن أولئك الأوباش يكرهون الوطن! نعم لا تتعجب أنهم يكرهون الوطن لأنهم لا يريدون التقدم والحضارة للوطن، لأنه في نظرهم إذا تحقق الازدهار للوطن لن يبقى لهم شيء يسخرون منه ويرمون كل مشاكل الكون عليه! ومن أجل ذلك أقول إن تقدم الوطن لن يُبقي لهم وجوداً لذلك هم يكرهون هذا التقدم!!

- هل تقصد أن هناك فئة تكره تقدم الوطن وتطوره!! قلت كذلك متسائلاً ومتعجباً!

نظر شاهين إلى الساعة وأكمل قائلاً:

- نعم هنالك الكثير ممن يكرهون تقدم الوطن! يا صديقي إن من يجعل من كتاباته مادة لنشر الغسيل هو يكره الوطن! يا صديقي إن من يكتب ليضحك الشعوب الأخرى على حساب وطنه هو يكره الوطن! يا صديقي إن من يمجد الثقافات الأخرى ويحاول أن يتناسى تاريخه وعظمة ثقافته هو يكره الوطن! يا صديقي إن من يستهزئ بأساسيات ثقافته هو يكره الوطن لأن الوطن ثقافة!

"الوطن ثقافة" رنين تلك الجملة يحتل وجودي، لم

أحاول أن أستمر بالمناقشة مع شاهين فقد كنت أعيش في عالم آخر كان أساسه القلق والتفكير في نتيجة أحمد، ذلك اليوم الذي استوطن الروح لن يغيب عن بالي أبداً، دخل أحمد وكان شاهين يردد "الوطن ثقافة" دخل ذلك الفيلسوف مبتسم الثغر ومشرق الوجنات، الفرح يحتل وجوده، اتجه أحمد ووقف أمامنا فأصبحنا ثلاثة! اثنان أمام واحد! وأحمد ذلك الفيلسوف يبتسم ويرسل نفحات من الصداقة التي تغيب في أرجائها كل الدنيا، كانت النظرات تعبر عن كل شيء، قال وهو يهم بأن يمسح دمعة تتأرجح متهيئة للسقوط!

- قولا لي مبروك فقد حصلت على نسبة 97% نعم لقد اجتزت تلك الامتحانات النفسية قبل الفكرية، نعم إني بهذا المعدل استطيع أن أتقدم لوزارة التعليم العالي للحصول على الابتعاث الخارجي ودراسة الفلسفة، نعم الفلسفة التي أعشقها عشقاً جنونياً!! نعم قولا لي مبروك.

وبصوت واحد قلت وشاهين: مبروك يا أحمد، الحمدلله كل التعب الآن قد تلاشى أمام هذه الفرحة، أمام هذه اللحظات الجميلة...

***

إن الإنسان منا عندما يرى أن أحلامه والطريق لتلك

الأحلام قد بدأت تتحقق تصبح الدنيا في عينيه جنة عظمى، إنني الآن أكتب تلك اللحظات، ذلك الماضي، تلك الأحداث، أكتب ذلك اللقاء، أكتب كيف كان أحمد، كيف كانت نظراته، كيف كانت روحه وكأنها طائر يحلق في السماء لقد كان صديقي في ذلك اليوم أسعد السعداء فحلمه بأن يدرس الفلسفة كان حلماً خيالياً في بلاد لا تؤمن بالفلسفة فكيف بدراستها! وأيضاً لشاب يعيش في ركن بسيط من أركان هذا المجتمع، شاب ليس له أهل ولا قبيلة في مجتمع عنصري لا يرحب إلا بمن يكون مثله!

.. كانت الدموع، والدموع هي أكبر معبر عن خلجات الداخل وصراع الأعماق تعبر عن فرح وحلم سيتحقق بإذن الله، قال أحمد بعد أن جلس جلوس المنتصر على الكرسي الذي كان يمتلكه شاهين الذي بدوه ذهب لإعداد الشاي:

- سأذهب غداً لأقدم أوراقي وأحصل على الموافقة لكي أسافر فأنا في شوق لدراسة الفلسفة والعيش في أحضان السوربون!

كانت تلك الكلمات قد خرجت من قلبه قبل لسانه، كلمات تعبر عن حلم كبير، حلم يطاول السحاب، كان يتحدث وكنت أستمع إليه وأتأمل نظراته وكأنه صقر جارح يحلق مفتخراً ومعتزاً في السماء بل كأنه عاشق مغرم من الشوق ينتظر اللقاء! لقاء الأحبة، لقاء العشاق، لقاء الحلم،

ينتظر لقاء السوربون تلك العجوز التي لم تهرم بل هي قمة في فرنسا!!

.. إنها لحظات تعبر عن الماضي، عن الذكريات، لحظات مرت بسرعة البرق ولكنها محفورة ومنتصبة في داخلي كتمثال إغريقي لا تغيره السنوات ولا تشتته الأفكار والأحداث، بل إن تلك اللحظات كائنة في داخلي وباقية ما بقي ذلك الجسد! كنت أتمنى أن كلمة "ليت" وأن ما تخطه الأقلام وما تحويه الأوراق يجعل من ذلك الماضي حاضراً!

آه يا ليت يعود ذلك الذي مضى...

ليت شعري! والنفس تعلم أن
ليس بمجد على الفتى: ليت شعري
هل لخالي زماننا من رجوع
أم لماضي زماننا من مكرِ؟!
أين أيامنا وأين ليالٍ
كرياض لبسن أفواف زهرِ
في فتوٍ توشحوا بالمعالي
وتزودوا بكل مجد وفخرِ
وضح تنجلي الغياهب عنهم
عن وجوهٍ مثل المصابيح غُرٍّ

وســـجـــايـــا كـــأنـــهـــن كـــؤوس
أو رياض قد جادها صوب قطرِ[29]

.. أيام مضت ولن تعود، فكل الأيام واللحظات الجميلة التي تبعث في النفس الفرح تذهب سريعاً ولا يبقى ولا يعيش في داخل الروح سوى الحزن، سوى الألم.. في ذلك اليوم الذي أكتبه الآن ودموعي تخط من دفتر الذكريات اتفقنا نحن الثلاثة أن نذهب للسمر والسهر وتناول العشاء في أحد مقاهي مدينة الرياض احتفالاً بتخرج أحمد ومعدله المشرف..

كان الموعد الساعة الثامنة مساءً..

المكان أحد المقاهي في شارع البرجوازية شارع التحلية!!

(29) أبيات لابن زيدون.

(8)

لست أدري كم سيمضي من الوقت، من دقات عقارب الساعة؟ هل سأحيا زمناً أكثر مما مضى! هل سأعيش أحداثاً تشكل كل حياتي الماضية والحاضرة والمستقبلية؟ نعم هنالك أحداث تحدث فجأة تقلب الدنيا بأسرها تشكل الحاضر والمستقبل وبسببها تشكل الماضي! نعم إن حدثاً بسيطاً يغير وجه تاريخ ذواتنا، يغير الزمن، ذلك الزمن الذي نقيس به امتدادنا في هذه الدنيا، ذلك الزمن الكوني الغامض المبهم الذي لا يهتم بمشاعرنا ومصائرنا وعواطفنا ولا يهتم لا بلقاء ولا بفراق ولا بانتظار موت وقدر، لا يهتم إلا بخلق الذكريات! إن مهمته هو أن يخلق بمروره ذكريات وذكريات! ذكريات تقتل كل فرح، كل ابتسامة، تجعل الحزن هو القدر هو الواقع على الرغم أننا نحيا واقعاً فيه كل مقومات السعادة، آهٍ من تلك الكلمة "السعادة" لم أعرفها منذ زمن!! ذلك اليوم وفي ذلك اللقاء وعلى نسمات صيف الرياض كنا ثلاثة أصدقاء متحلقين حول طاولة مستديرة أمام أحد المقاهي

المتناثرة في شارع البرجوازية! ذلك اليوم أقولها ودمعة تريد الانعتاق من عيني تمنيت أن يتوقف الوقت لحظة حتى نظل كما نحن ثلاثة أصدقاء! في ذلك الشارع الذي ترى من خلاله أحد أوجه ثقافة الرياض، كنت أتمنى أن يتوقف الوقت، في ذلك الليل البرجوازي يا ليت الوقت قد توقف وشلت كل خلايا الكون وتوقفت الثواني عن المسير وأصبح الزمان متأملاً ذلك المنظر.. سامي وأحمد وشاهين.. وفي أيديهما قائمة الطلبات..

- مبروك.. مبروك يا أحمد.. مبروك يا فيلسوف!

قال كذلك شاهين ثم وضع قائمة الطلبات على الطاولة واتجه بعينيه إلى سامي وأكمل كلامه فقال:

- معروف أني أعشق الشاي فلماذا أتعب عيني في هذه الورقة!

أجاب سامي على تعجب صديقه فقال:

- نعم.. نعم يا رسام أظن أنك كنت ترضع ليس الحليب في طفولتك وإنما الشاي! وأعتقد أنه من الأفضل لك أن تقلل منه فالكثرة من أي شيء مضرة، ألا تشاهد في عينيك وميضاً من الأرق والإجهاد على ما أتصور..

التفت شاهين إلى أحمد وبحركة سريعة وضع إصبعه على عينه وقال:

- هل توافق على تصوراته أليست عيناي "غابة نخيل

ساعة السحر!!"[30] إنهما تشعان بهجة وأملاً وليس فيهما أي إرهاق، أعترف أن مسكن الصداع كان رفيقي خلال الأشهر الماضية!! ولكن ليس لهذه الدرجة فعيناي كغابة النخيل التي تغنى بها السياب!

نظر أحمد إلية بتأمل فيلسوف وقال:

- عيناك هما الوجود نفسه! ولا تهتم بكلام الحاسدين الذين يتمنون عينين كعينيك! بل إن عينيك غابة فلسفة وليس غابة نخيل! أقدم اعتذاري للسياب على هذا التلفيق واللعب بقصيدته الأجمل!

كانت قائمة الطلبات بيد سامي ومنذ أن سمع اسم السياب وضع القائمة وانبرى للحديث فقال:

- آهٍ... تلك القصيدة التي قل ما نرى مثيلاً لها في عالم الشعر الحر، لقد أكسبها محمد عبده عندما تغنى بها سحراً خلاباً يجعل المستمع مسافراً وكأنه في البصرة بين مزارع النخيل!

وأكمل شاهين ما بدأه سامي فقال:

- أنشودة المطر، أجمل قصيدة قرأتها في حياتي وأقربها لقلبي، فقد أبدع السياب بتلك الأعجوبة واستخدم فيها

---

(30) (غابة نخيل ساعة السحر) أحد أبيات قصيدة بدر شاكر السياب العملاقة: أنشودة المطر.

أسلوب التغني بالمطر، فكما أن العشاق يتغنون بالليل والسهر نجد أن التغني بالمطر يجعل السحر يتدفق بين الكلمات، قرأت قبل فترة ديواناً لأمل دنقل ذلك المبدع "مقتل القمر" كان الديوان جد جميل تسرقك الكلمات وتسافر بك إلى البعيد، وكان المطر موجوداً في ذلك الديوان.. اسمعا هذه القصيدة عن الحب وعن الشوق في ذكرى زخات المطر..

اعتدل شاهين في جلسته وأخرج ورقة من جيبه وبدأ يتغنى بالمطر على لسان أمل دنقل...

وينزل المطر
ويغسل الشجر
ويثقل الغصون الخضراء بالثمر

***

ينكشف النسيان
عن قصص الحنان
عن ذكريات حب
ضيعه الزمان
لم تبق منه إلا النقوش في الأغصان
قلب ينام فيه سهم

وكلمتان
تغيب في عناق
جنبي.. فراشتان
وأنت يا حبيبي
طير على سفر

***

ويرحل المطر
ويذبل الشجر
ويغمر الغبار النقوش والصور

***

وتهبط الأحزان
فتمحي الألوان
والقلب
والخطوط العرجاء
والاسمان
وينخر السوس القديم في العيدان
وترحل الطيور الزرق بلا عنوان
تسأل عن هوانا

تسأل عما كان

... ما كان يا حبيبي

حلم، وقد عبر!

***

وينزل المطر

ويرحل المطر

وينزل المطر

ويرحل المطر

والقلب يا حبيبي

ما زال ينتظر

أجاب أحمد وقد بدأت عيناه ناقمتين على هذه القصيدة وبشيء من التهكم قال:

- قصيدة لا بأس بها و الأبيات جميلة وفيها لحن موسيقي وكذلك حزن ولكنها لا تعجبني أبداً!!!

- ما السبب يا فيلسوف؟

كذلك سأل شاهين صديقه وهو يحدق فيه متعجباً!

نظر أحمد إلى شاهين وأغمض عينيه وفتحهما متأملاً سامي ومن ثم رفع رأسه إلى السماء ذلك الفيلسوف الساخط وقال:

- إنني أكره بساطة الألفاظ! أكره أن تؤخذ الكلمات وتجمع لتشكل قصيدة! الشعر ليس كذلك! إن الشعر فلسفة! فلسفة عميقة، والفلاسفة العظماء قد كانوا في الأصل شعراء، إن شاعراً لا يجيد فن الفلسفة في كلماته لا أعتبره شاعراً بل شويعراً!! أو جامعاً لكلمات ليقال عنه جامع كلمات!! يجب على الشاعر أن يتخيل صوراً وأحداثاً لا علاقة لها بالواقع الذي يعيشه بذاته ذلك الشاعر! يجب أن يتخلى الشاعر عن واقعه الذاتي ويجعل الواقع لكل ذوات الدنيا حتى يصل بذلك ويشعر بحقائق الحياة وصورها المتعددة، إن شاعراً لا يجيد فن الفلسفة الأحرى به أن يرمي قلمه وورقته ولا يكتب! فنحن لا نحتاج لدواوين تمتلئ بها مكتباتنا بقدر ما نحتاج لقصائد تفتق الذهن، تجعلنا نتأمل أكثر وأعمق في هذا الوجود، تجعلنا نتوقف أمام كل كلمة لنفهمها وندركها فالقصيدة مهمة لوجودنا أمام تعدد الثقافات وتخبط الأقلام! إن قصيدة لا تأتي بالجديد ولا تحمل فلسفة ولا تحوي لغزاً، الأحرى بها أن ترمى مع القمامة! انظر إلى شاعر الفلاسفة أبي العلاء المعري فهو أعمى ويعيش بعيداً عن الناس انظر إلى عمق أبياته كيف تجعلك تنسى كل الدنيا وتكون مسجوناً في محيطها فالدخول إلى عالمها يصعب على كثير منا!!

لعمري لقد خادعت نفسي برهة
وصدقت في أشياء من هو مائِنُ

أعــلــل بــالآمــال قــلــبــاً مــضــلــلاً
كــأنــي لــم أشــعــر بــأنــي خــائــن
يــحــدثــنــا عــمــا يــكــون مــنــجــمٌ
ولــم يــدرِ إلا الــلــه مــا هــو كــائــن
ركــبــنــا عــلــى الأعــمــار والــدهــر لــجّــةٌ
فــمــا صــبــرت لــلــمــوج تــلــك الــســفــائــن
لــقــد حــمــد الأبــنــاء قــوم وطــالــمــا
أتــتــك مــن الأهــل الــشــرور الــدفــائــن
تــجــيء الــرزايــا بــالــمــنــايــا كــأنــمــا
نــفــوس الــبــرايــا لــلــحــمــام رهــائــن
يصون الكريم العرض بالمال جاهداً
وذو الــلــؤم لــلأمــوال بــالــعــرض صــائــن

كان يتحدث ذلك الفيلسوف وكنا كجلمود صخر حطه السيل من علٍ! صامتون متأملون لذلك العقل الذي يتفلسف، الذي يخترع، وفجأة وبدون مقدمات انفجر شاهين فقال مصوباً انفجاره تجاه أحمد:

- أتدرك معنى أن تنتقد قصيدة لأمل دنقل!؟

(9)

ارتشف أحمد كأساً من الماء البارد دفعة واحدة متناسياً تساؤل شاهين! وبدأ ذلك الفيلسوف يتأمل السيارات، ذاك شاب عابث يحاول أن يرسل ابتسامة إلى فتاة تتلوها نظرة شهوانية محملة برقم هاتف! وشاب آخر يستعرض من داخل سيارته الفاخرة بأغنية يعلو صوتها ويتراقص على نغماتها! وآخر يمسك سيجارة ويمتصها إلى منتصفها لعل ذلك الفعل نقمة على ضياع فتاة من عينيه! عادت عينا الفيلسوف أحمد إلينا وإلى الطاولة وفجأة صرخ بأعلى صوته قائلاً: "لماذا تأخرت الطلبات!!" صرخة سمعها القاصي قبل الداني، اعتدل في جلسته فك أحد الأزرار العلوية من ثوبه، وضع يده اليمنى على قلبه وعاد إلى تأمله السابق! فترة صمت استمرت عدداً من الثواني، كنت أنا وشاهين نتأمل أحمد ولا نتكلم وكأننا نشاهد مسرحية صامتة! رمقنا بنظرة عجائبية وعاد مرة أخرى يتأمل الوجود، ذلك الوجود الذي يمثله الآن شارع البرجوازية وبصوت مسموع وكلمات تخرج من داخل الروح قال:

ما كـان فـي هـذه الـدنـيـا بـنـو زمـن
إلا وعـنـدي مـن أخـبـارهـم طـرفُ
يـخـبـر الـعـقـل أن الـقـوم مـا كـرمـوا
ولا أفـادوا ولا طـابـوا ولا عـرفـوا
عاشـوا طويلاً وماجـوا فـي ضـلالـتـهـم
ولا يـفـوزون إن جـوزوا بـمـا اقـتـرفـوا
إذا سـقـيـت فـجـسـم نـالـه نـصـب
وإن تـرفـعـت فـمـا يـنـفـع الـتـرف
يـا أم دفـر لـحـاك الـلـه والـدة
مـنـك الإضـاعـة والـتـفـريـط والـسـرف
لـو أنـك الـعـرس أوقـعـت الـطـلاق بـهـا
لـكـنـك الأم هـل لـي عـنـك مـنـصـرف[31]

.. أم دفر!! إنها الدنيا....

قال كذلك وعاد مرة أخرى إلى تأمله، إلى الطريق الذي يمثل جسد الوجود الآن! أتت طلباتنا وقام النادل بتوزيعها بحسب الطلب، شاهين كالعادة كوب من الشاي المشبع بالنعناع وأحمد قهوة تركية بدون سكر! وأنا أخذت عصير ليمون لكي أكون هادئاً ومستمعاً فقط إلى شاهين وأحمد! كان

---

(31) أبيات لأبي العلاء المعري.

ذلك اللقاء الذي لن يزول ولن يتلاشى من ذاكرتي هو الأهم خلال السنوات التي عشناها معاً، كنت أمثل دور المتفرج والمتأمل فقط لما يدور أمامي. لم أحاول قط أن أقول رأياً أو أن أعارض فكرة، كنت فقط مستمعاً إلى شاهين وهو يجادل ذلك الفيلسوف! ببساطة في ذلك اللقاء الذي أكتبه الآن بصيغة الماضي كنت أرى نفسي بهما!!

عاد أحمد بنظراته إلى الطاولة وبدأ يشرب من القهوة، كنت كشاهين ننتظر بفارغ الصبر ماذا سيقول عن الدنيا وعن الحياة وعن الوجود وعن كل شيء؟ أعترف أنه يفوقنا بعقولنا ذلك الفيلسوف إنه يفسر الشيء الماثل أمامنا تفسيراً جديداً، تفسيراً قد يغيب عن بال الكثيرين من البشر! وضع فنجان القوة على الطاولة وأخرج سيجارة، أشعلها وبدأ يمتصها بكل شراهة وكأنه يستعد لحدث هام!

- آه من الدنيا يا ليتها عروس فأطلقها! يا ليتها مزرعة فأحرقها! يا ليتها كانت غرفة فأقفلها! إني أكره الوجود ولكني لا أستطيع إلا أن أستمر بالوجود! ذلك الصراع الذي يستوطن داخلي ما هو إلا وهم والوهم هو في الغالب محاولات مستميتة قد تكون مقصودة وقد تكون غير ذلك للاعتذار أو الهروب عن جرائم الحقائق وقبحها!! ولكني وعلى الرغم من كل شيء أشعر أن ذلك الصراع الكائن في داخلي ما هو إلا محاولة بكل الطرق المتوافرة لتفسير الواقع تفسيراً آخر،

تفسيراً قد يكون شاذاً أو غريباً لكثير من الناس بل لكل الناس! لكن ذلك التفسير هو الذي يريحني ويجعلني أستطيع أن أستمر بالوجود حتى ولو كان التفسير يمثل نموذج الكذب على النفس! فالبشر جميعاً بلا استثناء كذابون وممثلون وللأسف هم يجيدون فن التمثيل في مسرحية كبيرة في أعين الناس حقيرة في عيني! إنها الدنيا لعن الله الدنيا كم أذلتنا! كم جعلت دموعنا أسيرة فيها! إن تلك الدنيا تلك العاهرة تقول لي دائماً وأنا أعيش مسجوناً في تأملي: "يجب أن تتفوق على ذاتك يا فيلسوف "تريدني أن أتفوق على ذاتي وذاتي مأسورة فيها بلا أي عفو! لقد وجب عليّ أن أكون أنا وأكون لنفسي أنا وجب عليّ أن أخلق لكي أتعذب! لقد تيقنت أن وجودي هو العذاب بحد ذاته وذلك العذاب هو اللذة الوحيدة الباقية لي التي لا تتخلى عني! نعم إني أعلنها أني أتلذذ بالعذاب وبكبح نفسي وأسرها وقمعها وكبت مشاعرها! لي طموح لي عقل أريد أن أوسع مداركه وقدراته لكني أعترف أن هذا العقل سيقودني إلى الموت إلى الكفر والجحود وكذلك التمرد! لا أستطيع أن أتوقف عن التفكير والتأمل والقراءة فإني أحتاج إليها أكثر من الأكل والهواء، لقد ذهبت إلى مكان بعيد جداً، ذهبت هناك أشاهد المستقبل الذي ينتظرني وينتظر ذلك العقل، كنت وحيداً جسداً وعقلاً يمشيان فقط! كنت خائفاً وأنا أتأمل القدر وما يخطه لي،

حاولت أن أمعن النظر في ذلك المستقبل المبهم لي! فتحت العين أكثر، فتحت القلب، فتحت العقل، زاد التأمل فارتعشت وذعرت وخفت كثيراً عندما وجدت أن ما حولي ليس غير الفراغ والعدم! هربت مذعوراً من استمرار التأمل، عدت إلى حيث أنا، إلى حيث وجدت! إنني أفضل أن أكون ميتاً أفضل من حياة تقهر، حياة كلها حزن وملل! حياة ليس فيها أم ولا أب!!

.. صديقيّ لقد قيل كثير عن الحياة وعن حب الحياة أو محاولة فهمها لأن حب الحياة لدى الفلاسفة يؤسس في داخل الذات الإنسانية اكتشاف معنى الحياة واكتشاف ذلك يؤدي بنا إلى معرفة جزء كبير من الحقيقة! ولكني أنا لا أريد شيئاً أبداً، إنني أريد أن أموت! هل يعقل أن يعيش الإنسان مجبراً!! أريد أن أموت! إنكم أيها البشر واقفون الآن ليس بأجسادكم وإنما بعقولكم، واقفون أمامي ولا ريب أن أكثركم يتساءل الآن وهو يتأملني: هل اختطف العقل منه وهو نائم! وأسفاه إن تلك العقول المتحجرة لا ترى إلا ما تريد أن تراه فيّ! إنني ما أزال في البداية! أعترف أنني ما أزال في بداية مرحلة الضياع في مدن العقول والتأمل والأفكار!

إن تلك العاهرة التي لا تعرف الشرف قد حصرتنا بين دعارتها فتوهمنا لأنفسنا القوة والعظمة وأصبح التوهم مصدقاً لنا وللأسف، وغرزت في أنفسنا أننا نملك أجمل العاهرات

فأصبحنا ندور في محيط دعارتها ولا نحاول أن نجد لأنفسنا المخرج من ذلك التوهم الذي أصبح حقيقة صدقناها، إنني لا أرى في هذه الدنيا عيوناً طاهرة تستحق أن أحدق النظر فيها سوى عيون الأطفال وما وجدتني بينهم إلا وكنت طفلاً مثلهم! لذلك أرى أن العقل الذي وجد في رأسي يستحق القتل! لأنه يقتلني!! ألا يحق أن أقتل شيئاً سيقتلني! ولكن كيف أقتل قاتلي وقاتلي هو المقتول!! أتعلمون أيها البشر ما هي الإرادة وكيف تكون واقعاً يحطم كل القيود؟! إنني أملك عقلاً لا يبلغ الحقيقة في نظري، إن الحقيقة وبكل تجرد هي الوهم الصادق، هي الوهم الذي يجب أن يوجد، يجب أن نوجده! هل نحيا لأن للحياة معنى أم نحيا لأننا مجبرون أن نحيا؟! إنني فقط غريب، إنني أشعر بأن نفسي متجهة للغرق فهل من منقذ! ماذا جرى لي يا أصحابي إن الاضطراب قد ملكني ودفعني لأن أقول كلاماً قد كتمته طوال حياتي! يجب أن أصمت، فالصمت خير لي من أن أقتل فكرتي وأجعل الناس تكتشف طريقتي، أريد أن أموت حتى وإن كان المستقبل جميلاً! لا أريد حياة كهذه الحياة! قد تقولون إني ساخط قولوا ما تشاءون فأنا أنا ولن أكون إلا أنا!!

قال كذلك أحمد وعرق بارد يغشي جبينه كحبات اللؤلؤ! كان الاضطراب قد جعل ذلك الفيلسوف يستمر بالهذيان من دون توقف، خفض رأسه وعاد إلى فنجان قهوته، وبدأ يتأمل

شاهين بكل تمعن وكأنه يشاهد مناظر قديمة تعود إلى أزمنة مضى عليها الدهر! وضع يده الأخرى على يد شاهين وبحنو ومحبة قال:

- أتعلم يا صديقي أنك محسود لأنك رسام، لأنك فنان!

سحب شاهين يده من تحت يد أحمد وقال:

- محسود! محسود منك أتقصد ذلك!؟

رد أحمد والحزن يؤسس مملكة على جبينه فقال:

- إنني لا أحسدك بل أغبطك، إنك يا صديقي عندما تريد أن تعبر عما بداخلك عن مبادئك عن أفكارك عن فلسفتك تأخذ ريشة وترسم بيدك وعواطفك لوحة فنية تريحك من عناء التفكير، تخط بها ما تشاء من أفكارك وفلسفتك تجعل من تداخل الألوان فكرة كانت محفورة في داخلك فأخرجتها لكي تريح نفسك من هم التفكير وهم الصراع، إنني أغبطك لأني إذا أردت أن أعبر عن قناعاتي عن فلسفتي عن صراعي ليس لي غير ورقة وقلم أخط به صفحات من الصراع المستوطن في داخلي، إنني أفضح نفسي! أتعلم عندما أكتب فأنا أفضح نفسي! إن ما تخطه الأقلام وتجمعه الصفحات يسهل على الكثيرين فهمه وتفسيره واتهام كاتبه بالكفر والجحود! ولكن لوحة فنية تريح راسمها تحوي آلاف الأفكار الكائنة في داخله لو عرضتها أمام البشر جميعاً لما استطاع

أحد منهم أن يفسرها ويثبت تفسيره، فاللوحة الفنية تظل غامضة أبد الدهر لا يعرف مخارجها وطلاسمها سوى تلك اليد وذلك العقل الذي رسمها! إنني أغبطك فلو عبرت عما بداخلي فسأتهم اتهامات عديدة لأن مدلول الكلمات أبسط من مدلول الألوان! أريد أن أتكلم، أريد أن أخرج ما بداخلي من قناعات قد تكون تلك القناعات خاطئة وقد تكون صحيحة ولكن الأهم هو أن أخرجها حتى يستقر العقل وتهدأ العواطف، أريد أن أتكلم ولكني أخاف من ذلك التفسير الذي يأخذ جانباً ويدع الجانب الآخر، أخاف ولكني أحتاج لأن أتكلم!!

كان يتكلم وهو يحدق في وجه شاهين وكان الاضطراب والقلق مرسومين على صدغيه، بعد أن أنهى كلامه ظللنا ثلاثتنا صامتين إلى أن انقطع الصمت عندما اعتدل شاهين في جلسته رافعاً قدمه عن الأرض فصدر بذلك صوت زال به الصمت الكائن، أخذ شاهين كأساً من الماء وكان وجهه محمراً، مد الكأس لأحمد وكأنه أب ينظر إلى ولده الذي كبر وطال واشتد عوده بين يديه وقال:

- اشرب الماء وتكلم وتكلم وعبر وقل ولا تخجل ولا تخف فنحن لك يا أحمد..

شرب أحمد الكأس كاملاً وأخذ منديلاً ومسح به وجهه وعاد مرة أخرى إلى تأمل الوجود إلى الدنيا، إلى محور

الدنيا المتمثل الآن أمامه إلى الشارع، إلى شارع البرجوازية، إلى تلك السيارات الفارهة، إلى تلك الأوجه التي تمتلئ أعينها بنظرات عجيبة، إلى الواقع المتمثل أمامه... عاد بنظراته إلى الطاولة وبدأ يتلاعب بفنجان قهوته الذي انتهى أعاد الفنجان إلى مكانه، أخذ نفساً عميقاً ممزوجاً بنظرة طفل يستغرب إصغاء الوجود كله إليه! نظرة طفل يستعد للحديث ليثبت أنه أعظم من ألف رجل! نظرة طفل يهم بالحديث!

(10)

- آه يا حياتي! إن سعادتي قد تدحرجت كالكرة بين الشوارع تبحث عن مستقر، عن مكان تنام فيها ليلة هانئة، سعادتي منذ وعيت وشعرت بوجودي وهي تتدحرج بحثاً عن روح تفتح لها اليد والملجأ الحنون لأني من دون أم! لأني بلا قلب أنام تحت قدميه! لأني بلا ملجأ ألتجئ إليه عندما تطردني الدنيا! لأني وحيد وضائع ومشتت وتائه! لأني وجدت في واقع لم أختره! لأن حياتي قد قدرت لي ويجب أن أعيشها وأن أستمر في داخلها، من أجل ذلك ومن أجل أن أسيطر على روحي التي تريد أن تنفجر في داخلي يجب أن أعيش في عالم الخيال! يجب أن أتخيل حتى أجعل لوجودي وجوداً آخر! آهٍ يا حياتي! لكم تخليت عن أشياء كثيرة في هذه الحياة محاولاً أن أصل إلى مغاور أفكاري إلى تلك الحجرات التي تمتلئ في عالمها أسمى الأماني والآمال.. آه يا سعادتي!

إن لكل كائن صديقاً له في داخله، وأغلب البشر لا

يعرفون ولا يدركون أصدقاءهم الحقيقيين الموجودين في ذواتهم لأنهم لا يعرفون حتى الآن أنفسهم! قد يكون ذلك الصديق الكائن في داخل كل واحد منا هو الضمير: ذلك الإحساس الذي ينتابنا في لحظة غريبة قد تكون تلك اللحظة، لحظة لذة أو معصية أو خطأ تجعل من وجودها مادة ملائمة لانبثاق ذلك الصديق، مالي أرى آذاناً صمت! مالي أرى عيوناً أغمضت! مالي أرى وجوهاً قد كساها النوم منظراً! آهٍ يا حياتي! لماذا لا ينبثق ذلك الصديق إلا عندما نفعل الخطأ، أين هو قبل فعل الخطأ؟! لقد اقترب ذلك الضوء وسط العتمة فتوارت عن حياتي سعادتها! ألم تحن بعد ساعة خلاصي من هذه الدنيا! سحقاً لكل الثواني لكل ما يقاس به الزمن! سحقاً لأية فكرة تجوب أغواري تحارب معتقداتي تقتل إيماني! سحقاً كلمة يقولها اللسان ولكن العقل لا يعمل بما يقوله اللسان! هنا في هذه الأرض وتحت تلك السماء لا أم ولا أب ولا أهل حتى البحر قد سلب من هذه الأرض! فيا رباه إلى من أرمي همومي؟ على من أطرح تساؤلاتي؟ إنني مقيد بلا قيود مادية، إنني أعيش وأمشي وأتنفس مجبراً! هل آن لي الرحيل وأنا أشاهد تلك الطائرات المسافرة تلك البواخر المهاجرة! هيا، هيا، هيا.. صوت صداه ومصدره من داخلي، هيا إلى الموت! هيا إلى الفناء! آهٍ يا حلم حياتي، إنني أحاول أن أجعل لوجودي شخصية أحاول تكوين

شخصيتي مبتعداً عن موائد السعادة مقتحماً كل شقاء! السعادة خلقت لغيري! أحاول أن أتدارك في سريرتي كل ما له صلة بوجودي، حاولت أن أجعل الحرية الكاملة والمطلقة مبدئي ولكنني فشلت ولم أستطع أن أكون سارترياً وجودياً! إنني أشاهد السماء صافية نقية وزرقاء فتأسرني نظرة طفل ملائكي! لقد تعلمنا الكثير منذ الصغر، تعلمنا كيف نكتب وكيف نقرأ ولكنهم لم يعلمونا كيف نفكر! إنني وبعد أن تعلمت كيف أفكر أريد أن أجد حلاً لمأساتي كيف أتوقف عن التفكير؟ إن أسئلة تتراقص بشدة في داخلي تقتلني لأني لا أجد الإجابة لها! إن سؤالاً بسيطاً بلا إجابة أصعب عندي من الموت! إن سؤالاً ليس له إجابة يبقى علامة استفهام كبيرة تقتحم وجودي تقتلني تجعل النوم بعيداً عن عيني! كثيراً ما كنت أخرج إلى الصحراء، كانت نفسي تتوق أن أذهب في آخر الليل مبتعداً عن مسالك الضلال محاولاً أن أتدحرج على رمال ذهبية حارة! هل كانت إرادتي تريدني أن أفعل غير التدحرج على رمال ذهبية تحت سماء صافية وهواء نقي من كذب وحسد البشر؟! كثيراً ما كنت أكره الغيوم! أكرهها عندما تتجمع في السماء فتغيّب صفاء وجمال السماء! تحجب بوجودها ذلك الضوء الممتد بيني وبين السماء! إنني أنفر من تلك الغيوم لأنها تبعد عني تلك الحقيقة الصافية التي لا يعكرها أي شيء! إنني أتمنى أن أملك قوة تجعلني أشتتها وأبعدها لأنها

تحجب عني عالمكِ أيتها الأم! آهٍ يا حياتي إنكِ الرمز لي، إنكِ الصفاء بحد ذاته بل الخلود! كم أعشقكِ يا سماء! قد يكون ذلك الفراغ العاطفي الذي تشكلتُ من خلاله هو السبب في عشقي لتلك السماء الصافية التي أجدها بجانبي في أي وقت وأي مكان...

.. كثيراً ما رأيت من البشر من يجعل من الأقنعة نقاباً على وجهه الماكر يخفي به عكر المياه التي تحوي أعماقه! لكم حاولت ألا أرى البشر من خلال أوجههم ولا من خلال ما يعملون بل حقيقة الإنسان بما لا يقوله لك! لذلك أحاول أن أرى البشر من داخلهم أحاول أن أجد طريقاً سالكاً للدخول إلى سرائرهم وهذا السبب يجعلني أحتقر حتى مجرد التفكير بأن أتعامل مع البشر! كيف أتعامل وأجعل لوجودي وجوداً آخر في ذات أخرى؟ كيف أحقق معادلة الحياة الاجتماعية وحريتي تعني عكس ما أريد أن أحصل عليه معهم؟ إن الحرية أساسها أن تجعل لي حق الاختلاف معك، حق مناقشتك، حق إبداء رأي وإثباته.. إن الحرية هنا هي أن تكون فوضوياً! انظروا إلى تلك السيارة الفاخرة التي تعلو نغمات أغانيها وتزلزل الشارع! للأسف هي كذلك الحرية التي يرددونها في كل المجالس وفي كل المنابر! حرية الفوضى، حرية الهمجية! كيف أستطيع العيش في مجتمع يرى أن المختلف معه ضده، يرى أن ضده يعني عدوه؟! كيف

أخلق لنفسي الراحة ولو بالكلام في مجتمع تفسر فيه القيم والعادات على أهواء من يستفيد منها وخلالها!

عاشوا كما عاش آباء لهم سلفوا
وأورثوا الدين تقليداً كما وجدوا[32]

.. من أجل ذلك ومن أجل كرهي لنفسي لا أظهر لهم غير شقائي، غير تعاستي و أجعل من تلك الرمال الذهبية المتناثرة فوق جسدي غطاء يحجب بيني وبينهم معتقداتي وأفكاري! إنني أرى فيهم كل زوبعة تذهب فجأة لذلك لا أعيرهم أي اهتمام! إن هؤلاء الناس قد يسمعون كلامي في يوم من الأيام فيشفقون عليّ لما يطرأ لي من الخرافات في حين أني أهتف وأتغنى قائلاً لهم ولكل من يشفق عليّ: آهٍ يا حلم حياتي! في إحدى الليالي وبينما كنت أتدحرج على رمال الصحراء الذهبية محاولاً أن أجد ذاتي التي تشتتت وسط المعمعة المادية وسط المدينة! إذ بي ألتقي عجوزاً كبيرة السن تفترش هي وزوجها بساطاً أمام خيمتهما، جلست أتأمل ذلك المنظر الذي من خلاله نستطيع أن نفسر الحياة! نستطيع من خلاله أن نرى الوجه الحقيقي لهذه الدنيا، إنه الإيمان ذلك الشعور الداخلي تلك الطمأنينة التي لا يحول أمامها أي

(32) بيت لأبي العلاء المعري.

شيء، إن هذا المنظر وذلك التأمل يجعلني دائماً أقول وأنا وحيد لكل من يبغي المعرفة والفهم والإدراك العميق: إن إيماناً جازماً وحقيقياً وصلباً كإيمان تلك العجوز المريضة وسط الصحراء، وحيدة هي وبعلها، إن هذه المتناقضات هذه الإشكاليات: عجوز، صحراء، مرض، فقر، وحدة.. يقابلها في الجهة الأخرى: شاب، قصر، صحة، مال، أهل... أعود فأقول إن هذه الإشكاليات التي تمتلئ بها الدنيا وتجعلنا نعيش في تناقض مع كل شيء ستزول يوماً ما وستتبدد ويصبح الواقع حقيقة ويتلاشى الباطل والذل وتسود الفضيلة الكون أجمع، لا أتصور أن تلك العجوز البائسة لن يأتي لها يوم وينصفها القدر!!

.. قلت في سابق حديثي أو لنطلق عليه اعترافاتي أمام صديقيّ قلت: إن كل واحد منا يوجد بداخله صديق وقد ركزت على جانب الخير في ذلك الصديق الموجود والكائن في داخلنا، ولكن ذلك الصديق قد يكون وحشاً عنيفاً قاسياً يجعل الخير الموجود في أرواحنا بلا أي قيمة! إنه يتحول إلى وحش يأكل ولا يشبع! إن هذا التحليل يجعلنا نفسر واقع كثير من البشر الذين يتلذذون بقتل الإنسان والقتل لديهم ليس برمي الرصاص وإسالة الدماء ولكن القتل في معتقداتهم هو إبقاء الإنسان حياً يتعذب ليصل هؤلاء المتلذذون إلى مرحلة النشوة وإشباع رغبات العنف والكره الموجود في داخلهم! إن

البعوضة تلك الحشرة الصغيرة جداً التي نبعدها عن أجسادنا بهواء من الفم تمتص جزءاً لا يذكر من دمائنا. إننا نقتلها نستخدم كل الطرق في إبعادها وقتلها فما بالنا نستسلم لمن يمتص كل دمائنا ويبادلنا التحية والابتسامة الماكرة! إنه لشرف عظيم ومجد تليد وتاريخ يشرف أن يقتلك عدوك لا أن يبتسم في وجهك! أتعلم معنى الابتسامة هنا؟! إنها تعني الاحتقار والذل والمهانة لك أيها الذليل أيها المستسلم! .. صديقيّ دقائق اعذراني فيها أريد الذهاب لقضاء الحاجة!!

قال كذلك أحمد فجأة وتلاشى بسرعة وكأنه وميض برق خاطف في ليلة ربيعية... جلست أثناء غياب أحمد أتأمل شاهين محاولاً بذلك التأمل أن أجد لسؤال كان يسيطر على عقلي إجابة تشفي لهيب الاستفهام!!

هل سلب العقل والتفكير من شاهين ولم يستطع أن يرد أو يقاوم اعترافات أحمد أم ماذا حصل؟!

سؤال كبير جداً لم أحاول أن أطرحه مباشرة على شاهين ولم أحاول وأنا أتأمل ذلك الوجه الملائكي قول أي شيء! كنت مؤمناً أنه يجب عليّ أن أجعل من الدقائق القادمة حلاً لذلك السؤال الكبير، قد يكون صمت شاهين أمام أحمد هو محاولة من شاهين لفهم صديقه أكثر وقد يكون غير ذلك، ولكن الشيء الذي تيقنت منه خلال ذلك اللقاء هو أن شاهين

يمثل أمام عظمة أحمد نموذج الاستغراب! إنه مستغرب تفسيرات أحمد واعترافات أحمد ونجوى أحمد!!

.. خلال غياب أحمد كان شاهين لا يفعل غير شرب الماء وتأمل ورقة كانت بيده، تلك الورقة التي قرأ منها قصيدة أمل دنقل، هل كانت تلك الورقة تحوي غير تلك القصيدة أم أن هذا التأمل الشاهيني ليس إلا محاولة للبعد عن نظراتي؟ فلو التقت النظرات لبدأ اللسان يسأل ويناقش ويتكلم، لأني أثق أن في كل واحد منا الكثير من علامات الاستفهام التي انبثقت خلال الدقائق الماضية التي حوت العديد من المفاجآت الفكرية التي يعجز العقل عن تصديقها فكيف بمحاولة فهمها! حيث أن تصديق أية فكرة قد يكون سهلاً جداً ولكن فهمها هو العلة والصعوبة بحد ذاتها!

.. استمر الصمت على الطاولة المستديرة إلى أن عاد أحمد وبسرعة خاطفة جلس واتجه بنظراته إليّ وقال:

- اعترفا ماذا كنتما تعملان في غيابي؟

رد شاهين بكل هدوء رسام قائلاً:

- لا شيء سوى الصمت، وهل هناك أجمل من الصمت!

عاد الصمت إلى الطاولة برهة من الزمن وفجأة قرّب أحمد كرسيه إلى الطاولة وتلاشى الصمت عندما تكلم أحمد:

- هناك أجمل من الصمت، بل أجمل من كل شيء!!

بعد أن قال جملته الغريبة ابتعد بكرسيه عن الطاولة قليلاً وكأنه رمى شيئاً وهرب! نظرنا إلية منتظرين الإجابة عن ذلك السؤال المحير! تُرى ما هو الشيء الذي يدور في عقل ذلك الفيلسوف، ذلك الشيء الذي وصفه بأنه أجمل من كل شيء؟!

التفت أحمد إلى الشارع وكأن الشارع يعني الهروب من شيء ما، وبسرعة عاد إلى الطاولة وشبك أصابعه وبدأ يتكلم بكل ثقة قائلاً:

- نعم هنالك شيء أجمل من الصمت وأجمل من كل شيء إنه الحمّام!!

- ماذا تقول الحمام!! بصوتٍ واحد قلت وشاهين كذلك..

(11)

- نعم إنه الحمام! إنه أجمل من كل شيء! إنه المكان الأهم والأمتع على أرض الوجود! إنه ذلك المكان الذي يمثل أعلى درجات الانعزال الفكري والجسدي، إنه المكان الفلسفي الأهم! إن العقل في ذلك المكان يكون عقل فيلسوف بكل تجرد الفيلسوف من الواقع الذاتي! تبدأ الأفكار الفلسفية باقتحام عقل ذلك الإنسان أثناء وجوده في الحمّام ويبدأ العقل بمحاولة الفهم أولاً لتلك الأفكار ومن ثم محاولة تفسيرها وخلق جو التفلسف ومن ثم محاولة بناء خارطة جديدة للوجود! كل ذلك يحصل للإنسان فقط وهو في الحمّام! ألا يكفي الحمّام فخراً أن الكثير من البشر تكون عقولهم مقفلة ولا تفكر ولا تشغل خلايا التفكير إلا في الحمّام! ألا يكفي الحمّام فخراً أنه يجعل عقل الإنسان مفكراً ومبدعاً ومتفلسفاً وهو يعيش في أحضانه! ما هو السر الذي يملكه ذلك المكان الذي يجعله يحرك عقولاً تنام طويلاً ولا تستيقظ إلا في الحمّام! أين علماء النفس ليبحثوا عن إجابة

لذلك التساؤل! إنني أعشق ليس الحمام بذاته وإنما أعشق ذلك الجو العجيب الذي يخلقه في عقولنا!!

قال كذلك أحمد وعاد بظهره للخلف ملصقاً إياه بالكرسي، ووضع رجلاً على الأخرى بكل كبرياء وتبختر فيلسوف!

رد شاهين والابتسامة من حديث صديقه تحتل شفتيه فقال:

- لقد أقنعتني يا فيلسوف ولكن قل لي ما هي الأفكار التي غزت عقلك وأنت هنالك في ذلك المكان الأهم!؟

اعتدل أحمد في جلسته وأخذ نفساً عميقاً ومد يده واختطف من أمامي عصير الليمون متبوعة بغمزة وشرب جزء يسير من العصير ومن ثم أعاده أمامي وابتسم ابتسامة مملوءة بالاستفهامات، وأعاد الكرسي إلى الخلف ومد ظهره إلى الأمام وفجأة تغيرت نظراته فأصبحت أكثر شراسة وعمقاً! هبط حاجباه وكأنهما استقرا داخل عينيه وشبك يديه وقال بصوت يتسرب للوجود كالمطر!

- فيثاغورس حبيبي! الحكيم فيثاغورس، إنه أول إنسان في التاريخ يصف نفسه بأنه "فيلسوف" ولد ذلك الأعجوبة في ساموس قبل الميلاد في سنة 580 وقيل 572.. إنه نبراس الفلاسفة الأعظم حيث يُروى عن ذلك الحكيم قصة تكتب بماء الذهب: يقال إنّ فيثاغورس اجتمع ذات مرة في مدينة

اسمها (بيلوبونيز) بأحد أصدقائه فسأله ذلك الصديق: ماذا تصنع في هذا المكان؟ فرد عليه ذلك الحكيم: لا أعمل شيئاً أبداً سوى أني فيلسوف وحسب! فقال له الصديق: ماذا تعني بكلمة فيلسوف؟ فأجابه ذلك الفيلسوف العبقري قائلاً: إن حياتنا بصفة عامة تشبه إلى حد كبير اجتماعات الألعاب الأولمبية حيث تجد في هذه الاجتماعات أناساً يبحثون عن الفوز والبطولة والمجد وآخرين يبحثون عن المال بالبيع والشراء، وآخرين لا هدف لهم كسابقيهم بل غايتهم أنبل وأسمى يحضر أحدهم الاجتماع ليمتع النفس بجمال الألعاب ليس إلا! وحياتنا يا صديقي هي صورة متجسدة لذلك الاجتماع، أما القسم الثالث من أولئك فهم نفر يذم ويكره شهوات الدنيا ويتلفت بكل قواه العقلية لمعرفة حقيقة الطبيعة وأسرار الكون، وهذا النفر الأخير يا صديقي هم الذين نسميهم بالفلاسفة..

.. لقد أسس فيثاغورس جماعة تسمي نفسها (الجماعة الفيثاغورسية) وكانت تلك الجماعة دائماً تردد: "نحن في هذا العالم غرباء والجسم مقبرة الروح، ومع ذلك فلا يجوز لأحد منا أن يلتمس الفرار بالانتحار لأننا ملك الله وهو راعينا وما لم تشأ لنا إرادته الفرار فلا حق لنا في تهيئته لأنفسنا بأنفسنا، والناس في هذه الحياة ثلاثة ضروب تقابل الضروب الثلاثة من الناس الذين يفدون إلى الألعاب

الأولمبية.. وخير الناس جميعاً هم أولئك الذين جاؤوا ينظرون إلى ما يجري وحسبهم ذلك، وعلى هذا فأعلى درجات التطهير النفسي هي العلم الذي لا يجعل الهوى أساسه، وأن من يستطيع تكريس نفسه لذلك فهو الفيلسوف الحق الذي فك الأغلال التي تربطه بعجلة الميلاد..»(33)

وقد حرّم فيثاغروس على أتباعه أكل اللحوم والسمك والفول والإكثار من شرب الماء! وكان فيثاغورس يعيش على الخبز والعدس ولم يشرب الخمر بالنهار قط ولم يعشق فكان الحب في جزيرة وهو في جزيرة أخرى! وكانت تلك الجماعة الغريبة تقول بماهية كل شيء في هذا العالم وتزرع في منتسبيها فكرة الانسجام والوحدة والوجود المشترك وتربطهم رابطة العمل الواحد وتزرع في أتباعها أن المذهب وسيلة وغاية معاً. هذه الجماعة التي أسسها الفيلسوف فيثاغورس مهندس المثلث القائم الزاوية وواضع القوانين الرياضية قد وضع لكل من يريد الدخول في غمار جماعته قانوناً للانخراط ومن ثم الاستمرار في هذه الجماعة وهو قانون (الصمت الفيثاغوري) وهذا القانون ينص على أن الطالب عليه أن يتقبل

---

(33) كلام نقله لنا الباحث برنت. راجع كتاب (فيثاغورس) ص9، 14، 15 منشورات دار ومكتبة الهلال. بيروت الطبعة الأولى 1981 م. تأليف الدكتور: مصطفى غالب.

الأوامر من غير سؤال أو مناقشة لمدة خمس سنوات وبعد تلك المدة يحق له أن يرى فيثاغورس ويدرس عليه! وكان فيثاغورس يؤمن بتناسخ الأرواح وبقرابة الناس بالحيوان!!

- ماذا تقول! قرابة الناس بالحيوانات!! ما هذا الهُراء يا فيثاغورس! بشر وحيوانات كيف يحصل ذلك!؟

كذلك قال شاهين والاستغراب من هذه القرابة قد ملأ تفاصيل وجهه المتعب!

رد أحمد فقال:

- إن الجماعة الفيثاغورية تؤمن على حسب فهمها ومنظورها الذاتي أن النفس بعد الموت تتعرض للتطهير في الجحيم ثم تعود بعدها إلى الأرض وتدخل تلك الروح في جسد جديد ثم جسد آخر وعبر سلسلة من التناسخ لا تنتهي وقد يكون أحد هذه الأجساد جسد حيوان ولهذا تحصل القرابة! ولا تنتهي هذه السلسلة من تناسخ الروح الواحدة إلا إذا كان صاحبها قد عاش حياة فاضلة بعيدة عن الشرور والشهوات منزهة عن الرذائل والمعاصي ففي تلك الحالة لا يتم تناسخ هذه الروح الفاضلة المطهرة من كل دنس وشهوة!

.. وعند الحديث عن فيثاغورس تأخذني الأفكار والخواطر لأتحدث عن أكسانوفان صديق فيثاغورس الذي يقال إنه أكبر من لعب دوراً هاماً في حياة فيثاغورس ويقال

أيضاً إن أكسانوفان عندما مرت على مسامعه حكاية فيثاغورس وهي أنه مر ذات مرة برجل يضرب كلباً فأخذته الشفقة "أي فيثاغورس" فصاح وهو يبكي: أمسك يا رجل عن ضربه إنها نفس صديق لي وقد عرفته من صوته!!"(34) استغرب أكسانوفان تلك الأفكار التناسخية الغبية التي أتى بها فيثاغورس فتركه كلياً وانصرف إلى حياته العقلية مفكراً ومساهماً في إيجاد بعض النظريات الفلسفية والرياضية وهو الذي بشر بالمذهب الميتافيزيقي ويعتبر هو والفيلسوف بارمنيدس مؤسّسي مذهب الوجود..

- مذهب الوجود، الوجودية! الوجوديون! مصطلحات نسمعها ونقرأها كثيراً في الروايات وفي المناقشات وللأسف الأغلب منا لا يعرف معناها ومحتواها! قبل أن تقول أي شيء تحدث عن الوجودية!

قال كذلك شاهين وأعاد ظهره إلى الخلف منتظراً الإجابة..

- أتريد أن تعرف معنى الوجودية ومحتواها؟ هذا السؤال يا صديقي يحتاج أكثر من لقاء لأجل الإجابة عنه، فالمذهب

---

(34) للمزيد من المعلومات عن فيثاغورس وأكسانوفان أحيل القارئ الكريم إلى كتاب (فيثاغورس) فهو كتاب شامل ومفيد وقد ساعدني كثيراً في إعداد هذا الجزء من الرواية بتصرف. منشورات دار ومكتبة الهلال. بيروت الطبعة الأولى، 1981م، تأليف الدكتور: مصطفى غالب.

الوجودي"الميتافيزيقي"هو أقدم المذاهب الفلسفية التي عرفتها الفلسفة..

قال كذلك أحمد وأخذ كأساً من الماء ووضعه قريباً منه وعاد إلى تأمل السماء مرة أخرى وكأنه يرسل رسالة إلى الوجود أجمع مفادها: (لقد تأثرت كثيراً بالوجودية) وفجأة يعود بنظراته إلى الطاولة، إلى طاولة الفلاسفة ويكمل حديثه بصوت حزين قائلاً:

- هل الإنسان ذلك الكائن الضعيف جداً، ذلك الموجود هو الذي يملك إمكانية صنع التاريخ؟ إن هذا السؤال هو مفترق الطرق لدى الكثير من الفلاسفة، فالبعض قال بأن التاريخ لم يوجد ولم يبدأ بالوجود إلا عندما ظهر الإنسان! لقد أحدث هذا السؤال التخبط والاستفهامات في حياة البشر وهذا أدى إلى التناقض والتناقض دائماً ما يؤدي إلى ازدياد حجم السؤال!! إن هذا التناقض المحير أدى إلى خروج مفهوم الوجود والعدم، فنحن إزاء سؤال أدى بنا إلى خروج اتجاه جديد في الفلسفة ألا وهو الوجودية، والوجودية تتفرع إلى فرعين رئيسيين هما: الوجودية الدينية التي يمثلها: "ياسبيرز" و"مرسيل" والفرع الآخر هو الوجودية الإلحادية التي يجسدها "هايدجر" و"جان بول سارتر" وهذا الأخير السارتري عادة ما تطلق الوجودية فتنسب إليه وذلك لشهرته وقرب زمنه، والوجودية تعني أنك موجود وقد وجدت وهذا

الوجود لم يزد على سائر الأشياء الموجودة حولك كالرمل والماء وغير ذلك ولكن الفرق بينك أيها الإنسان الموجود وبين سائر الأشياء الأخرى أن تلك الأشياء تظل أبد الدهر مجرد موجودات لا تزيد على ذلك أما أنت أيها الإنسان فإنك تأخذ وجودك بعقلك أو بيدك أو بأي مادية أخرى فتحاول أن تستخرج من هذا الوجود جوهرك، أي أن الوجود سبق الماهية! وإذا أردنا أن نعبر عن الوجودية لنضرب مثالاً على ذلك: فالسيارة حينما يتم صنعها فإن هنالك ماهية وجوهراً محدداً يجب أن تكون لها بعد الانتهاء منها، وهذه الشروط الموضوعة من قبل صانع السيارة التي تسمى الماهية هي ما يجب أن تكون عليه السيارة عند صنعها والانتهاء منها هذا بالنسبة للسيارة، أما الإنسان عند الوجوديين فليس له ماهية محددة تسبق وجوده وإنما هو الذي يحدد ماهيته! فالوجود يسبق الماهية! أي أن الإنسان بصفة عامة يحيا خمسين سنة أو سبعين سنة ونحن نعرفه في السنة الأولى من عمره شيئاً موجوداً لا أكثر من ذلك ولكن بعد فترة من الزمن نجد أن هذا الكائن الموجود قد بدأت تظهر عليه ماهيته وجوهره وخلاصته فأصبح لذلك الإنسان دلالة فإما أن يكون وزيراً أو مؤلفاً أو ضابطاً! وهذا هو ما نطلق عليه الجوهر الذي يأتي بعد الوجود، فالإنسان منذ أن يخلق يحاول أن يحقق معنى لوجوده وذلك بخلق ماهيته وخلق الإمكانيات

وهو بذلك يعيش حالة من الحرية أي أنه حر وعادة ما يكون الحر قلقاً! فالحرية لدى الوجوديين تعني القلق والخوف لأنه يختار إمكانية واحدة أمام عدة إمكانيات ويتحمل مسؤولية ذلك الاختيار، فالإنسان لدى الوجوديين لا يصح وجوده ولا يتحقق إلا عندما يكون وجد وحصلت له الماهية بالشكل الذي يوجد نفسه عليه! وبما أن الوجود قد سبق الجوهر فالإنسان لدى الوجوديين مسؤول عما هو كائن والإنسان بهذه المسؤولية يكون مسؤولاً بوجوده الفردي عن وجود جميع الناس! ومعنى ذلك أن الرجل عندما يختار نفسه فإنما هو قد اختار الإنسان كله! فالإنسان إذاً في المفهوم الوجودي السارتري هو الذي يحدد جوهره بمحض حريته وهذا هو الفرق الأساسي بين فلسفة "كانت" وبين الوجوديين عامة..

وسارتر أشهر الوجوديين ينكر وجود قانون خارجي يفرض نفسه على التاريخ البشري! وكذلك ينفي سارتر أي وجود لأي كائن علوي يراقب ويفرض العلاقات البشرية القائمة بين الناس!!

- نستخلص إذاً أن الوجودية قد يكون من أهم مبادئها الحرية الفردية، تلك الحرية التي تعني الحرية المطلقة لكل فئات البشر أي أن حريتي هي بالمعنى الوجودي حرية لكل البشر وهذا المبدأ هو عكس ما نادت به الماركسية!

قال كذلك شاهين والحماس يحتل كل تفاصيل وجوده وماهيته!!

بدأ أحمد يلتفت يميناً وشمالاً وكأنه قد عمِل عملاً غير مشروع! ألى هذا الحد يخشى الناس التحدث عن الماركسية!؟ كان هذا الاستفهام قد غزا عقلي وأنا أتأمل ذلك الفيلسوف! عاد بنظراته إلى شاهين ومسح عينه اليمنى وبدأ يستعد للحديث عن الماركسية...

(12)

إن التحدث عن الفوارق بين الماركسية والوجودية قد يجعلنا ندخل في مسائل فلسفية تتعدى حتى تلك الفلسفتين، لكن بطل الوجودية الذي تنسب الوجودية عادة إليه "جان بول سارتر" قد اتهم في إحدى مراحل نضاله الفلسفي أنه شيوعي ماركسي وقد نفى هذا الوصف وذكر بأنه وجودي وله فلسفة خاصة به وهذا الاتهام أدى به إلى رفض جائزة نوبل!

.. إن الوجودية يا صديقي تحاول بكل الطرق المتاحة أن تبحث عن الإنسان أينما وجد فنلاحظ أنها تهتم بدراسة عمله وعلاقاته العائلية وكذلك الوظيفية وعقده النفسية وصلاته الاجتماعية وحالته المادية وظروفه الاقتصادية والمعاشية فهي بذلك تحاول أن تغوص في داخل ذات الفرد لتتعرف على غايته وجوهره وماهيته، فالوجودية ترى أن إدراكنا للآخر إنما يتحقق دائماً وأبداً من خلال إدراكنا لغايات ذلك الآخر، فالإنسان الوجودي هو الذي يعمل ويجتهد ذاتياً وفردياً ولكن قد زرع في داخله أنه يعمل لكل البشر والموجودات، بينما

نلاحظ أن الماركسية تقتصر على تفسير الإنسان فقط بالرجوع إلى حالته الطبقية ووضعه الاجتماعي وتغيب انفعالاته النفسية وصلاته العائلية. لذلك فالماركسية هي فلسفة اقتصادية بالدرجة الأولى، وهذا هو من الأسباب الرئيسة التي جعلت من هذه الفلسفة واقعاً نعيش في محيطه بعكس أغلب الفلسفات التي لا نراها ولا نشاهدها إلا في المجلدات التي قد تكون امتلأت غباراً! إن الماركسية يا صديقيّ هي الفلسفة التي نادى بها كارل ماركس وفريدريك أنجلس وهي الأيديولوجيا[35] والسياسة القائمة على اتحاد العمال في كل العالم ويكفي ما قاله الاثنان في البيان الشيوعي، حيث قالا كلمات أصبحت على مر التاريخ شعار الشيوعية الأبدي: (يا عمال العالم اتحدوا) وتقوم هذه كتطبيق عملي على طبقة البروليتاريا!

قال كذلك أحمد وعاد يتأمل الشارع ويتأمل تلك الأعداد الكبيرة من الشباب بل من البروليتاريا!

أُصيب شاهين بالذهول من كلمات أحمد، ومن عقل

(35) الايديولوجيا: عبارة عن مجموعة من المفاهيم والمعتقدات والأفكار التي تشكل نهجاً معيناً نطلق عليه ايديولجيا الفلسفة الفلانية، فمثلاً عندما نقول إن الحزب الفلاني أفكاره ومعتقداته ومبادئه وسياساته كذا وكذا فنحن نتكلم عن إيديولوجيا الحزب.

ذلك الفيلسوف.. حاول شاهين أن يكون له دور في هذه المناقشة الفلسفية وإذ به يُدخل نفسه في معمعة الشيوعية عندما قال:

- ماذا تعني كلمة البروليتاريا؟!

أخذ أحمد كأساً من الماء وشربه دفعة واحدة ووضع يديه على الطاولة واقترب بجسده وبدأ يتحدث فقال:

- البروليتاريا هي الطبقة العاملة في المجتمع الرأسمالي التي تعطى الأجر وهي مضطرة لبيع ما أنتجته إلى مالكي وسائل الإنتاج الرأسمالي، والبروليتاريا هي الطبقة الوحيدة الأعلى بين طبقات العمال الشغيلة في المجتمع الرأسمالي بحكم امتلاكها درجه عالية من الوعي الطبقي بمكانتها وكذلك ثقافتها العالية بين العمال وهي الأقرب لأصحاب الثروات الرأسماليين. إذن هي حلقة الوصل بين مالكي الأموال الرأسماليين والعمال المشتغلين وهذه الطبقة إذا حررت نفسها فهي تحرر كل فئات العمال الكادحين. والبروليتاريا في نظر ماركس وأنجلس ومن بعدهما لينين هي الوحيدة القادرة على تنفيذ وتطبيق الرسالة العظمى القائمة على خلق المجتمع الاشتراكي الشيوعي، وكان ظهور الماركسية بشكل عام وهذه الطبقة بشكل خاص رد فعل عملياً وفلسفياً على تناقضات واستفهامات المجتمع الرأسمالي وظهورها كان تعبيراً عن المطالب الجذرية للحركة العمالية.. إن أي تنظيم عمالي أو

سياسي يحتاج إلى أساس ثوري ومنهج عملي يستطيع من خلاله أن يبدأ بالانطلاق في الثورة، وهذا يؤكد أن الماركسية كمذهب فلسفي قد قدمت للبروليتاريا النظرية الاشتراكية التي مهدت الطريق لهذه الحركة لبدء التحرر من براثن واستغلال النظام الرأسمالي وهذا بدوره سيقود إلى انتصار الشيوعية، إن مولد هذه الطبقة لم يأتِ صدفة وإنما كان نتيجة عملية للانحلال والتفسخ في المجتمع الإقطاعي[36] وظهور المجتمع الاستغلالي الرأسمالي. ونلاحظ أن الظهور الأول لهذه الطبقة في أوروبا وذلك عندما تم انتزاع الأراضي وأدى ذلك إلى خراب الفلاحين من قبل الرأسمالية، وبما أن لكل سبب مسبباً ولكل قوة هنالك قوة مضادة لها فإن ظهور الرأسمالية الاستغلالية أدى إلىَ خراب البرجوازية[37] الصغيرة في القرية والريف مثلما أدى إلى زيادة ثراء وفحش البرجوازية الاستغلالية في المدينة! إن البرجوازية الصغيرة الموجودة في

---

(36) المجتمع الإقطاعي: هو مجتمع استغلالي، حيث تكون وسيلة الإنتاج الأساسية (الأرض) بيد شخص واحد وملكه ويعمل الفلاحون في هذه الأرض، أي في أرض الإقطاعي.

(37) المجتمع البرجوازي: هو ذلك المجتمع من الرأسماليين الذين يملكون كل وسائل الإنتاج ويزيد دخلهم من خلال استغلال العمال الشغيلة، أما بالنسبة للبرجوازية الصغيرة: فهي طبقة تتوسط البرجوازيين الرأسماليين والبروليتاريا.

الريف هي التي غذت وأمدت البروليتاريا بصفوف من المناضلين الميدانيين فهي أحد أسباب قوة وبقاء البروليتاريا صامدة أمام وحشية الرأسمالية الاستغلالية!

وفجأة يصمت أحمد ويشعل سيجارة ويمتصها امتصاص رجل يفكر كثيراً، وضع السيجارة على الطاولة وأردف فيلسوف التحلية قائلاً:

- إن من يقرأ مجلدات وكتب الماركسيين يرى أنهم من أشد المعارضين للمذاهب المثالية[38] تلك المذاهب التي ترى أن تاريخ الفلسفة عملية ناتجة عن تطور الأفكار واستكمال فهم ودراسة الأفكار التي توقف عندها الفلاسفة السابقون ويحصل هذا التطور بنظر المثاليين بمعزل عن الاهتمام بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي، بينما نلاحظ أن الفكر الماركسي يرى أن أي تطور لأي فكر فلسفي لا يتم إلا بتطور العلاقات الاجتماعية والاقتصادية التي يتشكل منها ذلك المجتمع. . وينادي أتباع الماركسية الشيوعية أن نجعل من الفلسفة واقعاً للمجتمع يعيشه ويبني من خلاله نظامه الاقتصادي والاجتماعي وهذا الشيء لا يتم في نظرهم إلا

---

(38) المثالية: هي فلسفة تقوم ضد العلم وترى أن الروح تسبق المادة. راجع كتاب (القاموس السياسي)، ص199، 200، إعداد وترجمة/عبدالرزاق الصافي. الطبعة الثالثة 1978 دار الفارابي. تأليف: ب. ن. بونوماريوف.

باعتناق الفكر الاشتراكي وتطبيقه! ويتضح ذلك برؤية كارل ماركس الذي ينادي دائماً "بأن تطور الفلسفة سوف يؤدي لا محالة إلى تحول النظر إلى عمل والفكر إلى ممارسة"[39]

قال شاهين مقاطعاً استرسال أحمد وكأنه يريد أن يزيح حملاً ثقيلاً في عقله:

- إن الماركسية من خلال كلامك السابق تهتم اهتماماً بالغاً بمشكلة الصراع الطبقي بين فئات المجتمع.

رد أحمد وقد ارتسم على محياه الإعجاب بذاته!

- صدقت يا شاهين ففي البيان الشيوعي كتب ماركس وأنجلس ".. عندما يزول تناحر الطبقات في قلب كل أمة يزول في الوقت نفسه العداء والحقد بين الأمم.." إن مؤسّسي الشيوعية العلمية كارل ماركس وأنجلس أثبتا أن الصراع الحاصل في المجتمع الرأسمالي ذلك الصراع الحاصل بين طبقات ذلك المجتمع هو صراع قد تستخدم فيه النظريات أحياناً سوف يؤدي حتماً إلى انتصار البروليتاريا وينتج عنه كما نادى الاثنان إلى تحطيم مكانة الدولة البرجوازية وإقامة دكتاتورية البروليتاريا، أي أن البروليتاريا

(39) راجع كتاب (موجز تاريخ الفلسفة)، ص405، تأليف/ جماعة من الأساتذة السوفيات، ترجمة وتقديم: الدكتور توفيق سلوم. دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، 1989م.

هي التي تحكم! إن الماركسية تنادي ومن خلال الاشتراكية الشيوعية أن الشعب هو الحاكم وكذلك تنادي بتوزيع كل ثروات المجتمع على كل الشعب بالتساوي، ولكن هل تستطيع أن تعمل كذلك الماركسية!؟ إن أي فكر فلسفي أو مناداة بتطبيق فكرة معينة على أرض الواقع لا تحصل إلا برجال قد خلقوا لأجل ذلك ومن هنا انبثق زعيم الثورة الشيوعية فلاديمير إيليتش لينين...

- فلاديمير إيليتش لينين قائد الثورة الشيوعية في روسيا والعالم كله!

قال كذلك شاهين منتظراً من أحمد أن يكمل سرد الحكاية! حكاية من حكايا زمان!

ظل أحمد صامتاً ثواني معدودة، انتظرت وشاهين أن يكمل تلك الحكاية بل إن شارع البرجوازية قد وقف كله ينتظر سرد الحكاية! وبعد فترة بسيطة من الصمت أكمل أحمد قائلاً:

- نستطيع أن نقول بكل تجرد إن لينين هو الفكر الماركسي للقرن العشرين لقد طور لينين الماركسية وجعل منها ثورة وأخرجها من الأوراق ونادى بالنضال الثوري للطبقة العاملة والفئات المغلوب على أمرها في كل بلدان العالم.. نعم لقد طور الماركسية..

".. إننا لا ننظر إلى نظرية ماركس على أنها شيء نهائي لا يمس وإنما نعتقد على العكس، إنها لم ترسِ سوى حجر الزاوية لعلم، ينبغي على الاشتراكيين دفعه وتطويره إلى الأمام وفي كل الاتجاهات، إذا كانوا لا يريدون التخلف عن ركب الحياة. كما نرى أن على الاشتراكيين الروس، بوجه خاص، أن يقوموا بمعالجة مستقلة لنظرية ماركس، ذلك أن هذه النظرية لا تقدم سوى منطلقات توجيهية عامة، تطبق على انكلترا بشكل يختلف عنه في فرنسا، وعلى فرنسا عنه في ألمانيا، وفي ألمانيا عنه في روسيا.."[40]

.. إنه فيلسوف الماركسية العملي فقد استطاع أن يكمل ما بدأه مؤسسا الماركسية كارل ماركس وأنجلس، وكذلك استطاع الإجابة عن كل الأسئلة الفلسفية التي طرحتها الثورة الجديدة في العلوم الطبيعية، كان هذا الثوري يهتم اهتماماً منقطع النظير بالربط بين الوجود الاجتماعي وبين الوعي الاجتماعي فالأفكار تلعب دوراً مهماً وحاسماً ومؤثراً في

(40) راجع كتاب (لينين المؤلفات الكاملة، المجلد 4، ص184) وكذلك راجع كتاب (موجز تاريخ الفلسفة)، ص 556، تأليف/ جماعة من الأساتذة السوفيات، ترجمة وتقديم: الدكتور توفيق سلوم. دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، 1989م.

حياة المجتمع لذلك يجب أن يزرع في الفئة العاملة الوعي بما لها وبما عليها وبما ينتظرها من مهمات ونضال سيؤدي إلى تحويل المجتمع الرأسمالي إلى اشتراكي، ويكفي هذا الفيلسوف الثوري فخراً أنه أخذ النظرية الماركسية وعمل على تطويرها وجعلها دولة بحد ذاتها، أي أنه قام بتحويل النظريات والمجلدات إلى واقع يعيشه البشر إلى دولة شيوعية اشتراكية، وهذا بالفعل ما حدث عندما بدأت الثورات الاشتراكية في العالم والتي من أهمها ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى عام 1917م والتي منها انبثق الاتحاد السوفياتي الاشتراكي الشيوعي.

تدخل شاهين قائلاً وقد ازداد حماسة من حديث أحمد:

- هل هنالك غير لينين قد ساعد على تقدم الاشتراكية وتطورها وتفسير الظواهر العلمية والاجتماعية التي لم تكن موجودة في حياة كارل ماركس وأنجلس؟

قال فيلسوف الرياض مجيباً:

- نعم لقد كان هنالك الكثير ممن حملوا لواء الماركسية فكرياً وعملياً، فالفلسفة الماركسية كانت تحتاج في ذلك الزمان أي في تلك الأزمنة التي تطور فيها الفكر الإنساني وازداد الإنتاج إلى فيلسوف يحمل لواءها ويطورها وهذا ما عمل عليه الفيلسوف الماركسي الروسي: جيورجي بليخانوف الذي حمل لواء الماركسية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية

القرن العشرين ولأجل التاريخ فإنه يجب أن نؤكد على أنه "من المتعذر على المرء أن يصبح شيوعياً واعياً، شيوعياً حقيقياً، دون أن يدرس، أجل أن يدرس! كل ما كتبه بليخانوف في الفلسفة، لأنه أفضل ما في الأدبيات الماركسية العالمية كافة"[41]... إن الفكر الماركسي والثورة الشيوعية التي غزت العالم وكذلك النضال من أجل حرية العمال الكادحين و لأجل قتل الفكر الرأسمالي كل تلك الأشياء قد أمدت المجتمع العالمي بوجه عام والمجتمع العمالي بوجه خاص بنتاج ثقافي شعري وأدبي كثير ويكفي ذلك الشاعر الروسي الثوري ألكسندر بلوك الذي سطر ملاحم من أجل الثورة الماركسية!

هتف الشاعر شاهين فرحاً ومنتصراً لأن أصدقاءه الشعراء لم ينسهم أحمد قائلاً:

---

(41) هذه جملة كتبها لينين عام 1921 م. راجع لينين المؤلفات الكاملة، المجلد42، ص290 وكذلك راجع كتاب (موجز تاريخ الفلسفة)، ص 503، تأليف/جماعة من الأساتذة السوفيات، ترجمة وتقديم: الدكتور توفيق سلوم. دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، 1989م.. من أشهر مؤلفات بليخانوف التي أثنى عليها لينين كتاب (تطور النظرة الواحدية إلى التاريخ) عام 1895م، وهذا الكتاب يقول عنه لينين إنه سبب تربية جيل كامل من الماركسيين الروس.

- ألكسندر بلوك.. شاعر الثورة! هل يستحق ذلك الوصف؟ أسمعني، أسمعني شعراً له..

ابتسم أحمد من ردة فعل شاهين، ابتسامة الرضا، ابتسامة تعلن أنه يقدر تلك العاطفة الثائرة في داخل الشاعر شاهين.. وبدأ أحمد يسمعنا ويسمع الوجود كله رسالة إلى عامل[42]..

ألصقت بالأرض أذني
وكتمت صرخة العذاب
وأنت بالأنين الأبح
تعذب روحك في الظلام

ألا فلتنهض، ولتشتغل، ولتحرق!
ألا فلترفع مطرقتك الراسخة
كي يشع البرق ويمزق
حجب الظلام الصماء

---

(42) كُتبت في 3 يونيو 1907 وهو اليوم الذي حُل فيه مجلس الدوما وتحول النظام القيصري إلى الإرهاب ضد الثورة الروسية الأولى (1905-1907م)، ولهذه القصيدة اسم آخر (إلى عامل) راجع كتاب (الكسندر بلوك -مختارات شعرية) ص 169، 170 ترجمة الدكتور: أبو بكر يوسف. دار رادوغا، 1985م.

في باطن الأرض تحفر أيها الخلد
وأسمع صوتك الأبح الأجش...

عجل، ولتذكر أن السنبلة الضعيفة
ستهوي تحت نضال بلطاتهم
احفر الأرض القاسية كالحبة
واخرج إلى النور، واشهد:
فخلف انتصارهم العارض
تتلبد الآفاق بغسق القبور
فلترع ولتسق ولتحضن النبت الجديد
فما أن يمر الربيع فوق هذا النبت
الذي روته دماؤك
حتى يشرق فجر حب جديد.

- زدني! زدني! فإني أعشق الثورة في الشعر!!

كذلك خرجت الكلمات من شاهين، منتظراً أن يكمل أحمد على لسان ألكسندر بلوك ثورة الشعر الماركسي!

أنتم ملايين، ونحن جحافل وجحافل[43]

---

(43) كُتبت هذه القصيدة أثناء التدخل المسلح لأوروبا الرأسمالية ضد الجمهورية الروسية الوليدة. المرجع السابق، ص 242، 243، 244، 245، 246، 247

هيا إذن ونازلونا، جربوا
أجل، نحن آسيويون، أجل آسيويون
بعيون مزرورةٍ جشعة!

دهوركم مرت لدينا مثل لمحة
حين كنا نقف كخدم مطيعين
درعاً بين الجنسين المتعاديين:
بين المغول وأوربا!

طوال دهر وفرنكم القديم يصهر الحديد
هديره يطغى على زمجرة الرعود
وكان انهيار لشبونة وماسينا
أسطورة مرعبة لكم.

طوال قرون وأنظاركم مصوبة إلى الشرق
تجمعون كنوزنا وتعيدون سبكها
منتظرين باستهزاء أن تحين الساعة
لتسددوا فوهات مدافعكم نحونا.

وها قد حل الموعد، ورفّ الخطب بجناحيه
والضغائن تتكاثر بمرور الأيام

وسيأتي يوم لن يبقي أثراً
من أطلالكم القديمة!

يا أيها العالم القديم! قبل أن تموت
وإذ تكابد عذوبة الآلام
أفق، وقف حكيماً مثلما أوديب
أمام أبي الهول ولغزه العريق قد وقف!

روسيا أبو الهول.. مبتهجة، آسيا
مضرجة بالدماء السوداء.
تنظر إليك، تنظر محدقةً
بكراهية ومحبة!

أجل، لم يبق بينكم أحد
يحب مثلما عروقنا تحب
وقد نسيتم أن في الدنيا من الهوى
ما تحرق نيرانه وتدمر!

قلوبنا تحب كل شيء: لظى العقول الباردة
وهبة الأحلام الإلهية.
عقولنا تدرك كل شيء: ومضات فكر الغال المرحة

وعبقرية الجرمان العابسة

ذاكرتنا تحفظ كل شيء: جحيم شوارع باريس
وطراوة نسيم البندقية
وأريج بساتين الليمون البعيد
ومدينة كولن بمداخنها الهائلة.

نحب الجسد البشري بمذاقه ولونه
نحبه حتى برائحة الموت الخانقة.
فما ذنبنا لو تحطمت عظامكم
في أحضاننا الثقيلة الحنون؟

وقد تعودنا ونحن نلجم
خيولنا الجامحة اللعوب
أن نكسر عظام ظهورها القوية
ونروض أسيراتنا العاصيات! . .

تعالوا إلينا! هرباً من أهوال الحرب
تعالوا إلى أحضاننا المسالمة
قبل فوات الأوان أعيدوا سيفكم القديم إلى غمده
يا رفاق! فلنكن أخوة!

وإن لم تفعلوا، فلن نخسر شيئاً
فالغدر أيضاً ليس غريباً علينا
وسوف تطاردكم طوال الدهور
لعنات ذريتكم المريضة القادمة.

سنفتح رحاب أدغالنا وغاباتنا،
أمام أوروبا المهذبة،
على مصراعيها! ونستدير نحوكم
بسحنتنا الآسيوية الدميمة.

تعالوا! تعالوا كلكم إلى الأورال!
وسنفسح هناك مكاناً للقتال
بين الآلات الفولاذية وليدة العلوم
وبين جحافل المغول البرابرة!

لن نعود بعد الآن درعاً حامية
ولن نخوض بأنفسنا القتل
سنتابع المعركة الضارية
بعيوننا المزرورة الضيقة

ولن نحرك ساكناً حين يندفع الهوني المتوحش
منقباً في جيوب جثث قتلاكم
ويحرق المدن ويربط خيله في الكنائس
ويشوي لحم أشقائه البيض! ..

للمرة الأخيرة.. عد إلى صوابك أيها العالم القديم!
هيا إلى وليمة العمل والسلام والأخوة
إلى وليمة الإخاء النيّرة.. للمرة الأخيرة
تدعوك مناديةً قيثارة البرابرة!

- آهٍ للمرة الأخيرة عد إلى صوابك أيها العالم القديم! قمة الروعة يا بلوك، إنها الآن مترجمة وساحرة فكيف ستكون بلغتها الأم! للمرة الأخيرة عد إلى صوابك أيها العالم القديم!!

كررها شاهين مرات ومرات وسافر في كلماتها ذلك الشاعر، هؤلاء هم الشعراء دائماً وأبداً يعرفون بعضهم بعضاً ولو اختلفت اللغات!

للمرة الأخيرة.. عد إلى صوابك أيها العالم القديم!

(13)

.. ذهب شاهين إلى صيدلية مجاورة إذ استبد به الصداع وأصبح شديداً كما يقول، خلال ذهابه جلست أنا وأحمد فقط، ذلك الفيلسوف أشعر وأنا أتأمل نظراته أن في داخله كثيراً من الكلمات التي تنتظر بفارغ الصبر عودة رسامنا، لم يكن الصمت هو محور الانتظار قط. بعد أن تلاشى شاهين عن الأنظار أردت أن أطرح على صديقي سؤالاً كان دائماً يغزو مخيلتي، كنت أبحث عن إجابة أجعل منها مادة تريحني من سؤالي المحير! اعتدلت في جلستي ومددت جسدي إلى الأمام وبحركة سريعة وبصوت خرج من أعماق جسدي وعيناي ما زالتا تتأملان أحمد!

- هل تفكر فيهما! هل تتخيل شكلهما! هل تبكي عدم رؤيتهما؟!

قلت كذلك بسرعة وبدون أي توقف حتى أنفاسي كتمتها وكأني منذ زمن بعيد أنتظر فرصة لأطرح هذا السؤال المحير الذي أشترك فيه مع صديقيّ! كنت أريد الإجابة من عقل

وقلب أحمد لم أكن أريد أن يعلم أحد أنني أملك هذا التساؤل الذي يجعلني أسير الليل...!

نظر أحمد إليّ متعجباً من صمتي الذي انبثق منه سؤال كبير جداً، وبكل برودة لا تناسب ذلك السؤال، لا أعلم هل الفلاسفة يعيشون عكس الواقع دائماً أم أنهم أذكياء لدرجة الهروب إلى حيث يستطيعون أن يصمدوا، أم أن القاعدة التي تقول إن البشر لا يسمعون إطلاقاً إلا الأسئلة التي يقدرون الإجابة عنها تتمثل الآن في شخص أحمد!؟ رد أحمد بعد صمت طويل فقال:

- من تقصد بـ "هما"؟!

وبصوت مبحوح ضعيف وعلى القدر الذي أستطيع به أن أتكلم قلت له:

- الأب و الأم اللذان بسببهما وجودنا!

وقبل أن أكمل كلامي قطع أحمد سردي وقال بصوت عظيم وبكل فخر وكأنه ينظر إلى الآلاف من البشر:

- إني أكرههما!!

أردت أن أرد عليه، أن أقول له إن سؤالي لم يكن ينتظر تلك الإجابة فالواقع يؤكد أن تلك الإجابة التي خرجت من شفتيه هي الإجابة نفسها التي ستخرج من أي إنسان يعيش واقعنا. كنت أريد أن أوضح له مقصدي من طرح ذلك السؤال، ألسنا جميعاً نحب أن نعرف الغموض في كل إنسان

ويشدنا الإنسان الغامض المبهم أكثر من الإنسان المعروف لنا! كنت أريد أن أقول له: ألا ترى أن الغموض وعدم معرفتنا لهما وعدم إدراكنا لهما ولصفاتهما يجعلنا نعشق معرفتهم أكثر! ألا ترى أن ذلك الشيء يجعلنا أكثر شغفاً لمعرفتهما ورؤيتهما، كنت أريد أن أوضح له هدفي ومقصدي من طرح ذلك السؤال ولكن رجوع شاهين من الصيدلية قد قطع لحظات الصمت القليلة التي كنت أستجمع فيها قواي وأجمع فيها شتات كلمات أشعر أني لا أعرفها منذ وجدت على هذه الأرض!

قال شاهين قبل أن يجلس على كرسيه موجهاً كلامه لي:

- أعطني الماء بسرعة..

وثلاث حبات من مسكن الصداع يتناولها شاهين دفعة واحدة! والاستغراب من ذلك الفعل الشاهيني قد بدا واضحاً على أحمد، قال أحمد والاندهاش ما زال ماثلاً على تفاصيل وجهه:

- ثلاث حبات! هذا هو الموت يا شاهين!

رد شاهين وكأن حملاً ثقيلاً بدأ يتزحزح فقال:

-لا عليك، لا عليك، لقد تعودت منذ فترة طويلة أن أتناول الكثير منها! وهذا بسبب الألم في أسناني وقد نصحني الطبيب الذي يعمل في المركز الصحي القريب من مسكننا أن أستخدم المسكن عند ازدياد الألم! أرجوكما انسيا المسكن

والصداع وكل شيء! وقل لي يا أحمد ماذا أنجبت الماركسية غير ذلك الشاعر الأعجوبة الذي تتراقص كلماته في أذنيّ.. للمرة الأخيرة عد إلى صوابك أيها العالم القديم!

بدأ الاندهاش من فعل شاهين يتلاشى من وجه فيلسوفنا! أخذ نفساً عميقاً وبحركة سريعة مد يده والتقط كأس الماء من أمام شاهين وشرب ما بقي منه دفعة واحدة وتكلم فقال:

-لقد أمدت تلك الثورة الاشتراكية وتلك الفلسفة الماركسية العالم أجمع بإنتاج ثقافي عملاق وهل أحد منا لا يعرف ذلك الروائي العملاق مكسيم غوركي الذي كتب رواية "الأم"هذه الرواية التي لعبت الدور الكبير في تبسيط النظرية الاشتراكية لدى العامة، تلك الرواية التي تعد من أجمل ما كتب على مر التاريخ الروائي العالمي! إنها تجعل القارئ يبحر في عالم الاشتراكية، ذلك العالم الذي تصنعه الأم، الأم، نعم الأم.. آهٍ من تلك المخلوقة!!

قال تلك الكلمات وكانت عيناه تتراقصان مرة على شاهين وأخرى على وجهي ولم تتزحزح عن وجهي قط وهو يكرر الأم، الأم! وصمت مطبق شل الوجود لا أدري هل لهذه الكلمة السبب في جعلنا نحن الثلاثة لا نشعر بالوجود أم أن الوجود صحيحٌ قد أصابه الصمت! والصمت يستمر والتأمل أساس الوجود الآن، وبدأ ذلك الصمت يتلاشى على وقع خطوات المارة، تحول الصمت فجأة إلى انتظار! نعم

انتظار لشيء ما! فقد كنا ننتظر أن يتحدث أحد منا ويخترع أي شيء، المهم أن يتلاشى الصمت الذي استقر بيننا! والانتظار يزداد والتأمل هو محور الانتظار وفجأة تخرج كلمة من بين شفتي أحمد جعلت الانتظار يزداد وجعلت التأمل ينقلب إلى لهفة! كلمة شلت الوجود وأزالت الصمت والتأمل الموجود! قال وهو يبتعد بالكرسي عن الطاولة:

- الرغبة!!

ويزداد الانتظار والترقب وكلانا أنا وشاهين ننتظر من أحمد أن يكمل ما بدأه، أن يخرج ما عجزت عن قوله ألسنتنا.. انتظار وانتظار! وفجأة بدأت كالمجنون أصرخ وعيناي تجاه السماء وقلبي متجه لأحمد بالكلام!!

- تكلم! قل! المهم الآن أن يذهب الصمت!

نظر إليّ أحمد وقرب الكرسي نحو الطاولة وسافر بنظراته إلى اللانهاية، عيناه مسافرتان وعقله بعيد يفكر وبدأ يتكلم:

- الرغبة! إننا ضحايا رغبة! ضحايا شهوة! ضحايا، ضحايا، ضحايا، نعم نحن ضحايا!! رجل قذر وامرأة حقيرة! مجموعة من الحيوانات اجتمعوا من أجل قضاء لذة، آه من أجل إشباع شهوه لدقائق معدودة نعيش نحن سنوات بل عمراً من التعب والذل والاحتقار! نعم نحن ضحايا لذة يا صديقيّ!!

عاد الصمت والانتظار مرة أخرى! وعاد أحمد إلى تأمل الشارع إلى ركن الوجود المتمثل لديه الآن، إلى الشارع إلى أولئك الشباب، إلى أولئك الفتيات، كان أحمد يتأمل ويتأمل أشكالهم، نظراتهم، وكأنه يقرأ القلوب بذلك التأمل! ويتخلى فجأة عن تأمله ويشبك يديه ويُرجع ظهره للخلف ويستجمع قواه كأن في داخله طفلاً يريد الآن أن يتفجر!!

- الوعي الفكري هو أساس كل عمل في هذه الدنيا، هذا الوعي يجب أن يوجد في كل فعل في كل قول لنا في هذه الدنيا لأن حياتنا الذاتية، حياتنا الخاصة، هي في الواقع تخص كل ذوات الدنيا، تخص كل فرد يعيش في هذه الدنيا! إن ابتعاد هذا الوعي الذي يتشكل داخلنا وينمو بنمو أجسادنا وهو آخر ما ينمو في الإنسان! قد يؤدي إلى أن يحُل في داخلنا الهوى! نعم الهوى والانصياع للرغبات والشهوات كلها تحصل بغياب الوعي الفكري، هذا الهوى يستمر تأثيره واستبداده في داخل الإنسان مع إعطاء الفرصة له وذلك بغياب الوعي والمحاسبة الداخلية للذات، إن هذا الهوى بكل خبث سيحتل العقل ويكون ذلك العقل الذي كان في السابق عقلاً واعياً مقيماً لكل فعل أو قول سيكون بلا شك عقلاً مطيعاً لكل رغبة، لكل أمر صادر عن ذلك الهوى القاتل.. ومهما كان ومهما سيكون فإن رجلاً وامرأة والوعي في كليهما قد تلاشى واحتل مكانه الهوى الذي تمثل بالرغبة

والشهوة للممارسة وفعل الجنس! أين الوعي؟ أين العقل عندما اجتمع رجل حيوان وامرأة غبية وكان ثالثهما رغبة تجعل من الوعي مادة لفعل الهوى وعمل الغرائز والشهوات؟ نعم الشهوات التي تكون سبباً في خلق أناس يكرهون أنفسهم قبل أن يكرهوا أو يحتقروا غيرهم. نحن ضحايا، نعم ضحايا رغبة أساسها ومنبعها شهوة رجل ورومنسية امرأة! وبما أنهما بشر يمثلان البهيمية وكان الغموض في جسديهما يغزو رغبة كل واحد منهما وبما أن اللذة ترتبط دائماً وأبداً بالشيء البعيد الذي لا نستطيع أن نملكه فقد زال بينهما الغموض واستسلما لفكرة حقيرة جداً ألا وهي: استحداث اللذة! ولا تأتي تلك اللذة إلا بقتل ذلك الغموض الجسدي في كل واحد منهما! عندما أجلس وحدي أحاول أن أتخيل ذلك الموقف: رجل وامرأة ورغبة ثلاثة، هؤلاء الثلاثة يجعلون من ذلك التخيل سؤالاً! من الذي أغوى الآخر المرأة أم الرجل أم أن كليهما فريسة رغبة؟ سؤال له ثلاث إجابات: الرجل أو المرأة أو الرغبة! ترى أيهم أقوى تأثيراً في الآخر؟! الرجل أقوى أم المرأة أم أن كليهما لا شيء أمام فريسة الرغبة! قد تستغربون جعلي الرغبة طرفاً ثالثاً في هذه المعادلة وكأنها مخلوق! أبرر يا صديقيّ هذا الأمر: بأن الرغبة إحساس بسيط داخل كل البشر ولكن هذه الرغبة عند لحظات معينة لا أستطيع وصفها تتحول إلى أعتى مخلوق وأخبث وأحقر

مخلوق عرفته البشرية! من أجل ذلك فهم ثلاثة: رجل وامرأة ورغبة، والرغبة تتشكل مرة على شكل شهوة حيوانية تريد فقط الاستمتاع بالممارسة وأحياناً أخرى تكون لذة خرجت بعد أن وجدت الرغبة ثم شهوة أدت إلى الممارسة والمحصلة والنتيجة التي يبحث عنها ذلك الرجل وتلك المرأة لذة! لذة حقيرة! لذة لدقائق بسببها وجدنا.. وجدنا!!

.. وأنهى ذلك المنظر محاضرته ولم نرد ولم نناقش ولم نحاول أن نجعل من تلك الكلمات مادة لبدء مناقشة نفسية تحليلية! وإنما ظللت وشاهين صامتين بلا أدنى محاولة لخلق الكلمات. فقط هي النظرات التي تعبر عن قلبين جريحين ينزفان ألماً بكل أشكاله وصوره، كانت كلماته الأخيرة تخترق كل القلاع والحصون والموانع التي يستحدثها الإنسان في عقله، كانت سهاماً تحيي فينا فكرة ظلت نائمة أمام بعضنا ولكنها تشعل الحروب والأسئلة والاستفهامات في ذات كل واحد منا، وأنا الآن أكتب ذلك اللقاء أتذكر عيني أحمد عندما ذكر ذلك السؤال: من الذي أغوى الآخر هل الرجل أم المرأة أم أن كليهما فريسة رغبة؟! نعم إنه أعظم سؤال ينتصب على الأرض. من هو الذي يغوي الآخر؟ هل الرجل ساحر يغوي المرأة ويجعل منها مادة لتفريغ شحنات جنسية قذرة أم أن تلك المخلوقة التي قيل إن عاطفتها تتجاوز عقلها هي السبب الرئيسي لهذا الإغواء، أم أن كليهما قد

استسلما لفريسة رغبة تحاول الظهور على أرض الواقع بتجسيد معنى الممارسة! إن الإجابة عن هذا السؤال الكبير قد تجعلني أبتعد عن محور اللقاء، لقاء الأصدقاء، ولكن لو أخذنا إجابة مبسطة سنرى أن الرجل هو أكبر مفسد عرفته الدنيا! إنه يمثل البهيمية بأقبح صورها! ولا أنسى أن أذكر أن المرأة كائن عاطفي جداً ولكن تلك العاطفة الجميلة تتحول إلى أعتى مخلوق شهواني لا يعترف بأي شيء. فقط يؤمن بتفريغ تلك الشهوة وزيادة إثارتها! من أجل ذلك فكلاهما يشتركان في الغواية والجنوح عن الفعل السليم، وكلاهما قد أعطى لرغبته الفرصة أن تتحول إلى شهوة تبحث عن لذة لا تحصل إلا بفعل الممارسة القذرة!

.. إن ذلك السؤال الذي أوجده فيلسوفنا أحمد يجعلني أتذكر الآن ما قاله عالم النفس فرويد من أن الإنسان كائن جنسي! إننا إذا أمعنا النظر في هذا الافتراض الفرويدي لوجدنا أن ذلك الرجل وتلك المرأة في ذلك اللقاء يمثلان بكل واقعية نموذج الكائن الجنسي القذر! إن ما نشاهده أحياناً من أن الرجال تزداد صلابتهم وقوتهم ومحاولتهم إظهار ميزاتهم في حضرة النساء لهو أكبر دليل على أن تلك الشحنات التي يحملها الرجل إما أن تكون شحنات جنسية تقوم بدور الممارسة، أو شحنات إبراز الذات الرجولية أمام تلك المخلوقة الغبية التي لا تنام الليل بسبب ابتسامة رجل

أرسلها لها في أحد الأماكن! قد يكون فرويد صادقاً وقد يكون غير ذلك ونحن هنا لسنا في بحث لإثبات أو نفي فرضيته، لكنني أقول إن فرويد قد أخطأ! نعم أخطا فقط كان يلزمه أن يضيف كلمة أخرى بعد كلمة "جنسي"كان يلزمه أن يضيف كلمة "قذر"لتصبح فرضيته: "الإنسان كائن جنسي قذر!!"

... ذلك اللقاء الذي يمر أمامي كل يوم ولا يغيب عن مخيلتي، كنت وشاهين صامتين ننتظر أن يكمل أحمد ما بدأه وما خطته فلسفته، كنا ننتظر بلا أدنى محاولة لفعل أو قول أي شيء لأحمد! فقط هو الانتظار وعدم الكلام يجعل من ذلك الفيلسوف مشتعلاً ومتوقداً وتكون الكلمات التي حبستها السنوات الآن وفي هذا اللقاء على مرمى من اللسان! ننتظر كما كلنا ننتظر الإفراج عنها وجعلها حرة في هذا العالم، الانتظار يستمر، ويزداد، هل أستطيع أن أصف ذلك اللقاء بأنه لقاء الانتظار؟!

(14)

أذم إلى هذا الزمانِ وأهله
فأعلمهم فدمٌ وأحزمهم وغدُ
وأكرمهم كلب وأبصرهم عم
وأسهدهم فهدٌ وأشجعهم قِردُ
بقلبي وإن لم أروِ منها ملامةٌ
ولي عن غوايتها وإن وصلت صدُ
تلج دموعي بالجفون كأنما
جفوني لعيني كل باكية خدُّ

قال أحمد تلك الأبيات فجأة، وعاد الصمت أساس الوجود مرة أخرى، والصمت يستمر ووقع ذلك البيت يخترق أذني!

بقلبي وإن لم أروِ منها ملامةٌ
ولي عن غوايتها وإن وصلت صدُ

ويتلاشى ذلك البيت من أذنيّ، ويستمر الصمت وفجأة يخترق بيت آخر أذنيّ!

تلج دموعي بالجفون كأنما
جفوني لعيني كل باكية خدٌّ

ويستمر اختراق ذلك البيت أذنيّ، والصمت ما زال! الصمت والمتنبي هما أساس الوجود! هما ممثلا الوجود الحاضر! الصمت والمتنبي! ويستمر الصمت والأبيات تخترق أذنيّ. . تحرك الكرسي فجأة نعم كرسي الفيلسوف وبدا وكأنه يستعد لقول شيء ما! وبصوت حزين مغلوب على أمره قال:

- لو قدر لي في يوم من الأيام أن أصف نفسي أو أن أصف حياتي سأقول بلا تردد إن حياتي هي محاكمة! نعم إني أعيش في هذه الدنيا كما يعيش معتقل في محاكمة! وذنبي أنه لا ذنب لي! والمحلفون وهيئة الادعاء نظراتهم تشكل المجتمع والقاضي أين هو لينهي هذه المحاكمة! لينهي هذا الذل أمام تلك الهيئة القذرة! إن تلك الحياة كالجلاد تصفعني مع كل صباح وتشتمني مع كل مساء! نعم ما هي حياتي؟ إنها مجرد انتظار! إنني إنسان بلا أي حول ولا قوة واقف ولا أستطيع أن أتحرك! أقف داخل صالة كبيرة الأبواب فيها متعددة وللأسف كلها مغلقة! أقف أمام أبواب مغلقة، الوقوف يعني الانتظار والانتظار يقود إلى القلق والقلق يؤدي إلى خروج الضعف الذاتي! هذا الضعف الذي يقودني إلى حالة من الجنون. وبما أنني أمثل ذلك الجنون الذي لا

يذهب العقل بوجوده! وبما أن العقل موجود والأفكار تتشكل في داخله فهذا يعني أني ما زلت أفكر، وبما أني أفكر إذن أنا أحيا! نعم أحيا! ينبغي أن أستمر بالتفكير حتى وإن انبثق ذلك المخلوق الكريه! نعم ذلك المخلوق الذي يسمى البؤس! نعم البؤس كلمة تزداد تراقصاً في أذني وتنتقل إلى عقلي وإلى كل أجزاء جسدي، البؤس! البؤس كلمة قل من يدركها في زمن الرفاهية! قل من يعرف البؤس! البؤس يقترن بي، إني بائس وضائع ومشتت وميت والحياة تبدو لا شيء لي أبداً! نعم إنه البؤس الروحي الذي منه وبه وله قد تشكلت حياتي! إنني متأكد أن ذلك الرجل الحقير وتلك المرأة العابثة عندما انتهيا من الممارسة كان البؤس هو عنوان الوجود لديهما! نعم البؤس من هذا الفعل، البؤس من ذلك العمل الذي أحدثته شهواتهما وغرائزهما! البؤس! أتعرف يا هذا معنى أن تكون بائساً! معنى أن ترى كل الأفراح ولكنها لن ولن تكون لك وحتى إن أصبحت لك، فالبؤس سيظل معك وبك وحولك والأغلب أنه في داخلك! إنك يا هذا لا شيء في هذا المجتمع العنصري! يجب أن تدرك أن مصطلح السعادة أضحوكة، مهزلة، لعبة طفل يتسلى بها من أجل أن يستمر بالعيش، أنا وأنت نعم نحن الثلاثة نمثل أرقى نموذج لمعرفة البؤس! لماذا كلنا بائسون بسبب رغبة رجل وامرأة! البؤس يسيطر على كل أجزاء عقلي ويقوم ذلك العقل

البائس بطرح سؤال على أرض البؤس! أين أنا موجود؟ الأفكار هي التي تأتي بالإجابة عن هذا التساؤل وفي كل مرة أطرح فيها ذلك السؤال تتغير الإجابة، سؤال واحد وإجابات متعددة والمستقبل وآهٍ من ذلك المستقبل نعم إني أراه غامضاً مخيفاً وهذا الغموض يزيد من وقع ذلك السؤال: أين أنا موجود؟ ومهما كانت الأفكار التي تُعطي الإجابة لذلك السؤال بسيطة وصغيرة وتعطينا إجابة بسيطة ولكن المشكلة أن هذه الأفكار تخرج منها أفكار أخرى، أفكار أكثر شراسة وفتكاً فينا تجعل ذلك السؤال يزداد في الحجم ويزداد في الوجود أينما وجدنا!!

والحزن ما زال ماثلاً في عينيّ أحمد وأردف ذلك الحزين يهذي فقال:

- لماذا أنا أحب النظر إلى الأطفال؟ لماذا عندما تسقط نظراتي على أحد الأطفال تستمر تلك النظرات ولا تتوقف بل تظل متأملة لذلك الوجه الملائكي، إن أعظم هبة لنا في هذه الدنيا هي وجود الأطفال، طيور السماء، نعم الأطفال إنني أعشق النظر إليهم فهم يا صديقيّ أجمل وأفضل وأزكى مخلوق على مر العصور، هؤلاء الأطفال الذين يعيشون للحب يعيشون للابتسامة، يعيشون فقط من أجل جعل غيرهم فرحين، لا توجد لديهم رغبة أو شهوة قذرة. نعم فشهواتهم ملغاة مدفونة لذلك هم أفضل مخلوق! أرأيتم كيف يكون

الإنسان جميلاً عندما تزول وتلغى منه جميع الشهوات والغرائز القذرة، يجب أن يتحول الناس كلهم بلا استثناء إلى أطفال حتى نعيش كلنا في حب!

.. إن هذا الإنسان كلما كبر واشتد عوده الأحرى به أن يكون أكثر طيبة وشفقة وعطفاً على غيره من بني جنسه ولكن الواقع عكس ذلك تماماً فكلما كبر صار أكثر شراسة وعنفاً وجبروتاً وكأنه يملك كل شيء، ألا يعرف ذلك الإنسان أنه لا شيء يذكر في هذا الكون! ألا يقارن نفسه بتأمل هذا الكون الفسيح! ألا يرى ما حوله من المخلوقات! إن الإنسان سيظل أغبى مخلوق! إن ما تعلمه الإنسان خلال وجوده لا يخدم إلا شهواته وحبه للبقاء! لقد تعلم الكذب وتبرير الأفعال الوحشية حتى يصبح أعلى ممن حوله! لقد تعلم النفاق لكي يكون الصادق أمام غيره من الكذابين المنافقين! لقد تعلم الممارسة القذرة من أجل أن يُخرج للوجود أناساً بائسين! إنها مسرحية كبيرة والممثلون هم هؤلاء البشر! كل إنسان يمثل على غيره وذلك الغير يمثل على آخر والسلسلة مستمرة والتمثيل يستمر والضحك على الغير هو أساس كل وجود في هذه الدنيا!

و أكمل أحمد هذيانه الطاغي قائلاً:

- إن أغلب البشر يجعلون من طموحهم إرضاء لشهواتهم! نعم الطموح أجمل شيء بل إن الإنسان يجب أن

يعيش لذلك ولكن هذا الطموح يكون حقيراً جداً إذا اقترن بشهوة، فالطموح مع هذا الاقتران يكون قمة الأنانية الموجهة لكل البشرية بلا استثناء! إن زمن أولئك البشر الذين يعيشون من أجل غيرهم قد ولى وذهب ومسخ مع هذا الزمن! كلهم يسعون من أجل رغبة داخلية تأسر دواخلهم! آهٍ حتى الابتسامة في هذا الزمن ترسل لأجل هدف بغيض ماكر! أين هو الحب؟ أين هو في هذا الزمن؟!

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني[44]

.. وانقطع أحمد عن الهذيان واضعاً يديه خلف رأسه

---

(44) أبيات تجدها في (رسائل ابن عربي) المجلد 7 (كتاب ذخائر الأعلاق، شرح ترجمان الأشواق) ص72، 73، تحقيق وتقديم سحبان أحمد مروة. مؤسسة الانتشار العربي، لبنان، الطبعة الأولى 2006 م. عند الرجوع إلى شرح تلك الأبيات لدى ابن عربي نجدها تؤدي إلى محبة الله سبحانه وتعالى والابتعاد عن الحب في غير الله، لذا أرجو القارئ الكريم العودة إلى رسائل ابن عربي. المؤلف

وأغمض عينيه وكأنه يتمنى أن يتلاشى الآن من هذا العالم!

قال شاهين بصوت رقيق وهو يخفض عينيه كطفل!

أديـن بـديـن الـحـب أنـى تـوجـهـت

ركـائـبـه فـالـحـب ديـنـي وإيـمـانـي!!!

هذا كفر! جحود! أرجوك يا صديقي، أرجوك أعظم رجاء، أرجوك بكل ما تشتمل عليه كلمة رجاء! نعم أرجوك! يجب أن تدرك وأن تعلم أننا نحن الثلاثة نجتمع هنا لنضحك لنحتفل ولننسى همومنا، نحن بسطاء يا أحمد! أو كما قلت نحن ضحايا! لذلك أرجوك أن تكف عن هذا الجحود هنا! أتريد أن تجعل من هذا اللقاء لقاء لحل مشكلات الحياة الميتافيزيقية؟! ألا تخاف من ربك!!

قال أحمد وكأنه لم يسمع رجاء شاهين!

هـذي الـحـيـاة مـسـافـة فـاصـبـر لـهـا

كـيـمـا تـبـيـن وأنـت غـيـر مـلـوم

فـي عـالـم أخـذ الإلـه عـقـولـهـم

فـغـدوا جـمـيـعـهـم بـلا مـعـلـوم[45]

---

(45) أبيات لأبي العلاء المعري (اللزوميات) ص 210، دار الجيل، بيروت، 1969 م، تقديم عمر أبو النصر.

.. والصمت يستمر والانتظار أصبح كالصاعقة التي تضرب رأس الإنسان! أفكار غريبة تغزو أرض الرياض! ويتابع أحمد موجهاً كلامه نحو شاهين:

- ماذا تريد يا شاهين؟ أفصح عما بداخلك! هل تريد أن تعرف هل أنا مؤمن أم لا؟! هل هذا ما يريحك! إنني أرى هذا السؤال في نظراتك منذ زمن! أليس هذا صحيحاً يا رسام!!

رد شاهين والدهشة ماثلة في وجهه:

- أحمد إنك غريب جداً! بل إنك مبدع في قلب الألفاظ وجعلها غريبة كما يقول إيفان في الأخوة كارامازوف!![46]

أجاب أحمد صديقه وهو ينظر إليه نظرة تمتلئ ابتسامة رقيقة عذبة وصادقة، وكأنما يقول له: إني أحبك يا صديقي!

- شاهين أنا مؤمن، مؤمن بالحب! مؤمن بالخير، مؤمن بالإنسان، مؤمن أن هذا الشر سيزول يوماً ما، مؤمن بأن الذل والقهر والظلم سيتلاشى يوماً ما، مؤمن بالإنسانية أنا!!

رد شاهين وقد ازداد لديه الذهول فقال:

- يا أحمد أتؤمن بهذه الأشياء فقط! أتعلم معنى هذا؟! إنك ملحد!!

---

(46) (الأخوة كارامزوف) أعظم ما كتبه دوستويفسكي في الرواية، وإيفان أحد أبطال الرواية وهو يمثل نموذج الجحود.

ابتسم أحمد وكأنه لم يسمع ما قاله شاهين وفجأة تغيرت ملامح وجهه وأصبحت كل عضلات وجهه تختلج وقال:

- ملحداً من هو الملحد بظنك؟!

صاح شاهين منفعلاً:

- الملحد هو الذي لا يؤمن بالله.. الملحد من يؤمن بالحب وبالإنسانية وبالخير ولا يؤمن بالدين.

نطق أحمد بعد صمت وجيز فقال:

- الحب والخير والإنسانية، حب تلك الأشياء ماذا يعني! أجب يا شاهين ماذا تعني؟!

- يستحيل أن أجيب عن سخافات والشيء الأساسي الذي نتناقش حوله أنت تبتعد عنه وتتهرب منه يا أحمد!!

كذلك صاح شاهين في وجه الدنيا!!

قال أحمد رافعاً صوته وكأنه يوجه كلامه لكل البشر:

- أنا مؤمن بالله، أليس الحب هو الله! أليس الخير هو الله! أنا مؤمن بالله ولكن إيماني غير إيمانك! إني أؤمن وأرفض! أرفض العالم المتمثل الآن! أرفضه بكل ما فيه من بؤس وألم وحسرة وحزن! أرفضه بكل ما فيه من شر تمتلئ به الدنيا، إني يا صديقي أرفض أن يستمر الشر، أن يستمر الذل، أن تستمر العبودية! أرفض وسأظل أرفض! والرفض لا يعني أبداً الجحود، أبداً لا يعني الإلحاد!!

قال شاهين:

- الرفض لا يعني الجحود! قمة الفلسفة الكاذبة! إذا كان الرفض لا يعني الجحود فماذا يعني! أجب ماذا يعني؟!

أجاب أحمد بصوت حازم جداً قائلاً:

- لن تفهمني أبداً أبداً!!

قال شاهين وقد ازداد وجهه اصفراراً:

- لن أفهمك! إنك ملحد! نعم يا صديقي أنت ملحد! لأنك ترفض! لأنك تفسر الدين والإيمان على مزاجك! أنت ملحد لأنك ترى السوداوية وتحاول أن تجعلها واقعك حتى وإن لم تكن كذلك! إنك ملحد لأنك لم تعرف أن تحب واقعك! أنت ملحد لأنك لم ترض بواقعك! الرضا يعني الإيمان بالقضاء والقدر لذلك أنت ملحد! ملحد لأنك تريد أن تصنع خارطة للحياة تتبع أهواءك! أنت ملحد وكلنا ملحدون!! نعم الحقيقة أننا كلنا ثلاثتنا ملحدون ونحن لا نعلم لأننا نرفض واقعنا ونرفض القضاء والقدر! والرفض يعني الجحود والإنسان الذي يرفض هو إنسان جاحد والإنسان الجاحد هو ملحد! أتدري يا صديقي لعن الله الفلسفة، لعن الله أي شك يتسرب إلى العقل، أرجوك يا أحمد أن نغير هذا الموضوع لا أريد الحديث بهذه الأشياء رأسي سينفجر!!

نهض أحمد فجأة وظل صامتاً فترة وجيزة وعاد مرة أخرى إلى كرسيه، الاصفرار انتقل إلى وجه أحمد ودمعة

رأيتها في ذلك المكان تسقط من عين صديقي! آهٍ يا دنيا دمعة لن أنساها ما حييت أبداً، تكلم أحمد وهو يمسح تلك الدمعة فقال:

- أرجوكما افهماني إني أتألم! إن ذلك الشيء الذي أشعر به، الذي أحسه في داخلي، ذلك الألم الذي قليلاً ما يتفق مع الناس، فلو قلت لهم إني أتألم جوعاً لأعطوني مباشرة الطعام الذي أسد به ذلك الألم ولكن لو قلت لهم إني أتألم بسبب فكرة تعيش في داخلي الأحرى أنهم سيدعونني وشأني ويتركونني أسير ذلك الألم! هم في الواقع لا يعرفون أن ألم الفكرة أعلى درجة من ألم الجوع! هم لا يدركون أولئك البشر أن الألم في العقل المتكون بسبب فكرة قد يقتل كل شيء جميل في داخل المتألم! إني الآن أحفر متذكراً الماضي! أعترف يا صديقيّ أن شكلي الخارجي وتلك الدمامة في وجهي لها الدور الكبير في نسج ألم الفكرة الذي يعيش في داخلي ما عشت منذ أن حصلت لي تلك القصة التي عاشت مكتومة سنوات وسنوات في داخلي، تلك القصة التي بسببها بدأت حياتي تذهب إلى حيث لا أدري!!

توقف أحمد عن الحديث وبدأ يشاهد الأفق وكأنه ينادي أحداً ما! وتابع كلامه بعد أن عاد إلى الطاولة:

- في فترة من الزمن الماضي وأثناء الدراسة كان المعلم يشرح الدرس ويمزح مع هذا ويحتقر ذلك والأشكال هي

دائماً سبب المزاح أو الاحتقار! المهم بعد أن أنهى المعلم الدرس الذي قد يتخلله كثير من الغراميات! مشيت خلفه إلى أن توارى عن الأنظار اقتربت منه وبصوت طفل لا يعلم شيئاً في هذه الدنيا قلت له: من هو أبو الله!!! كنت ككل الأطفال ممن يبحثون عن إجابة بسيطة تجعلهم ينهون ذلك التساؤل.. أتدرون بماذا أجاب ذلك المعلم المبجل الذي يربي الأجيال! قال بكل شدة وهو يهز إصبعه الحقير! "انس هذا السؤال ألغه من رأسك!!" كذلك قال وذهب يلتفت يميناً وشمالاً باحثاً عن غرامه الذي اختفى فجأة! وتركني في ذلك اليوم محبوساً داخل سؤال، بدأ ذلك السؤال يكبر مع الوقت وكلما كبر زاد الخوف بأن أطرحه مرة أخرى! ألا يعلم ذلك المعلم الغرامي أنه لو أجاب عن هذا التساؤل الطفولي لأزال الفكرة من أصلها، لماذا لم يقل بكل بساطة: (قل هو الله أحد*الله الصمد* لم يلد ولم يولد* ولم يكن له كفواً أحد) لماذا لم يقل لي كذلك ويزيل الشك البسيط في ذلك الزمن! بعد أن تركني أذكر أني وبعد عودتي إلى الملجأ توجهت مباشرة إلى الحديقة وجلست أتأمل! لاحظوا طفلاً يتأمل! ألم يتأمل إبراهيم عليه السلام في الوجود والبحث عن الرب! نعم لقد كنت أتأمل، زال التأمل فجأة واستقر في محيطي وفي ذاتي شيء آخر، لا أعلم ما هو فقررت أن أتسلى!! كنت أجلس منعزلاً عن كل الطلبة، بدأت أشاهد السماء، فقررت

والعزلة هي الوجود الآن أن أفكر فيه! نعم أفكر فيه والدهشة أصبحت هي الوجود الآن قررت أن أستمر بالتفكير فيه، وجنح التفكير إلى سؤال آخر! أين هو؟! وقلت مكرراً والدموع بدأت تزداد: أين هو؟ إنه لم يأت لي أبداً أبداً! أين هو؟! طفلاً صغيراً كنت أنا!!

وأكمل أحمد يشكو الدنيا قائلاً:

- الأيام والسنوات مرت الآن وشريط الماضي أشاهده أمامي وتلك القصة تزداد كل يوم توغلاً بداخلي، ومع مرور الزمن أصبح السؤال الصغير كبيراً وازداد قوة في واقعي! كثيراً ما كنت أقول في نفسي: أتمنى أن أقابل ذلك المعلم الذي لا يعرف أن الإيمان العقائدي الثابت لا يزحزحه ولا يشكك به وفيه الأسئلة العقلانية، بل بالعكس إنها تزيده قوة وثباتاً لدى معتقده، لقد كنت أحتاج في ذلك اليوم ليس للإجابة فحسب وإنما لأب يمثله معلم يعرف كيف يتعامل مع طفل تائه! طفل كان حبيس سؤال! منذ تلك القصة أظن أنه قدر لي أن أوجد وأحيا وحيداً أكثر مما كنت عليه في السابق! فأصبحت دائماً أحتاج إلى العزلة، تلك العزلة التي تعني موت التواصل مع المحيطين بي، ولم أفكر بأن أتحدث كثيراً مع أي إنسان إلا بعدما عرفتكما وأذكر أني عرفتكما بعد تلك القصة بحوالي الشهر وكذلك أذكر أن السبب الرئيسي للقرب منكما هو التوبيخ اللاذع لكما من المعلم نفسه في

إحدى المرات! لقد أصبح ذلك المعلم بالنسبة لي كالكابوس المخيف جداً، وأصبح أيضاً سبب خوفي وكذلك تعاستي! إنني أهذي لأنني أتألم!!

قال شاهين وهو يحرك يديه مرتبكاً وعيناه كانتا تحبسان دموعاً قل ما نراها أو نستطيع وصفها.. دموع صديق!!

- نحن لك يا أحمد، قل ما تريده، أخرج ما بداخلك، اعذرني على كلماتي السابقة، فأنا أحبك كما أحب سامي كما أحب نفسي...

نظر أحمد إلى شاهين ومد يده ووضعها على يد صديقه وابتسم، ابتسامة الرضا ثم أعاد يده إلى مستقرها وتابع كلامه فقال:

- يقول من يرى أحمد أن الرغبة في الألم هي أساس ذلك الإنسان، لا أدري كيف ولماذا يطلق عليّ هذا المصطلح الغريب "الرغبة في الألم" إن أغلب البشر سطحيون جداً حتى في نظرتهم إلى ألم غيرهم تكون النظرة غير ثاقبة والأحكام تطلق فقط بناء على معلومات عن ذلك المتألم، هل يظن أحد أن هنالك إنساناً يرغب أن يعيش بالألم وللألم! هل يخطر على بال أحد منا أن الإنسان يبحث عن الألم أكثر من بحثه عن الفرح والسعادة! أتصور أن هذه التساؤلات لو طرحت أمام البشر لقالوا إن كاتبها غبي جداً ويحق لهم هذا الوصف لأن الإنسان قلما يبحث عن الألم

لكنه وأثناء بحثه عن السعادة يكون الألم هو الطريق إلى ذلك الهدف، السعادة خلاصتها أن طريقها الألم!

.. صديقيّ أحبكما! قد أكون تعيساً والحياة لي ليست إلا شيئاً أقوم بتأديته لكن وعلى الرغم من كل ذلك الهذيان وذلك الألم أرى أن الحياة تمنحني أحياناً الأمل، نعم تعطيني الأمل فقط عندما أمسك قلماً وأمامي ورقه بيضاء، هنالك فقط أشعر بالأمل ومع الأسف فكلما كتبت كانت النار مستقر تلك الأوراق! إن من يكتب هو في الواقع يكتب لأجل أن ينشر ما كتب ولكنني أنا أكتب لأجعل من تلك الحرب الداخلية مستقرة وكذلك أكتب لأجعل من الأوراق مادة جميلة أشاهد احتراقها! نعم إنني أكتب لأحرق ما كتبت!!

* * *

ويستمر أحمد بالهذيان، كانت كلماته تهز العقول قبل القلوب، كانت كلماته موجهة إلى مغاور العقل الذي تحركه كلمة واحدة تجعل من ذلك العقل الميت أو المغيب عقلاً متأملاً فيما حوله... إنك يا من تقرأ الآن أسطورة ساش إنك بكل بساطة تقرأ الماضي، ذلك الماضي الذي خلفته السنوات، ذلك الماضي الذي يعني شاهين وأحمد.. أحمد

ذلك الفيلسوف، أتدري يا من تقرأ لو قدر لك أن تحدق النظر وأن تتأمل في ذلك الوجه الحزين، هنالك سترى بكل وضوح آثار أقدام قديمة جداً، قديمة قدم التاريخ، هنالك ستشاهد لطخات من الفكر ومن التأمل ومن القراءة، تتجول وتحتل كل تفاصيل ذلك الوجه، تروح وتغدو في جبينه جاعلة من ذلك الوجه كالآثار التي تنتصب شامخة أبد الدهر...

(15)

عاد ذلك الفيلسوف إلى مسلسل الهذيان، كان وجهه يشع نوراً غريباً، يجعل أعيننا مركزة صوب ذلك الوجه:

- في فوضى الأيام ومع بحثي عن ذاتي تعرفت على صديق كنت أسهر معه كل ليلة، كنا نسهر معاً هو يكتب وأنا أقرأ، هو يتفلسف وأنا أتعجب، هو يصور وأنا أتأمل، نعم لقد تعرفت على عبدالله القصيمي[47] صدفة أثناء بحثي عن ذاتي كان هو أمامي بكل ما كتبه وما عمله بل بكل ما قاله وما قيل عنه، كان أول لقاء يجمعني بذلك العبقري هو كتابة

---

(47) عبدالله القصيمي: فيلسوف وكاتب سعودي ولد سنة 1907م في قرية (خب الحلوة) في منطقة القصيم، أحدث هذا المؤلف ثورة كبرى في الفكر العربي، من أشهر مؤلفاته (هذه هي الأغلال) 1946م هذا الكتاب الذي وصفه بعض النقاد أنه مرحلة جديدة في حياة القصيمي، مرحلة من الشك في الموروثات الوهابية. راجع كتاب (نقد كتاب حياة محمد) ص1، 2، "آخر الكتاب"، مؤسسة الانتشار العربي، الطبعة الثانية، 2007، بيروت.

"نقد كتاب حياة محمد" الذي يرد فيه على الفيلسوف المصري الدكتور حسين هيكل...

"... نحن نخالف الدكتور ونقول: إن الإسلام والنصرانية لم يختلفا على أساس العقائد ولا في أن عيسى عبدالله ورسوله وأن الله فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ولا جاءت النصرانية بالتثليث، ولا قالت إن عيسى ابن الله جل الله عن ذلك. وإنما قال ذلك النصارى أو من يدعون أنهم نصارى، وفرق بين النصرانية وبين من يدعون اعتناق النصرانية، كما أن هنالك فرقاً عظيماً بين الإسلام وبين من يدعون الإسلام أو من يحسبون على الإسلام أو من يقولون إنهم مسلمون، والأديان السماوية لم تختلف مطلقاً في وحدة الله وفي أنه ليس له شريك ولا ند ولا ولد. فلا النصرانية ولا غيرها قالت بما ذكره الدكتور أو جوزته..." (48)

.. لقد سهرت تلك الليلة في قراءة ذلك الكتاب الجميل، كنت أرى في صديقي حلاً لكثير من مشكلات الحياة التي كانت تعيش في داخلي، وكانت تلك المشكلات

---

(48) راجع كتاب (نقد كتاب حياة محمد) عبدالله القصيمي ص19 بتصرف، مؤسسة الانتشار العربي، الطبعة الثانية، 2007، بيروت.

تشكل استفهامات تحتل واقعي، لقد كنت أرى فيما كتب حلاً قد يكون مؤقتاً ولكنه على الأقل يخمد ذلك الصراع الذي يتأجج في داخلي، إنه يمنحني الحل العقلاني لكل ما أراه وأسمعه وأتأمله في حياتي..

لا تـمـنـعـنـك قـلـة الـرفـقـاء
من أن تـرافـق حـكـمـة الـحـكـمـاء
نـعـم الـرفـيـق الـحـق إن لـم تـلـق مـن
تـرضـى مـن الـرفـقـاء والـنـظـراء
مـا عـيـب مـصـبـاح الـنـهـار و مـالـه
مـن صـاحـب فـي الـقـبـة الـخـضـراء
فـا بـدر إلـى صـيـد الـحـقـيـقـة إن بـدت
إن الـحـقـيـقـة غـايـة الـعـقـلاء
إن الـحـقـيـقـة فـي الأنـام خـفـيـة
يـا طـالـمـا خـفـيـت عـلـى الـعـظـمـاء
لا تـتـرك الـحـق الـمـبـيـن إذا الـورى
لـم يـقـبـلـوه، ومـنـهـج الـسـعـداء
إن الـمـوفـق- أن فـطـنـت- لـنـادر
والـنـاس أكـثـرهـم مـن الـسـفـهـاء
لا تـحـسـبـن الـحـق وقـفـاً لازمـاً
حـسـبـاً عـلـى الأشـيـاخ والـقـدمـاء

فلربما رشد الصغير وضل منهاج
السبيل أكابر الكبراء
فالحق نور الله يبصره امرؤ
متجنب الشهوات والأهواء
لهفي على أدبي المضيع بينما
وطني وقومي فاقدو الأدباء
داء بقومي لا أطيق بقاءه
عز الجهول وذلة العلماء
إني لآمل من الزمان وإن- قسا-
ليناً ويسراً ذي الضراء[49]

.. آه يا صديقي يا قصيمي! أصبحت بعد تعرفي عليه أكثر هدوءاً، كنت أدخل الغرفة وأجلس وحدي متأملاً أو قارئاً أو ممسكاً قلماً، نعم إن ما خطته أناملي في تلك المرحلة من عمري لهو كثير جداً، لقد كنت أكتب تراكمات ظلت محبوسة في داخلي طوال السنوات المنصرمة، لم أكن أعرف ولم أكن أدرك ما هي الطريقة المثلى لإخراج تلك التراكمات، وأيضاً لم أكن أعرف أساسيات الكتابة الفلسفية،

(49) قصيدة (أمل) عبدالله القصيمي راجع كتاب ((الفصل الحاسم بين الوهابيين ومخالفيهم) ص 175، 176 بتصرف، مؤسسة الانتشار العربي، الطبعة الثانية، 2007م.

كنت أخاف أن أمسك قلماً وأن أضع أمامي ورقة! كنت أعتقد أن لكل شيء قانوناً يعتمد عليه وكذلك الكتابة، لم أكن أدرك أن الكتابة هي قانوني أنا وما كتبت هو أنا! لقد علمني صديقي كيف أكتب ولا أخاف مما كتبت! علمني أن أمسك القلم وأعطيه الحرية ليكتب ليتفلسف ليحتج ليقول ما بداخله بلا أدنى اهتمام بالغير!

.. صديقيّ إن الإنسان يحتاج إلى شيء ما من خلاله يعبر عما بداخله من تراكمات، فنلاحظ الأطفال أولئك الذين لهم أمهات! نجدهم يعبرون عن ذلك الشيء بالقرب من الأم والشعور بحنانها، أما أنا وأثناء طفولتي فقد كنت أنفر من الشعور بالحنان من امرأة مزيفة وضعت لنا في الملجأ لتمثل دور الأم الغائبة، دور الأم التي لم نرها قط، ومن أجل ذلك النفور كانت نفسي تتوق إلى شيء ما من خلاله أخرج ما يسكن في ذاتي. لأجل ذلك كنت ومنذ شعرت بوجودي أمسك قلماً وأجلس أخربش على الأوراق فأحياناً تراني أكتب شيئاً ما وأحياناً أرسم لا شيء وأخرى تجدني أرسم شيئاً غبياً كريهاً وقد فصلت رأسه عن جسده وكنت أشير إلى ذلك المعلم الغبي! إلى ذلك الإنسان الذي أحتقره وأعتبر الحشرة أرقى منه!!

أرجوكما اتركاني أكمل هذياني! .. أذكر أني وبعد حادثة المعلم أصبحت الطبيعة صديقي الكبير، كنت أجلس

في حديقة الملجأ كانت تلك الشجرة العظيمة الشامخة صديقي في تأملي! كنت أظل بجانبها وفي محيطها حتى أجبر على الدخول للنوم، عند هذه الشجرة قرأت وقرأت، تأملت وتأملت، عند هذه الشجرة بكيت دموعاً غزيرة، دموع طفل! لقد أصبح بيني وبين تلك الشجرة ارتباط وجودي أحسست أن كلينا يشعر بالآخر، يهتم بالآخر، يشارك الآخر في همومه وآلامه ومشاعره! هنالك عند الشجرة زادت معرفتي بصديقي القصيمي عندما سهرت في ذلك اليوم أقرأ رسالة كتبها. . . أنت لا تستطيع أن تكون ملحداً!!!

"... إن إيماني ليس موضوع خلاف بيني وبين نفسي، ليس موضوع خلاف بيني وبين تفكيري. وإنه لا ينبغي أن يكون موضوع خلاف بيني وبين قرائي. إني لو أردت من نفسي وعقلي أن يشكا لما استطاعا، ولو أرادا مني أن أشك لما استطعت. إني لو أعلنت عن نفسي بكل وسائل الإعلان أنفي إيماني، لما استطعت أن أصدق أني كذلك.. إن إيماني ذات.. إنه كينونة.. إنه ليس تصرفاً، ليس سلوكاً أمارسه. إن إيماني هو ذاتي.. إنه كينونتي. إنني لا أستطيع نفي إيماني لأني لا أستطيع نفي ذاتي، نفي كينونتي. ماذا لو أن إنساناً ما، قال إنه لا يحب نفسه، لو قال إنه لا يحب الحياة! فهل نصدقه.. هل نعاقبه بكلامه.. هل يصدق هو كلامه.. ؟ هل يمكن أن

ننفي أنفسنا أو إحساسنا بها، بأية وسيلة إعلامية.. ؟ إن الحقائق الكبيرة لا تسقطها الألفاظ. والإيمان من الحقائق التي لا يمكن أن تضعفها، أو تشكك فيها الكلمات التي تجيء غامضة، أو عاجزة، أو حادة، لأن فورة من الحماس قد أطلقتها. كما أنها أي الكلمات، لا تستطيع أن تثبتها.. أي تثبت تلك الحقائق. إن إيماني يساوي: أنا أنام، إذن أنا مؤمن.. أنا أجوع، أذن أنا مؤمن.. أنا تعب، إذن أنا مؤمن.. أنا عربي، أذن أنا مؤمن... إنه لا يخشى على العربي أن يكفر. إنه لا يخشى عليه أن يطغى فيه التفكير إلى أن يطغى الإيمان أو يزيله، أو حتى يناقشه.. إن هذا هو آخر ما يمكن أن يخشى عليه. ولكن يخشى على العربي أن يبالغ في إيمانه، حتى ينهزم أو يموت.. وحتى يؤمن بالخرافة، ويقاوم الإصلاح والعدالة والتطور باسم الخوف على الإيمان والمحافظة عليه، وحينما يبلغ العربي أن يصبح تفكيره تهديداً لإيمانه يصبح العربي شيئاً كبيراً نتمناه له. إن العربي يتلوث لكنه لا يلحد، لأن التلوث مستوى أعضاء، أما الإلحاد فمستوى عقل وأخلاق. ولو أن عربياً ألف أشرس كتاب ينكر فيه الإيمان ويطالب فيه بوقاحة أو ضراعة، أن يحكموا عليه بالزندقة، وأن يصدقوا أنه خرج من كل أبواب الإيمان! لما استطعت أن أصدق ذلك، لما استطعت أن أثق بأنه قد أصبح كذلك. لقد علمني ألا أثق بأنه يستطيع أن يكون

ذلك! ولظللت مصراً على أنه مؤمن، مؤمن بأعماق تاريخه، وبكل مستوياته النفسية والفكرية والأخلاقية. بل لاعتقدت أن هذا الكاتب وهذا الكتاب، ظاهره من ظواهر الإيمان المتوتر.. لاعتقدت أنهما إثبات للشيء بأسلوب نفيه، وهو أقوى أساليب الإثبات.. ولاعتقدت أن هذا المؤلف لا يعني إلا ما يعنيه الطفل حينما يقول لأمه: (لست أمي) أو ما تعنيه الأم حينما تقول لوليدها: (لست ولدي) إنه تعبير عن الاحتجاج المحب الحاني، أو عن الحب العصبي، أو التدلل والثقة التي لا نخشى عليها التكذيب. وهو لا يكون أبداً أسلوباً من أساليب الإنكار. إن أي عربي يحاول أن يقنعنا بأنه قد أصبح كافراً فلن يستطيع. إنه لا يستطيع، لأنه لن يستطيع أن يكفر! لأن الكفر عملية عقلية شاقة معقدة، وليس كلاماً. إن الكفر موقف فكري ونفسي وأخلاقي، والكلام ليس موقفاً. ما أصعب أن يكون المرء كافراً. إن أصعب من ذلك أن يصبح العربي كافراً. إن العربي لم يعودنا أن يقف المواقف العقلية الشاقة. إننا عاجزون عن امتداح العقل العربي إلى حالة الاقتناع بأنه قد يصبح كافراً...»[50]

---

(50) مقتطفات من مقال مطول لعبدالله القصيمي بعنوان (أنت لا تستطيع أن تكون ملحداً) راجع كتاب (أيها العقل من رآك) ص11، 12، 13، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2002م.

.. كنت أقرأها وأعيدها وأكررها، وأعيش بها عالماً آخر بعيداً عن الواقع، بعيداً عن الهموم وعن الإشكاليات، صديقيّ لقد كانت وما زالت نفسي هائمة تجول فيها من الهموم التي تتصارع مع هذه الإشكاليات الموجودة أو التي وجدت مع الزمن ومع علاقتي بصديقي! ولعمري لا أدري هل هي الحياة هكذا! أم أن خيالي قد صنع لي حياة أخرى أعيشها وحدي وخلع عني ما حولي من الموجودات؟! دائماً وأبداً أنسى نفسي وأضيع مكانها فأجلس حزيناً أبحث عنها إلى أن أجدها منزوية خلف تلك الشجرة! إلى هذا الحد كنت أهرب من الإسمنت المتمثل بالغرف إلى الطبيعة التي تمثلها تلك الشجرة! كانت نفسي وما زالت تعشق صوت الأوراق وتراقص الأغصان، لم أكن كغيري أتلذذ بمتع العيش التي كانت تخلق لنا في ذلك المحيط، لم أكن أحب الجلوس حول مائدة والمحور هو الضحك وكذلك لم أكن أحب الخروج إلى أحد الأماكن لزيارتها، تلك الرحلات التي كانت تنظم لنا في الملجأ والتي كنت أعتذر عنها وأتهرب منها وهذا قد سبب لي بعض المشاكل.. نعم لم أكن أشعر بأحد! كان صدري وذلك الفؤاد ينبجسان حسرة وألماً ممتزجين بندم! ولا تسألاني لماذا هذا الشعور؟! كنت أهرب إلى الأشجار دائماً وفي ذلك المكان لا أكاد أجلس حتى

تتمثل في خاطري ذكرى لم أعشها ولكني قد خلقتها في داخلي! ذكرى الأب والأم! فيخيل لي والذكرى التي محورها الكذب على الذات أن أبي الذي أحتقره وأمي التي أكرهها الآن نعم الآن يضحكان مع الناس ويمزحان مع الناس و الأغلب أن لهما أطفالاً يهتمان بهم ويراعيان مشاعرهم! وتتراءى لعيني تلك المشاهد التي خلقها الألم الذي يقتلني دائماً!!

أعلل نفسي بالأكاذيب والمنى
وقد ينفع الكذّاب في ساعة الشر[51]

.. صديقيّ أليس عجيباً هذا التناقض الذي أشعر به، هذا التناقض الذي يستوطن الذات، أليس عجيباً أن ما كان سبب سعادتي هو ذاته سبب شقائي وعلتي!! نعم إني عندما أقرأ شيئاً لذلك الصديق الذي عرفته في فوضى المشاعر أشعر أن الحياة جداً رائعة ويغمرني ما أقرأ بإحساس جميل وأرى الحياة والاستمرار فيها قمة المتعة والسعادة، ولكن وبعد أن أترك كتاب صديقي وأجلس وحدي يكون التفكير بما قرأت

---

(51) بيت لعبدالله القصيمي من قصيدة (أسف) راجع كتاب (الفصل الحاسم بين الوهابيين ومخالفيهم) ص8، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 2007م.

هو سبب وعلة شقائي! أليس عجيباً ذلك التناقض! هل أنا مسافر بطوعي وباختياري الذاتي أم أن ذلك الفعل هو الإجبار غير المجبر؟! سؤال يقتلني ويزيد الألم في عقلي: هل يستطيع الإنسان أن يسيطر على ذاته على إشكاليات الحياة التي يحياها! هل يستطيع أن يقفز عن ذاته ولا يشاهد ما بها من المتناقضات التي تشل العقل؟ هل أستطيع أن أجعل من الالتزام والتحديق إلى ذاتي واجباً يجب أن أقوم به من أجل أن أرى ذلك الشيء المبهم الذي يشابه الكواكب التي تدور في أفلاك وأفلاك لا حد لها ولا نهاية؟! إن حياتي عبارة عن أسئلة متعددة، أسئلة تجعل النوم بعيداً عني، أسئلة تجعلني مسجوناً في استفهاماتها وإشكالياتها.. الأسئلة والوجود والألم كل شيء ضدي يا صديقيّ حتى شعر رأسي إني أراه يهاجر وسيأتي يوم وأقول عنه: قد تلاشى!! وللأسف لم أكمل التاسعة عشرة من عمري! كل شيء ضدي!!!

هناك، هناك أريد أن أمضي: من الآن فصاعداً
أؤمن بذاتي.(52)

.. آهٍ يا دنيا! دعوني أستمر! أي وحشة مخيفة تقتحم

---

(52) مقطع من قصيدة (نحو بحار جديدة) فريدريك نيتشه راجع كتاب (العلم الجدل) ص 261، دار المنتخب العربي، لبنان، الطبعة الأولى، 1421هـ-2001م.

هذا الجسد الهزيل؟! كم تمنيت ورغبت أن أرقد وألا أستيقظ! فإذا خالف القدر تلك الأمنية وبدأت عيناي تشاهدان الشمس شعرت بحزن عميق وألم مرير! آهٍ.. يا ليتني أستطيع أن أجعل من ذلك الحزن الذي يستوطن الروح ماده لانبثاق روح أخرى تكون سعيدة.. صديقيّ لقد ضاع رشدي وأصبحت ميتاً ولكني حي! كل شيء حولي يثير في عقلي الكثير من الاستفهامات والمتناقضات، إنه شيء يجعل العقل ينفجر والوجود يتطاير، شيء يثير سخطي، يجعلني أرى كل المنطق معكوساً! أصبحت لي الحياة ومعرفتها قمة التناقض الذي أعيشه! كل ما أراه وأسمعه عكس المنطق الذي يجب أن يكون عليه! هنالك عندما أصاب بالشلل في حياتي ومنطقي أهرب! نعم أهرب إلى صديقي..

أسفت على علمي المضاع ومنطقي
وقد أدركا- لو أدركا- غاية الفخر
أرى كل قوم يحفظون أديبهم
ويجزونه بالعز والمال والشكر
خلا معشري؟ ما عندهم لأديبهم
سوى الحسد الممقوت والبغض والهجر
إذا قام فيهم ناشئ ذو مخايل
تدل على العلياء والحسب والحر

أطاحوه غضاً قبل أن يبلغ المدى
وقاموا على أعواده الخضر بالكسر
ومما شجاني أن أراهم إذا رأوا
غبياً دعيّ العلم والدين و الشعر
تولوه بالألطاف والعطف والرضا
وذلوا له ذل الحوادث للدهر
فكم عز فيهم من جهول مبلد
وكم ذل منهم من عليم ومن حبر
لقد ضقت ذرعاً بالبيان فإنني
رأيت بياني ناقصاً عندهم قدري
ورغبني في الجهل أني رأيتنا
يسود لدينا كل من لم يكن يدري
نوائب دهر تترك الحر حائراً
وليس بمظلوم لديه سوى الحر
يرى الجاهل المأفون فيه منعماً
له الفلك المسعود يجري بما يجري
له الناس والدنيا جميعاً خوادم
فهذا له عبد، وهذا له مطري
يزاد نعيماً كلما زاد جوره
ويكبر شأناً كلما زاد من كفر
أطاعت له الأيام حتى لو انه
تأبى طلوع الشمس ما طلعت تجري

متى شئت أن تلقى جهولاً مرأساً
وجدت كثيراً ذا جلال وذا يسر
وإن شئت حراً راضي العيش لم تجد
ولكنه بين المهانة والعسر
أعلل نفسي بالأكاذيب والمنى
وقد ينفع الكذّاب في ساعة الشر
فلولا رجائي والرجاء مخادعي
لعذت بشر لا يضيق به صدري
تذوقت أنواع البلاء فلم أجد
بلاء كمثل الظلم والذل والقسر
وما غاظني مثل امرئ ذي فهاهة
يسود علينا بالقضاء وبالوفر
تشك إلى ما منه أشكو ومفزع
إلى ظالمي، كيف الخلاص من الأمر؟
إذا ما نظرت الناس والرزق بينهم
تيقنت أن العقل ضرب من الفقر[53]

***

---

(53) أبيات مختارة من قصيدة (أسف) لعبدالله القصيمي راجع كتاب (الفصل الحاسم بين الوهابيين ومخالفيهم) ص7، 8، مؤسسة الانتشار العربي، لبنان، الطبعة الثانية، 2007م.

وعاد الصمت مرة أخرى، كل الوجود قد صمت! لأن أحمد صمت! كان مظلم الوجه، وقد امتزج بملامحه حزن وترقب. . . ذلك الوجه الذي لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره قد انبثق منه وجه لستيني ينظر ويتأمل ويتفلسف ويقول تجربته في هذه الحياة! عندما أتذكر أحمد وبالأخص في ذلك اللقاء أؤمن إيماناً جازماً أن التجربة والحكمة اللتين نبحث عنهما لا تقاسان بعدد سنوات الحكيم أو الفيلسوف بقدر ما تقاسان بقدرته على صياغة تلك الحياة حتى وإن كانت قصيرة على شكل تجارب يقدمها لنا. . ابن التاسعة عشرة ينظّر وكأنه فيلسوف على أبواب المائة! ويستمر مسلسل الهذيان. .

(16)

وأكمل فيلسوف الرياض يُنظّر قائلاً:

- صديقيّ إن السعادة ذلك الشعور الذي ينبجس من داخل الإنسان لم أعرفها قط إلا في لحظة قد تكون عكس معنى السعادة عند الآخرين ولكنها بالنسبة إليّ هي سعادتي، إني عندما أتذكر الموت أرتاح لأن هذه المسرحية الهزلية سيأتي يوم وتنتهي بوجود الموت! إني أتمنى الموت أكثر مما أتمنى البقاء!!

ربي متى أرحل عن هذه الد
نيا فإني قد أطلت المُقام
لم أدرِ ما نجمي ولكنه
في النحس مذ كان جرى واستقام
والعيش سقمٌ للفتى مُنصِبٌ
والموت يأتي بشفاء السقام

والـــتـــراب مـــثـــواي ومـــثـــواهـــم
ومـــا رأيـــنـــا أحـــداً مـــنـــه قـــام[54]

فترة تأمل تكتسح الطاولة، تأمل لتلك الكلمات التي خرجت من قلب وعقل ذلك الفيلسوف الشاذ! ويعود أحمد متحدثاً وهو يشاهد مناظر البرجوازية هنا!

- صديقيّ نحن جدد! أتعلمون معنى جدد؟! مصطلح فلسفي أخترعه الآن أنا! نحن أناس ولسنا بأناس، نحن من لا اسم لنا! نحن يا صديقيّ بلا وطن! نعم نحن لا وطن لنا! لا وطن لنا! أين هو؟! نعم أين هو الوطن الذي تجتمع فيه كل الأوطان؟! أرجوكما إني أختنق! افهماني! الوطن هو مسكن الروح وليس الجسد..

صاح شاهين بوجه الدنيا وبكل حزم قائلاً:

- نعم، نعم، إني أفهمك يا أحمد.. أفهمك..

وبحركة سريعة أخرج شاهين من جيبه تلك الورقة التي كنت أتساءل ماذا تحوي ولماذا كل الاهتمام بها؟! وضع الورقة أمامه وأكمل يناجي الوجود قائلاً:

- لا وطن لنا، في البارحة كنت أعيش الغربة بكل تفاصيلها، حاولت أن أجعل من تلك الغربة لوحة فنية ولكني

---

(54) أبيات لأبي العلاء المعري راجع كتاب (اللزوميات) ص 212 دار الجيل، بيروت، طبعة 1969م.

فشلت! هربت مسرعاً إلى القلم، أمسكت القلم، وجلست أكتب كلمات، كلمات ليست أي كلمات، كلمات كتبها القلب، كلمات تناثرت بين حروفها دموع الغربة! كنت أكتب مشاعري، ولا أدري ما اسم تلك الكلمات التي خطها قلبي! هل هي شعر أم خواطر أم خربشات غريب!؟ لا أدري ولكني كتبت وحسب! كتبت مشاعري، أوليس الشعر تعبيراً عن مشاعر إنسان على شكل كلمات موسيقية؟! لقد كتبت وحسبي ذلك، كتبت ولا أهتم إلا بأني قد ارتحت بعد أن انتهيت من كتابتها!

مواطن بلا وطن
أعيش في الصحراء
بلا وطنٍ مولاي
أرقد على مخدة البكاء..

حياتي تمتلئ بالخوف والدموع
بلا وطن أعيش
لا قلب يضمني
حتى الحب عندي مقطوع..!

مسافرٌ أنا على سفينة الأحزان

لا شاطئ أرسو عليه..
لا مرفأ يقبلني
لا موج ينتشلني
مكومٌ أنا داخل الأقفاص كالجرذان!!

حياتي، آهٍ منها.. بلا أي ثمن
أموت كل ساعة
بل كل دقيقة
ولا يجمعني أي كفن..!

تمر الشهور والسنوات
وأنا كما أنا
بلا وطن مولاي
مسجون داخل الخرابات!

ليست لي أم تمنحني من وقتها الكثير
ليس لي أب
آهٍ مولاي
لا أملك غير نشيج يخرج وأنا بالسرير!

سنوات مرت وأنا بلا وطن

مرت كالجبال
ثقيلة، كئيبة، مملة، متعبة!
حتى طفولتي لم أقضها كما الأطفال!

مواطن بلا وطن
أعيش وحدي
مولاي
بلا حضن. . . !

- بلا وطن، بلا حضن، إنك اختصرت الكثير من المشاعر التي تمتلئ بها الدنيا يا شاهين، اختصرتها بكلمات تعبر عن الألم! بلا وطن، ويستمر اليأس والنتيجة بلا أي ثمن مولاي، إنها تعبير عن اليأس من الواقع الذي يتلاشى بوجود وحصول الرابطة الاجتماعية، نعم إن اليأس هنا هو يأس الواقع الذي نعيشه ونحاول بكل ما نملك أن نتعايش من خلاله قسراً! نحاول أن نواجه نظرات ذلك المجتمع القبلي! ذلك المجتمع الذي لا يتكلم وإنما هو يطرد بعينيه الآخر! الآخر الذي يعيش بلا وطن وبلا أهل.. نحن ببساطة جدد وإن طال بنا الزمان سنظل كذلك!

قال كذلك أحمد وهواء الوجود أصبح اسمه الآن: الحزن والألم واليأس!!

كانت فكرة التحدث عن اليأس من الواقع وإخراج الحزن المستوطن في ذواتنا سوف تجنح باللقاء إلى طريق آخر ومسار غير المسار الذي استحدث له وهو الاحتفال بنتيجة أحمد، كنت موقناً أني لو أعطيت أحمد مجالاً للحديث فسيتكلم كثيراً عن اليأس الذي يعيش في داخله أكثر منا نحن الاثنان! اتخذت قراري بأن أتخلى عن جلباب الصمت الذي لبسته في أغلب فترات اللقاء، جلست أفكر: كيف أجعل محور الحديث يتغير بطريقة لا يفهمانها وفي الوقت نفسه يكون هذا التغيير مشوقاً لهما!؟ جلست أجمع أفكاري التي تطايرت باحثة عن ذلك الوطن! وبعد لحظات أصبح سامي يمثل أرقى نموذج للكذب على الذات والهروب من الواقع! نعم لقد اخترت أن أكون كذاباً من أجل أن يكون احتفالنا يحوي القليل من الفرح! ألا يحق لنا الفرح! اعتدلت في جلستي مصدراً صوتاً يوجه الانتباه لي، قلت ولساني في باطن جسدي ونظراتي تقتحم وجه أحمد!

- أحمد يا فيلسوفنا: لماذا الفلسفة ولماذا التفلسف، ببساطة ما هو هدف الفلاسفة من إيجاد واختراع الفلسفة بنظرك؟!

(17)

بدأ ذلك الفيلسوف يستعد للإجابة عن أهم سؤال طرح حتى الآن في لقاء الأصدقاء، هل يستطيع عقل ذلك الفيلسوف أن يدرك الإجابة؟! بدأ أحمد يتأملني وهو يبتسم وكأنه يعلم هدفي الأساسي من طرح ذلك السؤال، وفجأة اختفت تلك الابتسامة وبدأ يتحدث بكل هدوء ورفق قائلاً:

- لماذا الفلسفة ولماذا التفلسف؟ وما هو سبب وجود واختراع تلك المذاهب الفلسفية في عقل أي فيلسوف؟! ببساطة لماذا خُلقت الفلسفة وخرجت لدى هؤلاء؟ إن الإجابة عن هذه التساؤلات قد تحتاج لوقت طويل وجهد مضاعف ولكن المدخل الذي من خلاله نحصل على إجابة شافية ومبسطة لهذه الاستفهامات السابقة هو: أليس الفيلسوف إنساناً والإنسان هو أناني وذاتي! نعم إن الإنسان هو كذلك أبداً في كل مكان وأي زمان! إن فهمنا لهذه النظرية وهي أنانية الإنسان يجعلنا نستطيع أن نحصل على إجابة مرضية لكل التساؤلات السابقة، ذلك أن الفلسفة ومذاهبها وجدت

وتكونت لسبب ذاتي! لأن الإنسان كما قلنا سابقاً أناني مهما بلغت لديه الأخلاق ومبدأ العطاء! هذا الأناني الذي يمثل نموذج الأنانية هو بكل عمل فكري أو نظري أو ما شابه ذلك هو من خلاله يسعى لمصلحة ذاتية أنانية تمثل أرقى نموذج في حب الذات، فكما أن العاشق المتيم بتلك الفتاة هو في الواقع يمثل أحقر نموذج للأنانية لأنه بحبه وعشقه لتلك الفتاة هو يتلذذ، أي أنه يتلذذ بحبها ومعنى ذلك أن حبه هو لذاته لأنه بهذا الحب أو بوجوده يصبح سعيداً! فهذا الحب يمثل إحدى صور الأنانية لأنه بكل بساطة يعطي من أجل أن يأخذ ويستحيل أن يعطي فقط من غير أن يأخذ! وهذه الأنانية نجدها في أحقر صورها أثناء الممارسة حيث نلاحظ أن الرجل وكذلك المرأة كلاهما يسعى لإمتاع نفسه على حساب متعة الآخر! أعود فأقول إن وجود أية فكرة فلسفية جديدة من أجل تطبيق مبدأ الأنانية لدى مخترعها وتطبيق هذه الأنانية لا يكون إلا من خلال السياسة والمجتمع، لأن السياسة تعبر بالقول وكذلك الفعل عن أفكار وأنانية ذلك الفيلسوف، نستنتج إذن أن خلاصة مذهب أي فيلسوف هي السيطرة واقتحام السياسة لأنها محور الوجود الاجتماعي والمسير له، فكل الفلاسفة يكتبون أكثر ما يكتبون عن المجتمع وفلسفة الاجتماع وكذلك طبقات المجتمع وطريقة التعامل مع الآخر، فالخلاصة أن الفلاسفة هم أكثر المغرمين عشقاً بالسلطة، لأن

هذه السلطة ترسخ فلسفة الفيلسوف على الواقع الاجتماعي والسياسي وأكبر دليل على ذلك الماركسية، وهذه القاعدة التي قلناها نجدها واضحة جلية في أفكار هؤلاء حتى وإن كانت كتاباتهم تتنافى مع ذلك!!

قال شاهين موجهاً كلامه لأحمد:

- هل تقصد إذن أن السياسة هي لعبة الفلاسفة وهي الساحة التي لأجلها وجدت أغلب الفلسفات؟

رد أحمد فقال:

- نعم ذلك ما أقصد، وأكبر دليل على ذلك أن الفلاسفة العظماء هم سياسيون بالدرجة الأولى وكتبهم موجهة بالأساس نحو الميدان السياسي والاجتماعي، فالسياسة هي التي تنظم المجتمع، وعندما أذكر مصطلح السياسة فإن الدولة هي التي تمثل السياسة، وبما أن من حق أي إنسان أن يعيش في حرية وينعم برغد من العيش والأمن لذلك وجب إيجاد نظام يكفل ويحافظ على هذا الحق، ولأجل ذلك تم استحداث الدولة بوصفها المكان الذي يتمكن فيه الإنسان من تحقيق حريته والحفاظ عليها وعدم الإخلال بتلك الحرية، هذه الدولة التي تمنح الأفراد كل ما يرغبون وتبذل كل ما تملك في سبيل أن تمكن هذا الإنسان من تحقيق مصالحه ورغباته هي في الوقت ذاته تجعل من تلك المصالح مصالح ورغبات توجهها نحو المصلحة العامة للدولة وهنا تنفي الذاتية

في إطار العامية، فهي تحاول وتسن القوانين والإجراءات التي تكفل التوفيق بين حرية الأفراد وبين المفهوم الأساسي للدولة وهو الحفاظ على المصلحة العامة.

- هل تقصد أن المهمة الكبرى للدولة هي التوفيق بين المصلحة الذاتية للأفراد وبين المصلحة العامة للدولة، أي مصلحة أفراد المجتمع كافة وهذا التوفيق يحصل بسن القوانين والتشريعات التي تكفل وجود هذا التوافق؟

قلت كذلك وكأني أحد أعظم من كتب في فلسفة السياسة!

عاد فيلسوف السياسة يتفلسف قائلاً:

- نعم هذا ما أقصده فالسياسة تجعل من الدولة نموذجاً مثالياً، ويغلط الكثيرون عندما يعتقدون أن مصطلح السياسة يقصد به فن التعامل مع الدول الأخرى وهذا فهم خاطئ، فالسياسة هي فن التعامل مع الغير بكل الاختلافات الموجودة في هذا الكون وهذا التعامل يبدأ مع المرؤوس إلى أن يصل إلى فن التعامل مع أي ثقافة أو دولة أو فئة معينة تختلف فكرياً عن هذا السياسي.

ويستمر السياسي الأول متحدثاً فيقول:

- إن هذا العالم هو مجموعة من الثقافات وهنالك قاعدة تقول: بما أن كل واحد يختلف عن الآخر فمعنى ذلك أن هذا الاختلاف الناشئ بيننا سيؤدي لا محالة إلى أن كل

واحد منا يهدد وجود الآخر، وهذه القاعدة الفلسفية نراها بشكل ملموس فالحروب تقوم على هذه القاعدة "**بما أنك تختلف عن ثقافتي، إذن أنت تهدد وجودي، لذلك يجب القضاء عليك**" وهنا نجد الفن لدى السياسي وذلك بتطبيق المفهوم الشامل والصحيح للسياسة وهو فن التعامل مع الآخرين على اختلاف ثقافاتهم ومستوياتهم وجعل هذا الاختلاف مفيداً لمصالحي الذاتية، والذاتية هنا نقصد بها ذاتية الفرد السياسي أي ذاتية الدولة ومصالحها.. إن السياسي الناجح هو الذي يسيّس كل الأحداث لمصالح دولته وسياستها ويجعل من أي اختلاف بينه وبين الآخر مادة لمصلحة ثقافته وليس تهديداً لوجودها، وأكبر مشكلة تواجه السياسي هي مرض ينشأ منذ كان صغيراً هذا المرض الخطير قد يجعل من السياسي فاشلاً وهذا بدوره قد يؤدي إلى اضمحلال الدولة أو تقلص سياستها! إن هذا المرض هو مرض التردد، والتردد هنا أقصد به الإجبار على الإقدام على عمل معين ليس من باب الاختيار ولكن من باب الإلزام عليه، والتردد الناشئ هنا هو التردد في إكماله ولكن قرار اتخاذه الإجباري قد حسم منذ وقت مضى، فالتردد هنا وجد لأن السياسي قد جعل من اختياراته متلاشية ولم يبق له سوى هذا الاختيار الذي يجب عليه أن يقوم به، والمرض هنا أن السياسي أجبر نفسه وسياسته على أن تصبح في ركن صغير لا

يتيح لها أي اختيارات وإنما يجبرها على فعل هذا الاختيار، وللأسف هنا يصبح السياسي والسياسة التي يمثلها قريبة جداً من النهاية!!

إن اتخاذ القرار المناسب وفي الوقت الأنسب والرؤية البعيدة هو الذي يصنع سياسياً ناجحاً، وصناعة هذا السياسي أو الحاكم أو الإداري أو القائد الميداني كل هؤلاء يمثلون نموذج السياسي لأنهم يطبقون سياسة معينة تؤدي إلى المصلحة العامة للدولة. إذن كل مواطن في هذا العالم هو نموذج مبسط أو نموذج مكبر لمفهوم السياسي. أعود إلى صناعة هذا النموذج المهم الذي ترتقي به الثقافات، فصناعته تحتاج للاهتمام به منذ كان طفلاً صغيراً، لأن هذا الطفل سيكون في المستقبل مسؤولاً عن فئة معينة قد تكون أسرة أو جماعة أو إدارة وقد تكبر المسؤولية لتصبح دولة، ومن أجل ذلك كان الاهتمام بالتربية لدى الأسر الحاكمة لأطفالها منذ كانوا صغاراً..

- كيف نصنع من ذلك الطفل في طفولته وأثناء مراهقته وفي المراحل الأولى من حياته زعيماً ومفكراً ومتطلعاً للأفضل؟

قال كذلك شاهين منتظراً الإجابة من صاحب الفلسفة الأولى!!

رد أحمد وهواء بارد يحتل الوجود ويجعل اللقاء أكثر متعة:

- قبل أن نحاول الإجابة عن هذا السؤال المهم يجب أولاً أن نعيد الأمور إلى نصابها، فالإنسان منذ خلق ووجد على هذه الأرض كان دائماً يتخذ له زعيماً أو قائداً أو رئيساً على اختلاف المسميات المهم هو رجل يسير شؤونه ويرتب حياته ويكون حاكماً وقاضياً بين البشر، حتى الحيوانات تتخذ نموذجاً للزعيم المتبع الذي تجري خلفه وتتبع ما يذهب إليه، فوجود الحاكم من أعلى سلطة عبر التسلسل الطبيعي الاجتماعي إلى رب الأسرة هو أمر فطري وسليم ويجب أن يستمر ويستحيل أن يكون القرار النهائي بيد أكثر من رجل، قد يكون هنالك مستشارون أو مساعدون وما شابه ذلك ولكن يجب أن تظل مسألة اتخاذ القرار النهائي بيد رجل واحد فقط وهذا ما نعني به الاستقلالية في القرار مع أخذ المشورة من أصحاب الرأي والكفاءة..

لا بد للشاة من راعٍ يدبرها
فكيف بالناس إن كانوا بلا والِ
وإن أضيف إلى الأذناب أمرهم
دون الرؤوس فهم في حال إهمال[55]

---

(55) أبيات لعبيدالله (223-300هـ) بن عبدالله بن طاهر. راجع كتاب (تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق المِلك و سياسة المُلك) (أبو الحسن الماوردي، ص233، دار العلوم العربية، لبنان، الطبعة الأولى، 1987م.

أعود يا صديقي إلى سؤالك المهم: كيف نصنع زعيماً ناجحاً وإدارياً ذكياً وقائداً ملماً وحاكماً فذاً؟ هذا السؤال هو أهم سؤال في المحور التربوي وفي فلسفة التربية وقد كُتب بسبب هذا السؤال الكثير من المؤلفات والبحوث والدراسات، فمن المعروف أن الاهتمام بالإنسان دائماً يبدأ منذ الصغر لذلك نجد أن العوائل الحاكمة تهتم بتربية أطفالها وتنشأتهم بطريقة ترسخ في مفهومهم مسألة الحكم والحفاظ عليه وكيفية التعامل مع الآخر، وتلجأ بعض من تلك الأسر إلى التربية العسكرية لأن الحياة العسكرية تصنع في ذات الإنسان الصبر والفطنة... إن صناعة الرجل الأول هي أصعب الصناعات، فكما نعلم أن الصناعات على اختلافها يظهر منها أصعب صناعة وهي صناعة الإنسان، فكيف إذا كان هذا الإنسان هو الرجل الأول الذي سيقود كل شيء هنا تصبح المهمة أكثر صعوبة، إذا رجعنا إلى التاريخ السياسي ورواد الفلسفة الاجتماعية السياسية مثل ابن خلدون وابن الأزرق وكذلك الماوردي نجد أن هؤلاء الفلاسفة الإسلاميين اتفقوا على أن الدين هو المدعم لوجود الدولة وبقائها، وأن دولة بلا دين هي قريبة من الزوال ومن أجل ذلك رأى هؤلاء الفلاسفة أن تربية الرجل الأول يجب أن تكون من خلال فهم وإدراك الدين لأنه بهذا الدين سوف ينشأ روحياً قبل الجسد، والروح في عملية التربية هي الأهم، وكذلك فهذا الرجل

الأول هو القاضي، والقاضي هو أمام ميزان الحق والباطل ولهذا يجب أن يدرس الدين ويفهمه بكل عمق..

.. صديقيّ إن الدين والقراءة وخاصة قراءة التاريخ وتجارب السابقين هي بكل بساطة ستقود إلى فهم الحاضر ومحاولة استشفاف المستقبل، فعندما نقرأ كتاباً يتكلم عن دولة ما لنفرض أنه يتحدث عن الإمبراطورية الرومانية أطول إمبراطورية عرفها التاريخ عمراً، بما أن هذه الإمبراطورية عاشت طويلاً لأجل ذلك يجب أن ندرس ونفهم الأسباب والظروف لاستمرارها وعدم سقوطها وندرك كل ماله صلة بتلك الفترة التي عاشتها، لأن قراءة كتاب كهذا الكتاب هي قراءة الماضي أي قراءة التاريخ وبما أن المؤرخ الذي ينقل لنا هذا التاريخ مفكر وفيلسوف تاريخي فأكيد أنه سيمنحنا النصائح المدعومة بالتجارب، ومعلوم أن النصيحة التي تقوم على تجربة أذكى وأعمق في الفهم من نصيحة تقوم على الحدس والتوقع، هذه النصائح هي ما نسميها: خلاصة التاريخ، فالتاريخ يعيد نفسه وما حصل بالأمس سيحصل قريباً فالحياة الاجتماعية دائرة تدور وتتكرر الأحداث فيها، لذلك يجب علينا أن نأخذ الحوادث السابقة ونفهمها فهماً عميقاً يؤدي إلى استخلاص القواعد التي تقودنا إلى الطريق الصواب في المستقبل، فالحاضر هو امتداد الماضي، والمستقبل هو

الذي يجمع بين الحاضر وذلك الماضي، لذلك يجب أن نقرأ الماضي ونأخذ الدروس والعبر من كل أمة سبقتنا..

- لقد صدقت يا أحمد فالعبرة والاتعاظ وأخذ الدروس المفيدة ممن سبقنا من الأمم، وكذلك التفكر في كل ما مضى هي من أوليات هذا الدين العظيم. يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الروم: (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم... الآية) وغير ذلك من الآيات التي تأمر بالنظر إلى الماضي وفهمه ودراسته وأخذ العبرة منه..

كذلك قال شاهين داعماً ما قاله صديقه وهواء بارد يزور شارع البرجوازية معلناً اقتراب منتصف الليل ونسماته...

(18)

ويستمر أحمد مخرجاً ما يحمله عقله الذي تأمل وقرأ كثيراً:

- إن الاهتمام بالمستقبل لا يستقيم إلا بالنظر إلى الماضي، لأن فهم ذلك الماضي هو أبسط طريق للحصول على لغز المستقبل وهذا هو الفرق الكامن بين الإنسان والحيوان!

- الإنسان والحيوان، ماذا تقصد بذلك يا أحمد؟!

قلت كذلك خارجاً من كهف الصمت الذي أعيش فيه..

نظر أحمد إليّ وحرك يده واضعاً إياها على فخذه الأيمن وقال:

- نعم إن النظر إلى الماضي هو"الفرق البارز بين الإنسان والحيوان فالحيوان يسير بحواسه وليست لديه أية مفاهيم عن الماضي وإنما يكيف نفسه لواقعه في حاضره، بينما حُبي الإنسان بالعقل الذي يتفهم به تسلسل النتائج فيرى مسببات الأحداث ويدرك العلاقات بين السبب والنتيجة وبين

النتيجة والسبب ويرسم المقارنات ويربط بين الماضي والحاضر ويستعرض بسهولة سير حياته كلها ويقيم الاستعدادات المطلوبة لكل ما يعمله»[56]

عاد شاهين إلى التحدث ووجهه الذي أصبح أكثر اصفراراً فقال:

- الربط بين الماضي والحاضر إنه الربط بين الأحداث الماضية، بين النتيجة والسبب وجعلها نماذج متوخاة لمعرفة ومحاولة إدراك المستقبل، أي أننا نهتم بالنتائج المسببة للأحداث وذلك لاستحداث القواعد..

ها هو أحمد ذو الوجه الملائكي والنظرة الثاقبة يرد على الفور قائلاً:

- صدقت يا شاهين إن هذا المصطلح الذي استخدمته (النتائج المسببة للأحداث) هو أسلوب فلسفي كتابي نجده بجلاء لدى فيلسوف السياسة الإيطالية نيقولو ميكافيلي حيث استخدم هذا الأسلوب في تأليف كتبه، فنلاحظ أنه يأخذ تجربة معينة من الماضي ليستخرج منها قاعدة سياسية معينة

---

(56) هذه الكلمات لماركوس توليوس شيشرون (106-43ق م) من أشهر خطباء روما ورجال سياستها. راجع كتاب (مطارحات ميكافلي)، ص114 بتصرف، ترجمة خيري حماد، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1982م.

فهو بذلك ربط الماضي بالحاضر ليصنع فلسفة تستخدم لاكتشاف المستقبل، إنه بكل بساطة أرجع النتائج التي حصل عليها إلى أسباب الحوادث التي وقعت في الماضي.

هتفت بصوت قوي وعلامة التعجب مستقرة على نظراتي فقلت:

- ميكافيلي، فيلسوف السياسة الإيطالية.. أخبرني عنه؟!

قال أحمد وهو يبتسم لصديقه:

- إنه نيقولو ميكافيلي، أول من استخدم مصطلح "دولة" على مر التاريخ، إنه الفيلسوف ورجل السياسة الإيطالي الذي تنسب إلية الفلسفة الميكافيلية تلك الفلسفة التي لا تقيم أي وزن للأخلاق والقيم وكذلك الشرف! إنها تستخدم أية وسيلة مشروعة أو غير مشروعة لتبلغ أهدافها! إنه مخترع مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة أو الواسطة). هذا السياسي الذي نصح حكام إيطاليا بألا يحرجوا أو يخجلوا من اختيار أية وسيلة المهم هو الوصول إلى الأهداف المتوخاة! إننا عندما نقرأ أشهر كتبه وهو (الأمير) ذلك الكتاب الذي ينصح فيه ميكافيلي أحد أمراء إيطاليا، نرى في مضمون هذا الكتاب وغيره من مؤلفاته قمة من قمم الإلحاد الاجتماعي والبعد عن القيم الإنسانية وعدم التقيد بما تمليه الضمائر البشرية! وأستغرب عندما يأتي أحد المرتزقة من أولئك المدافعين عنه ويقول: "إن عصر مكافيلي الذي عاش فيه هو السبب الرئيسي فيما كتبه وآلت

إليه نظرياته!!" شيء غريب هل يحق لنا أن نرمي القيم الإنسانية في عصر والأخلاق في عصر! هل تتغير القيم والثوابت الاجتماعية الصحيحة التي يقبلها المنطق والعقل باختلاف الزمن؟! إن السياسة لدى ميكافيلي هي التسلط والاستبداد والقمع من أجل الوصول إلى الهدف! ولكن وعلى الرغم من أن هذا الفيلسوف الذكي قد وضع قواعد وحشية إلا أن له بعض الأفكار التي نرى أن العقل يقبلها وينشرح لها.. إن هذا الفيلسوف قد مثل دور رجل السياسة الفطن عندما أمسك قلمه ليكتب أفكاره، فنلاحظ أنه قد اختار أحداثاً تاريخية من تاريخ أوروبا والإمبراطورية الرومانية وكذلك تاريخ إيطاليا وأسرها واستخدم تلك الأحداث الماضية كدعائم أساسية يقيم ويؤسس عليها نظرياته التي استوحاها من الماضي، ذلك الماضي الذي يصرخ قائلاً: اقرأني كي تزداد حكمة ودهاء... إن ميكافيلي في (الأمير) وكذلك (المطارحات) يمنح السياسي الناشئ الذي لم يشتد عوده، ذلك المبتدئ في ميدان السياسة قواعد أساسية للنجاح في نظره، فيذكر بعض النظريات التي يجب على ذلك السياسي أن يتبعها، وهذا الأسلوب الميكافيلي هو أسلوب دروس السياسة فمثلاً نراه يوضح لذلك الرجل الأول أو لذلك السياسي بصفة عامة أمرين هامين هما: كيفية إقامة نظام حكم جديد والأمر الآخر هو كيفية الحفاظ على هذا

النظام من التمزق والاضمحلال بأية طريقة أكانت مشروعة أو وحشية! أعود فأقول وعلى الرغم مما في فكر ميكافيلي من الوحشية إلا أنني أنصح بقراءة وفهم عقل ذلك المفكر، ومحاولة أخذ الجيد وترك الرديء الذي لا يتناسب مع المنطق الأخلاقي، فالسياسة قبل أن تكون سياسة هي أخلاق..

تدخل شاهين متحدثاً فقال:

- قبل أن تنصح بقراءة ميكافيلي، إني أنصح بقراءة زعيم الفلاسفة و أستاذ الفلسفة الاجتماعية والسياسية ابن خلدون، العبقري المسلم مؤلف كتاب العبر الذي يحوي في المجلد الأول أهم مرجع في علم الاجتماع والسياسة وهو مقدمة ابن خلدون، فهذا العبقري هو من وضع الأسس المتينة لعلم السياسة، فلنتوقف تقديراً واحتراماً لهذا العقل الفلسفي النادر..

هتف أحمد وهو يمد يده نحو الطاولة متناولاً كأساً من الماء قائلاً:

- ابن خلدون إنه مؤسس علم الاجتماع السياسي، منشئ المرتكزات الأساسية التي منها انطلق علم الاجتماع السياسي، وليس أدل على ذلك ما تحتويه مقدمته من أفكار وقواعد يستطيع بها السياسي أن يجعل من المجتمع البسيط مجتمعاً قوياً تحكمه قوانين وتسير شؤونه دولة، إن السياسة

لدى ابن خلدون هي التقيد بالأخلاق والقيم الإنسانية وكذلك المثل التي أتى بها الدين، إن السياسة لديه تعني الالتزام بقواعد المجتمع الذي يحيا به ذلك السياسي وأن أية مخالفة لتلك القيم والمبادئ ستسقط السياسي مهما كان ومهما أصبح!

وبهمس طفل صغير غير بالغ! وبهمس طفل في ميدان الثقافة قلت:

- ما هي نظرية ابن خلدون؟

عاد أحمد وبهمس مثقف واثق بقدراته الحوارية، وبهمس رجل انتظر كثيراً فرصة ليخرج ما عرفه وفهمه قائل:

- إن نظرية ابن خلدون في السياسة تسمى "النظرية العصبية الخلدونية"وهي تعني العصبية التي بها تقوم الدولة، فهو يرى ألا قيام لأية دولة من دون وجود عصبية لها، هذه العصبية التي استحدثتها تلك الدولة تجمع وتضم كل العصبيات الأخرى في محيطها، وفي نظر ابن خلدون هي قوام ذلك المُلك وعدم زواله، ونلاحظ كثرة ما يستخدم ابن خلدون مصطلح"العصبية" في كتاباته، تلك العصبية التي تؤدي إلى التحام فئات المجتمع المتعددة وتناصرهم، وهذه العصبية في نظر ابن خلدون في الدين وليس في سواه، فالعصبية الدينية تمثل الدعوة الدينية وكما يقول ابن خلدون إن هذه العصبية تضفي علىٰ أية دولة ناشئة قوة تضاعف من قوتها

مرات، ونستطيع أن نلاحظ أهمية تلك النظرية العصبية فمثلاً لو وجد وطن معين تكثر فيه العرقيات والملل فإن التعددية هنا قد تضعف الدولة وتقلص من نفوذها وسلطتها لأجل ذلك يجب على الدولة أن تبحث عن عصبية تجمع كل المتناقضات في إطار وحدوي، لأن عدم اجتماعها سيؤدي لا محالة إلى التفكك والتمزق بسبب أن كل طرف يرى في الطرف الآخر الذي يختلف معه نموذجاً يتحين الفرصة لأكل كل شيء والاستيلاء على الدولة..

أضاف شاهين متعة أخرى إلى هذه المناقشة عندما قال:

- لقد أبدع ابن خلدون في صياغته للتاريخ الاجتماعي، فهو واضع اللبنات الأولى لعلم الاجتماع السياسي بلا منافس، وكذلك هو من أوائل من استخدم نظرية الأطوار في صياغته للتاريخ البشري..

- الأطوار!؟

قلت كذلك متعجباً، منتظراً الفرج!

ابتسم أحمد، ابتسامة الواثق بقدرته على الإجابة وتكلم فقال:

- إن نظرية الأطوار التي استخدمها ابن خلدون في صياغته للتاريخ الاجتماعي هي بكل بساطة تتلخص في أنه يصور التاريخ البشري على شكل فترات ومثال ذلك أن يجعل من التطور الاجتماعي من البداوة إلى الحضارة طورين هما

البداوة التي انتقل منها إلى الحضارة، وهذه النظرية في التأليف التي يتم بها تقسيم التاريخ على شكل أطوار متعددة استخدمت كثيراً لدى المؤلفين في السابق، فابن خلدون عندما فكر أن يكتب فلسفته في الاجتماع كان يعيش في زمن التحولات التاريخية ذلك الزمن الذي فصل بين نهاية تاريخ وبداية تاريخ آخر، وقد عمل ابن خلدون على التدقيق والرؤية الثاقبة لذلك الزمن المنصرم الذي بنهايته بدأ يتشكل تاريخ جديد. وبفضل الرؤية الثاقبة والفكر الفلسفي الذكي كتب ابن خلدون أعظم ما كُتب في فلسفة الاجتماع على مر العصور الإنسانية.

عاد شاهين ليتدخل في هذه المناقشة قائلاً:

- لقد قرأت مؤلفات ابن خلدون وكذلك ميكافيلي وإني أرى فيما كتبا تشابهاً كبيراً وفلسفة متقاربة إلى حد ما! فهل صحيح أن ميكافيلي قد أخذ من نظريات ابن خلدون ونسبها له بطريقة غير مباشرة أم أن هذا التوافق الفكري هو صدفة؟

عاد أحمد ليزيل تلك الحيرة في عقل شاهين قائلاً:

- قبل التحدث عن هذا التوافق الفكري بين الاثنين أريد أن أوضح شيئاً قد يغيب عن بال الكثيرين وهو أن أغلب السياسات والقواعد المتبعة في اللعبة السياسية الدولية الآن تعتمد بشكل كبير على أفكار وأطروحات ميكافيلي ولكن على الرغم من هذا الاعتماد فإن رائد فلسفة الاجتماع السياسي الذي بأنامله كُتبت قواعد وشروط اللعبة السياسية هو ابن

خلدون. . أعود إلى مسألة التوافق الفكري بين الاثنين، لقد قلنا سابقاً إن التاريخ البشري دائماً يتكرر والماضي الذي تلاشى ومات قد يأتي يوم ويصبح هو ذاته الحاضر، إننا إذا قرأنا سيرة ابن خلدون وكذلك ميكافيلي سنرى بكل وضوح ظروفاً متشابهة على اختلاف الأزمان، فالطموح السياسي المشترك الذي لم يتحقق لدى الاثنين، فابن خلدون عندما أيقن أن حلمه السياسي صعب المنال وهو ابن الثالثة والأربعين قرر الاعتزال والتفرغ للكتابة وهذا ما عمله ميكافيلي عندما رأى أن حياته السياسية قد انتهت فاعتزل وعاش في وحدة وكتب (الأمير). هذا التشابه في الظروف الاجتماعية الواحدة يؤدي إلى خروج فكر فلسفي متقارب إلى حد كبير، لكن وعلى الرغم من هذا التشابه الكبير بين الفكر الخلدوني والفكر الميكافيلي إلا أننا نرى وبكل وضوح نماذج في الاختلاف بين الفكرين، فمثلاً يرى ابن خلدون أن فساد الدولة ومحاولة إرجاعها إلى الفضيلة أمر مستحيل! فكما أن للإنسان عمراً معيناً ينتقل به من الطفولة مروراً إلى مراحل متعددة إلى أن يصل إلى مرحلة الكهولة فإن الإنسان في هذه المرحلة من عمره يستحيل إرجاعه إلى طفولته وكذلك الدولة فإن لها عمراً محدداً يستحيل أن نعيد ذلك العمر! بينما نلاحظ أن ميكافيلي لا يرى في إرجاع الدولة من الفساد إلى الصلاح أمراً مستحيلاً، وأنا أتفق مع رأيه لكن بشرط وجود حاكم صارم همته عالية، فالشر والفساد في الدولة هما ذاتهما

الشر والفساد في الإنسان، والإنسان قد يكون شريراً ويتحول بقدرة إلهية إلى إنسان فضيلته تتعدى حدود ذاته[57]... إن ابن خلدون وميكافيلي قد وضعا اللبنة الأولى لعلم جديد، وهذه الأسبقية تضعهما في مصاف فلاسفة الكون وتكمن الأهمية الحقيقية "في كونهما حددا بوضوح النطاق المعرفي الذي بدونه لا يمكن فهم السياسة ولا التحدث عنها"[58] فهما من جعل من السياسة ثقافة..

تدخل شاهين موجهاً كلامه لأحمد ووجهه الذي اكتسى شحوباً أكثر مما سبق، قائلاً:

- "من جعل من السياسة ثقافة" جملة جميلة جداً، سياسة وثقافة، هل تظن يا أحمد أن المثقف العربي يستطيع أن يكون سياسياً ناجحاً؟!

تردد أحمد كثيراً في مسألة الإجابة عن هذا السؤال الكبير! كان التردد واضحاً على محياه ولكنه فجأة أعلن أنه أقوى من مرض التردد الذي هو أخطر مرض يصيب السياسي

---

(57) التشابه والاختلاف لدى ابن خلدون وميكافيلي تراه بوضوح خلال بحث كامل وشامل راجع كتاب (ثقافتنا في ضوء التاريخ)، ص57، 58، 59، 69، تأليف عبدالله العروي، الطبعة الثالثة، 1988م، المركز الثقافي العربي.

(58) المرجع السابق ص76

كما قال هو كذلك! نعم لقد أعلن الانتصار على التردد عندما قال:

- قبل الإجابة عن سؤالك الكبير يجب أولاً أن نعرف من هو المثقف؟ هل هو الكاتب الذي يكتب القصة أو الرواية أم الشاعر الذي ينسج قصائد أم هو الناقد الذي يرى أعماق الرواية والقصيدة ويحاول أن يفك ألغازها، إن التعاريف لمصطلح "مثقف" عديدة لكني أرى أن المثقف كل شيء وأحياناً شيء واحد وغالباً لا شيء أبداً! وهذا يعني أن المثقف قد يكون كاتب قصة وأحياناً قد يكون شاعراً وأخرى قد يكون ناقداً والأغلب أنه لا شيء أبداً ولكن كل تلك الأوجه المتعددة للمثقف يجتمع بها الضمير، نعم إن الضمير هو المثقف، قد يوجد كاتب بلا ضمير وقد يوجد شاعر بلا ضمير ولكن لا يوجد مثقف بلا ضمير وإن وجد فهي كارثة في ثقافته وثقافة من يصطلحون على تسميته "مثقف". الخلاصة "إن المثقف ما هو إلا ذاكرةٌ مضادة، بمعنى ما، تملك خطابها المعاكس المخصوص الذي يمنع الضمير من أن يشيح بنظره أو أن يستسلم للنوم"[59]، فالمثقف هو أرقى

(59) حصلت على هذا التعريف بعد عدة قراءات في هذا المجال وقد أقنعني المفكر الكبير إدوارد سعيد بهذا التعريف. راجع كتاب «الأنسنية والنقد الديموقراطي»، ص160، تأليف إدوارد سعيد، ترجمة فواز طرابلسي، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى باللغة العربية، عام 2005م.

منزلة من الكاتب والكاتب المثقف هو أرقى منزلة من المثقف والفيلسوف هو أرقاهم جميعاً منزلة! أعود الآن إلى سؤالك الكبير: هل يستطيع المثقف العربي أن يكون سياسياً ناجحاً؟ قبل أن يفكر ذلك المثقف بأن ينخرط في عالم السياسة يجب عليه أن يصل إلى مستوى نظرائه الآخرين ولن يصل إلا بعد أن يتخلى عن العصاب الذي يشل كل حركة أو فكرة في ذاته!! إن المثقف العربي لا يستطيع الإفلات من الماضي ومشاكله التاريخية لذلك هو يعيش "كالعصابي الذي يشيح عن الواقع لأنه يجده لا يطاق بتمامه أو في بعض أجزائه"[60] وهذا الهروب من الواقع هو بسبب عجز المثقف العربي عن إيجاد الحلول و المسوغات لذلك الواقع الذي يعيشه فتراه يذهب إلى "ماضيه وأسلافه وهو في أشد الغفلة عن حاضره ومستقبله وكيف يجب أن يكون"[61] إن المثقف العربي يعيش حالة من الاحتضار وذلك لأنه يخلق في ذاته مأساة المثقف فدائماً تجده يصور نفسه على أنه بائس وذليل وذلك لعجزه التام عن إيجاد الحلول لمأساة واقعه التي أوجدها هو بحالة الاحتضار التي يعيشها!

---

(60) جملة لعالم النفس سيغموند فرويد. راجع كتاب (المثقفون العرب والتراث، التحليل النفسي لعصاب جماعي)، ص13، بتصرف، تأليف جورج طرابيشي، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، الطبعة الأولى، شباط/فبراير 1991م. .

(61) جملة للأفغاني: جمال الدين الأفغاني. المرجع السابق ص76 بتصرف.

"كل من يجلس إليّ في البيت، في المقهى
أو من يستوقفني في الطريق
يتفحصني كلوحة مسمارية
ثم يسألني بلهفة عن صحتي وأحوالي؟
هل ملامح الاحتضار والفناء واضحة عليّ إلى هذه الدرجة؟"[62]

متى ما أراد المثقف العربي أن يكون ناجحاً في كل المجالات يجب عليه أن يتسلح بثقافة أجداده وينطلق من أصولها ويترك الفروع ومن هنا تأتي عظمة المثقف وتنطلق من أنه لم يأخذ بالأمور من ظواهرها بل يعيدها إلى أصولها ويستخرج هو الفروع.. إن المفكر حسن حنفي عندما ذكر لنا الواقعة التي يقول فيها: (أذكر ونحن طلاب بعد إحساسنا بأن الأستاذ يرجع كل شيء إلى محمد عبده أنني كتبت له مرة على السبورة قبل أن يدخل: أحب محمد عبده ولكن حبي للإسلام أعظم)[63] هنا نلاحظ أن الأصل هو الإسلام وأن الفرع هو محمد عبده، وذلك الفعل من حنفي يفهمنا أن

---

(62) أبيات من قصيدة (الانتقام الجبار) محمد الماغوط. راجع كتاب (البدوي الأحمر) ص266، دار المدى للثقافة والنشر، سورية، الطبعة الأولى، 2006م.

(63) راجع كتاب (المثقفون العرب والتراث. التحليل النفسي لعصاب جماعي)، ص 151 بتصرف، تأليف جورج طرابيشي، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، الطبعة الأولى، شباط/ فبراير 1991م.

المثقف لا يهتم إلا بالأصول وأن التحدث طويلاً وبشكل مستمر عن الفروع لا يهم المثقف أو من أراد أن يكون كذلك.. إذا أراد مثقفنا العربي أن يكون حقيقة بالاسم وكذلك الوصف فعليه أن يرفض كل الفروع ويؤمن بالأصول ويفهمها ليستخرج منها الفروع التي أدركها هو بذاته بعد سنوات من البحث والتدقيق وهذا ما نعني به "عظمة التوالد في توالد النقيض فعظمة أرسطو تأتي من معارضته لنظرية المُثل عند أفلاطون، وعظمة سبينوزا تأتي من رفضه الأخلاق المؤقتة عند ديكارت وتطبيقه منهج الوضوح والتميز في الدين والسياسة، وتتمثل عظمة الفلاسفة بعد كانط في رفضهم الشيء في ذاته ومحاولتهم التعرف عليه، كما تمثل عظمة ماركس وكيركجارد في قلبهما المنهج الجدلي رأساً على عقب وكشفه في الطبيعة والوجود... فالاستمرارية التاريخية وأنساب الفلاسفة ليست طويلة انسيابية وإلا كانت تبعية وتقليداً، بل هي معارضة ومناقضة وقلب للأمور رأساً على عقب، وبالتالي يأخذ التاريخ حركته الطبيعية، ويشق مساره الجدلي"[64] لأن كل ما يتم قلبه هو من الفروع وتبقى الأصول منطلقاً ينطلق منها المفكر والمثقف وهذا هو دور المثقف الفيلسوف وهو أن يفهم أسلافه فهماً عميقاً لينطلق من هذا الفهم نحو التجديد الذي يتمسك بالأصل متجهاً

---

(64) المرجع السابق ص 152 بتصرف.

لفروع جديدة أتت بسبب الرفض! هل يستطيع المثقف العربي أن يرفض؟! فالرفض يصنع مثقفاً كما الاستغراب يصنع فيلسوفاً! ولكن ماذا أعني بالرفض لدى المثّقف؟ إني أعني به تطهير الحضارة من كل قبيح وهذا التطهير هو سمة من سمات الدورة التاريخية، ويحصل التطهير عندما يطهر المثقف واقعه الذاتي ومن ثم يطهر واقع المجتمع. إذا استطاع المثقف عمل ذلك التطهير يحق له أن يشاهد الماضي بفروعه ويفخر بأمجاد أسلافه! لأن من يفاخر بالماضي وواقعه قبيح هو في الحقيقة لا شيء!

". . يميل العرب إلى خداع أنفسهم وخداع غيرهم، وهم يقومون بذلك عن غير عمد، فهم يميلون إلى التحدث عن أمجاد الأجداد. . عن صلاح الدين. . عن معارك حطين واليرموك. . بينما يفعلون ذلك فإننا نبتسم لأنهم يرون أنفسهم في مرآة أمجاد الماضي، أما نحن فنراهم في مرآة الحاضر. . . ليتهم يسألون أنفسهم لماذا يتحدثون دائماً عن عظماء ماضيهم ولا يجدون في حاضرهم أحداً من العظماء يتحدثون عنه؟"(65)

. . وتأتي الطامة الكبرى عندما يطلق لقب"مثقف

---

(65) كلمة لعدو العرب: موشي ديان وزير الدفاع الإسرائيلي في حرب حزيران 1967م، المرجع السابق ص 77 بتصرف.

عربي"وهو للأسف لا يؤمن بثقافته ولا يثق بها، فتراه يبحث عن الإجابة عن أي شيء في ثقافة الغرب أكثر من ثقافته، ونحن نعلم أن قوة المثقف تنطلق من قوة الثقافة التي يمثلها وللأسف المثقفون هنا يمثلون ثقافة الغير وليست ثقافة أجدادهم لذلك هم دائماً وأبداً ضعيفون! ولو كان المثقف العربي يثق بقدراته أولاً لما وجدنا هذا التخبط والضياع في فكره الثقافي! فتراه أحياناً شيوعياً وبعد أيام وجودياً وبعد لحظات امبريالياً! هذا التخبط وجد بسبب غياب القاعدة التي يجب أن ينطلق منها نحو الآخر، وإذا وجدت هذه القاعدة فتكون العصبية باختلاف أشكالها هي الأساس وليست الثقافة هي المنطلق! إن المثقف العربي في هذا الواقع الذي يعيشه الآن يمثل نموذج الفشل! نعم الفشل الذاتي قبل أن يكون فشلاً سياسياً أو اجتماعياً ونجاح صاحبنا فقط بأنه يكتب ولا يفعل! هل تظن أن السياسة تحتاج لمن يكتب ولا يفعل؟! هل تظن أن السياسة تحتاج لإنسان عاطفي كما هو مثقفنا العربي؟! هل تظن.. شاهين ما بالك تسأل وتغيب والأدهى أن تضع رأسك على الطاولة!! هل كلامي لا يعجبك يا شاهين؟!

(19)

.. رفع شاهين رأسه من على الطاولة، كان وجهه قد ازداد اصفراراً والعرق يحتل جبينه، لم يكن هذا وجه شاهين الذي أعرفه! قال صديقي بصوت خافت لن أنساه ما حييت:

- اعذرني يا أحمد، لقد وضعت رأسي على الطاولة مجبراً! أشعر الآن بألم شديد في مؤخرة رأسي! بل إني أحس بأن أحداً بداخله يطرق خلايا مخي بمطرقة! الألم يزداد وحبات المسكن لم تقلل من الألم! إنني أتألم، عن إذنكما أريد أن أغسل وجهي علني أرتاح قليلاً!

قام شاهين وأزاح الكرسي للخلف بحركة تدل على الإجهاد الكبير وكأن الكرسي حمل ثقيل لا يكاد شاب يقوى على تحريكه! إنني أراه الآن كما رأيته في الماضي بدأ يمشي متجهاً نحو مدخل المحل، يمشي بخطوات ثقيلة، غريبة، بل راح يتمايل شمالاً ويميناً وكأنه لا يشعر بجسده! كنت أريد أن أقوم بإيصاله إلى المحل لكنه رفض، رفض شاب يرى في تلك المساعدة تقليلاً من قواه الجسدية، كان يمشي وكنت

أتأمله، كانت اللحظات طويلة جداً، وكان الوقت متأخراً أيضاً، كنت أشاهد خطوات شاهين وكان أحمد قد وضع رأسه على الطاولة إذ أصابه الإرهاق، أما أنا فكنت أرى شاهين يمشي وأتأمل خطواته، وفجأة غابت الدنيا أمام ناظري وتلاشى الوجود من أمامي وتوقفت البدايات، وانبثق للوجود صرخة! صرخة سمعها القاصي قبل القريب! سمعها كل من كان يتجول في ذلك الشارع، كل من كان يغازل ترك فريسته والتفت نحو مصدر تلك الصرخة! صرخة تلاها سقوط على الرأس، من أين أتت تلك الصرخة؟! ومن هو الذي سقط مغشياً على الأرض؟! آهٍ.. آهٍ يا شاهين، آهٍ يا صديقي تمنيت أن أسقط بل أن أموت ولكن لا أراك هكذا، لقد سقط أمام المحل سقوطاً مفاجئاً على رأسه وقطرات الدم تشهد بها الأرض، بل تشهد بها البرجوازية كلها! سقط صديقي وأنا وأحمد على الطاولة منبهران! أزحت الكرسي، ضربت الطاولة بلا أي شعور، توجهت أنا وأحمد إلى ثالثنا إلى مكملنا إلى من أحببت الدنيا لأجله، ودموعي كانت تبعد الناس من أمامي، وآهاتي كانت تزاحم البشر! اقتربت منه وضعت يدي على صدره لأطمئن أن الذي أحببت الدنيا به يعيش وكان الفرج أن دقات قلبه تلك التي تمثلني كانت تدق وتدق، طلب أحمد كأساً من الماء وصببت الماء على وجهه فقام من إغماءته متعجباً وكأنه لا يدري ولا يشعر بما حصل! قلت له

بسرعة: شاهين.. شاهين.. شاهين؟! رد بأسرع مما كنت أتصور قائلاً: نعم، ماذا، ماذا حصل؟! لماذا كل هؤلاء حولي؟! أشعر أن رأسي سينفجر! أريد أن أنام، صديقي لنذهب، لنذهب أرجوك!!

ساعدني أحمد وأخذناه إلى غرفتي وقد حاولت أنا وأحمد أن نذهب به إلى أحد المراكز الصحية لكنه رفض وقال إن الموضوع مجرد إرهاق ولا يحتاج إلى كل ذلك، لكنني وبمساعدة أحمد أقنعناه أن يذهب غداً صباحاً إلى المستشفى ليجري فحوصات ويتأكد من سلامته.. قال لي بالحرف الواحد:

- أنت تذهب مع أحمد إلى وزارة التعليم العالي لتكون بجانب صديقنا وتشد من عضده في موضوع الابتعاث الخارجي وأنا سأذهب إلى المستشفى و نلتقي لنحتفل معاً بقبول ابتعاث أحمد.

كانت تلك الكلمات آخر ما قاله شاهين في تلك الليلة حتى أنه نام ولم يأكل شيئاً! وكذلك أحمد! وسامي ظل سهراناً في تلك الليلة، كنت أتأمل شاهين بعين والعين الأخرى تتأمل أحمد، عندما أتذكر تلك الليلة والحزن والانتظار والجوع الذي لا يسده الطعام وكل شيء يعكر صفو الحياة أشعر أن الدنيا ظالمة! تظلم وتظلم ولا ترحم! في بداية هذا اليوم كنا ننتظر نتيجة أحمد وندعو أن يكون التفوق

من نصيبه، وبعد أن علمنا بتفوقه كان السرور والفرح يحتلان الوجود لدينا ثلاثتنا، ومن ثم ذهبنا نحتفل ككل البشر وانقلب الاحتفال إلى مناقشة وحوار وأسئلة كانت تعيش في عقولنا وفي نهاية هذا اليوم كانت مأساة سقوط شاهين، هكذا هي الدنيا نصاب بالحزن واليأس والإحباط والفرح والسرور والشوق وغيرها من المشاعر التي تأتي وتذهب وتعود في لحظات ونحن نعيش التشتت بكل صوره! ذلك اليوم، ذلك التاريخ لن أنساه ما حييت قد يكون ذلك اليوم هو بداية النهاية! نعم نهاية الحياة التي كنت أحياها سابقاً! وقد يكون ذلك اليوم المحور الأساسي في كل حياتي ماضيها وحاضرها ومستقبلها!!

.. كان الصمت وتأمل بائسين أحدهما ينام ورأسه سينفجر والأحرى أنه يتظاهر بالنوم، والآخر يحاول النوم والتفكير في الغد يبعد عن عينيه النوم، وأنا كما أنا عينٌ ترى أحمد وعينٌ ترى شاهين وكأني أمثل دور الأم الغائبة! تذكرت وأنا كذلك حديثاً قد قاله لي شاهين:

- عندما يكون الوجود قائماً على الصمت والتأمل وظلام الفجر وكذلك الجوع أقرأ "سكوتي إنشاد " ليتحول الوجود إلى وجود آخر...

وبالفعل بدأت أصرخ قائلاً: هيا، هيا يا جبران سكوتي وتأملي هو إنشاد!

سكوتي إنشادٌ وجوعي تخمة
وفي عطشي ماء وفي صحوتي سكر
وفي لوعتي عرسٌ وفي غربتي لقا
وفي باطني كشف وفي مظهري ستر
وكم أشتكي همّاً وقلبي مفاخرٌ
بهمي وكم أبكي وثغري يفتر
وكم أرتجي خلاً وخلّي بجانبي
وكم أبتغي أمراً وفي حوزتي الأمر
وقد ينثر الليل البهيم منازعي
على بسط أحلامي فيجمعها الفجر
نظرت إلى جسمي بمرآة خاطري
فألفيته روحاً يقلصه الفكر
فبي من براني والذي مد فسحتي
وبي الموت والمثوى وبي البعث والنشر
فلو لم أكن حياً لما كنت مائتاً
ولولا مرام النفس ما رامني القبر

.. سكوتي إنشاد.. إنشاد.. وعينٌ تتأمل أحمد والأخرى تتأمل شاهين.. ثلاثة كنا في غرفة ننتظر طلوع الشمس، لماذا كان الليل ثقيلاً لا يتزحزح! أتعلم يا هذا لماذا؟! لأن الدنيا دائماً وأبداً هكذا! كنا كما كنا ثلاثة أصدقاء كالنجوم تتلألأ في السماء...

(20)

وأشرقت الشمس وتلاشى الظلام ومات الليل، ذلك الليل الكئيب وبدأ النهار وسامي لم ينم قط! فهو كما هو عينٌ على أحمد والأخرى على شاهين، ذلك النهار، الصورة تمتلئ في الرأس، هل يستطيع قلمي المسكين أن يصف تلك اللحظات التي تشكل كل الحاضر والمستقبل؟ هل يفلح ذلك القلم أن يرسم تلك الأحداث التي تمتلئ بها خزانة الذكريات؟ لم يكن همي أن أجعل من ذلك القلم مادة لوصف أحداث حياتي أنا وصديقيّ، لقد كان همي وما زال هو أن أصف عواطف ومشاعر أصدقاء، حين أحاول أن أغير مسار قلمي أشعر به يناجي وأحياناً يصرخ قائلاً "دعني كما أردتني في البداية دعني كما أنا " إنني أعلم أن عالمي يمتلئ بالأحداث وأعلم أن الكثيرين سيلومون في قصتي قلة الأحداث وعدم اكتمالها ولكني أبرر هذا الشيء بأن عواطفي تمتلكني وبأن قلمي اعتاد أن يصوغ مشاعر ثلاثة أصدقاء عاشوا و كأنهم لم يعيشوا! لم يخلق قلمي لأن يتحدث عن

أحداث قد لا تهم الكثيرين، إنني أعلنها وقلمي يكتب إعلاني: إن مشاعر الإنسان أعظم ألف مرة من كل الأحداث في هذا الكون! إني عندما أكتب مشاعري وعواطفي أنا وصديقيّ فأنا أكتب دمعة تتأرجح على أجفاني! تريد أن تخرج، إن قلمي يكتب ليس بالحبر وإنما بالدموع! إن حياتي هي مجموعة من الصدمات لذلك فمهما حاولت فأنا سأظل كما أنا أكتب حتى الفرح على شكل دموع وأكتب الابتسامة على شكل آهات! هكذا هو أسلوبي أو هكذا أنا ولن أستطيع أن أكون إلا كذلك! إن دمعتي هي عزاء روحي وغذاء جسدي! إنني أحزن لكي لا أخون الماضي! إنني أحزن لأن في الحزن قوة جبارة قل من يدركها. وللأسف يعتقد الكثيرون أن الحزين هو الضعيف والواقع أن الحزين قد يكون أقوى من ألف سعيد وفرح! إن تلك الدمعة التي ينثرها قلمي تفهمني غوامض الدنيا، إنني أبكي الآن ليس لأجل أن يراني أحد بل إني أبكي من أجل ذاتي! إنني أبكي حتى أبتسم! إنني أبكي كلمات ليست أي كلمات، كلمات تخترق الماضي، تعيد صياغته، كلمات أكتبها من أجل ألا يموت الماضي! أكتبها من أجل أن يظل ذلك الماضي موجوداً في كل جزء من حياتي! إنني أكتب تلك الكلمات ليقرأها من يريد ذلك ويدعها من يريد ذلك فأنا أبكي كلمات من أجلي

أنا ومن أجل أسطورة ساش ولا يهمني أي من كان على هذه الأرض!

أعود إلى تلك الشمس، الساعة الآن السابعة صباحاً، مازلت أرى ذلك المشهد أمامي وكأن الماضي أصبح حاضراً، عينا أحمد وشحوب شاهين، حماس أحمد وخوف شاهين، وأنا بين هذا وذاك عقلٌ هنا وقلبٌ هناك، وقلبٌ هنا وعقلٌ هناك، الوقت يمشي بسرعة يجب الذهاب مبكراً إلى وزارة التعليم العالي استودعت أنا وأحمد شاهين وأوصيناه بأن يذهب إلى المستشفى، ذهبت مع أحمد كما طلب مني شاهين ذلك، كنت وأحمد مستقلين سيارة أجرة إلى مبنى الوزارة، لم يتحدث أحمد بشيء بل كان صامتاً غارقاً في تساؤلات كثيرة، قد يكون الخوف والترقب لأن دقائق معدودة تفصله عن رؤية أحلامه وقد بدأت في التحقق، لأن دقائق قليلة تعلن له كل شيء وتشكل حياته القادمة، دخلنا مبنى الوزارة وتوجهنا مباشرة إلى قسم المبتعثين لتقديم أوراق أحمد، كان الازدحام كثيراً جداً، انتظرنا حوالي الثلاث ساعات حتى أُذن لنا بالدخول إلى الموظف المسؤول، عند الموظف طُلب من أحمد أن يملأ استمارة طلب الابتعاث، كتب أحمد في خانة التخصص المرغوب الابتعاث له، في الخيارات الثلاثة كلها:

جامعة السوربون كليّة الفلسفة.

جامعة السوربون كلية الفلسفة.

جامعة السوربون كلية الفلسفة.

أخذ الموظف المسؤول الاستمارة وبدأ يتأملها ويرفع نظراته إلى أحمد ويذهب بتلك النظرات الغريبة إلى زملائه الموظفين، وفجأة وبلا مقدمات بدأ يضحك! وبصوت قوي يملأه الاحتقار قال ذلك الموظف:

- فلسفة! إلحاد! كفر! أية فلسفة يا هذا تريد أن تدرسها؟! من أنت؟! من هم أهلك؟! وعلى حساب من؟! حساب أموال عامة!! نرسلك لتدرس الفلسفة وتأتي إلى هنا وتتفلسف!!

تراجع أحمد إلى الخلف وبدأ يستجمع قواه والصدمة من هذا الاستقبال واضحة على وجنتيه، وبدأ يتحدث قائلاً:

- نعم إني أريد دراسة الفلسفة، إنها حلمي، وهذا الحلم الذي كنت ومازلت أرغب في تحقيقه، والحقيقة أني لا أستطيع تحقيق حلمي إلا من خلال برنامج الابتعاث، فأنا لا أملك القدرة المادية التي تجعلني أتحمل تكاليف الدراسة، إنه حلم!

عاد ذلك المسؤول بنظراته صوب أحمد وعلامات الاحتقار تزداد في وجهه وكأنه غير كل البشر، بل كأنه مخلوق من غير التراب! قال ذلك المسؤول:

فلسفة لا..!

فلسفة لا..!

سوربون لا..!

طه حسين لا...!

أحلام كهذه الأحلام لا لا!!

هل عندك خيارات أخرى!؟

فترة صمت تلت كلام ذلك المسؤول، كنت أنتظر ردة فعل أحمد، كنت أتأمل ذلك المشهد، عيني أحمد، تقاسيم وجهه، نظرات ذلك المسؤول، لا أستطيع أن أصرف بصري عن تلك المشاهد، كانت دقات قلبي تتسارع، كنت أشعر بخوف يقتل كل شيء في داخلي، كنت مترقباً ومنتظراً ماذا سيقول أحمد؟ بماذا سيرد ذلك الفيلسوف؟ فهذا اللقاء يحدد ملامح حياة أحمد، واخترق ومات الصمت عندما قال أحمد:

- أية خيارات أخرى! بكل بساطة أيها المسؤول تقول كذلك! إنه حلم، هذا هو حلمي، هذه هي أمنيتي! والأحلام يا هذا يصعب علينا أن نستبدلها بيوم وليلة، إن الأحلام يا هذا تعيش في أرواحنا، تنمو بنمو أجسادنا، وحلمي يعيش في كل جزء من أجزاء جسدي بل إنه ينام ويستيقظ معي في كل يوم، هل تظن أيها المسؤول أن الحلم مكبس زر أضغطه ليتحول إلى حلم آخر! إلى حلم يرضيك! هل تظن أنني دمية تتشكل كما تريدها أو كما يريدها هذا المجتمع! هل تظن

ذلك! أفهم نعم يا هذا! إنه حلم ولكنه كالبركان في قوته وعظمته وجبروته! إنه حلم ولكنه يمشي ويقتحم الوجود كجيش جرار لا يخاف ولا يفكر في العواقب! إنه حلم! والحلم عظيم بحد ذاته فما بالك إذا كان الحلم هو حلمي أنا! وببساطة وبكل حقارة وأنانية مسؤول تقول: خيارات أخرى! وكأن المسألة ملابس تستبدل من حين لحين! افهم أدرك أيها المسؤول يا أيها المؤتمن أنه حلم، والأحلام هي القوة بحد ذاتها وإذا كانت أحلامك أنت أيها المسؤول تافهة بالنسبة إليك وتبدلها بناءً على كلام وأفكار الآخرين فأنا وأعلنها في مكتبك هذا: أني لست تافهاً وحلمي سيظل معي لأن حلمي هو أنا وأنا هو حلمي!

قال تلك الكلمات التي تخلد بالذهب، خرجت من أعماق شاب مجروح وضعيف، وقبل كل ذلك شاب مصدوم يملك حلماً ولكنه حلم يتبدد بسبب مسؤول! منذ خرجنا من مبنى الوزارة سائرين معاً، كنت صامتاً أرى شحوب وجه صديقي، وأشعر بتلك الأنفاس الحارة التي تخرج من صدره، كنت أشاهد إحباط أحمد وذل الأصدقاء يتمثل هنالك! "من هم أهلك؟" يقولها بكل حقارة وبجاحة، فبناء على هذا السؤال سيكون الجواب! إننا نعيش في زمن المتناقضات، في زمن الخوف حتى من الأحلام! كنت أمشي بجوار صديقي

وكان يمشي بجوارنا سؤال يجب أن نجد له الإجابة الشافية: لماذا عندما نختار يقف المجتمع أمام اختياراتنا وطموحنا أمام ما نريد؟ هل صحيح أن المسؤول عندما تتقدم به المراتب يكون أكثر أنانية وذلك بإصدار واقتراح القوانين التي تحد من طموح وأحلام الغير؟ بسبب أنه لا يريد لأحد أن يكون أفضل منه وأكثر تميزاً! إن المحسوبيات والأعراف الاجتماعية تدمر الأحلام تدميراً، وكذلك القوانين التي يصدرها مسؤول يشاهد من وجهة نظره هو في الحقيقة لا يرى إلا القليل من الواقع، فلو أردنا أن نصدر قانوناً يهم جيل الشباب فيجب أن يكون من ضمن الهيئة الاستشارية شباب لأنه يخصهم ويعنيهم إصدار أو رفض ذلك القانون، إنني كثيراً ما أتساءل هل أحلامنا تنافي العقلانية وكذلك المنطق الاجتماعي؟ هل أحلامنا عكس واقعنا؟ وبسبب ذلك عادة ما تصطدم أحلامنا بالواقع وبالمجتمع.. الواقع الذي يعني أن تكون أحلامنا امتداداً لأحلام سابقينا والمجتمع الذي يعني العنصرية التي يجسدها مفهوم "الشفاعة" ذلك المفهوم الذي استخدم بغير ما وجد لأجله! آهٍ يا بشر، بل آهٍ يا من تدعون أنكم بشر! إن الحرمان من الأكل ومن الشراب وكذلك من الجنس أرحم ألف ألف مرة من الحرمان من متع الفكر، إن الإنسان يتحمل العذاب الجسدي أكثر من العذاب

النفسي الذي يمثله رفض الأحلام بلا سبب مقنع، إن الأحلام والطموح في مثل ذلك الواقع تعني الصبر، نعم الصبر على تناقضات الواقع والمجتمع، الصبر على أنانية مسؤول، الصبر على غربة روح! ألم يقل الشاعر:

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله
لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا!

أعود إلى صديقي الذي كنت أمشي بجواره، أردت أن أخفف عنه حزنه واصطدامه بذلك الرفض فقلت بلهجة صديق يواسي صديقه: (لا تحزن ستحقق أحلامك وتدرس ما تريد...) وقبل أن أكمل جملتي وقف أحمد في مكانه والتفت إليّ وبدأ يتأملني ومن ثم خفض عينيه وقال بلهجة اليائس: (أرجوك أتركني، أريد أن أكون وحدي أرجوك) تركت صديقي مجبراً على ذلك، تركته وحيداً كما طلب، ومنذ أن افترقنا على قارعة الطريق وكلمات أحمد ترن في أذنيّ (إنه حلم ولكنه يمشي ويقتحم الوجود كجيش جرار!) ويزداد رنينها وصداها في أذنيّ ويتحول الرنين وتلك الكلمات إلى أبيات كثيراً ما كان شاهين يرددها على لسان جبران..

والعلم في الناس سبلٌ بان أولها
أما أواخرها فالدهر والقدر

وأفضل العلم حلمٌ إن ظفرت به
وسرت ما بين أبناء الكرى سخروا
فإن رأيت أخا الأحلام منفرداً
عن قومه وهو منبوذ ومحتقرُ
فهو النبي وبرد الغد يحجبه
عن أمةٍ برداء الأمس تأتزرُ
وهو الغريب عن الدنيا وساكنها
وهو المجاهر لامِ الناس أو عذروا
وهو الشديد وإن أبدى ملاينة
وهو البعيد تدانى الناس أم هجروا

بعد أن أنهى جبران رنيناً في أذنيّ بدأت أتعمق في التفكير بأحمد وفي معرفتي به فقد عرفته شاباً قوياً ذكياً وقبل ذلك طفلاً غريباً في أفكاره واهتماماته! عرفته مدركاً لخفايا الأمور، متنبئاً للمستقبل بذكاء مراهق وفطنة فيلسوف! عرفته في ذلك الملجأ يعيش منفرداً بعيداً عن الغرف! عرفته في الصف لا يذاكر ولكنه الأول دائماً! عرفته في هذه الحياة صديقاً قل ما نجده في هذا الزمن، لقد عرفته في قلبي كبيراً عظيماً شامخاً، عرفته في هذه المدينة التي تحتل الصحراء، عرفته من خلال ظروف وواقع مشترك، عرفته كما عرفت نفسي به! أقسم بالله لقد أحببته حباً لا يضاهى حباً تتلاشى

فيه كل الرغبات! أحببته والمحبة أنواع، فهي التي تمدنا بالوقود في هذه الدنيا، كيف نستطيع أن نعيش إذا لم نحب ونُحب؟ هل يوجد شخص متجرد من العواطف والمشاعر؟ كذب أولئك الذين ينسبون العاطفة إلى المرأة فقط فالرجل عاطفي ولكن عاطفته تعيش داخل كهف عميق من يستطيع الوصول إليها سيحصل على عواطف الدنيا كلها! إن معرفتي لأحمد هي معرفتي لشاهين ومعرفتي لهما تعني معرفتي لنفسي، فنحن الثلاثة مشتركون في واقع واحد وحياة واحدة ولا نختلف أبداً أبداً..

(21)

بعد أن تركت صديقي لم يكن لي خيار آخر سوى أن أتوجه إلى غرفتي، أثناء مسيري كانت المشاعر وقصائد الشعراء ما زالت تتراقص في داخلي وكان الإجهاد النفسي وكذلك الجسدي يغلبني، الساعة الآن قريبة من الثالثة مساءً، الجوع يدغدغ جدران معدتي، توجهت مباشرة إلى أحد المطاعم، دخلت المطعم، كان مكاناً يمثل أرقى نموذج للاستيطان الأجنبي في هذا الوطن، توجهت مباشرة إلى المحاسب الذي كانت نظراته وأوامره تسيطر على العاملين وكذلك الزبائن! قلت له وقلبي مخطوف إلى البعيد: " أعطني كبسة سعودية يا أيها المدير الباكستاني! " دفعت الحساب وجلست على أحد الكراسي المهترئة منتظراً انتهاء تحضير تلك الكبسة السعودية على الطريقة الباكستانية! إن الانتظار يعني التفكير والتفكير أساسه وموجده هو التأمل، أردت أن أبتعد عن الوجود ولكن الدنيا والوجود يتشبثان بسامي ولا يدعانه وحده! حاولت بكل قواي أن أبتعد عن اليأس وعن

ظلم الدنيا لنا في هذا اليوم، جلست محارباً عقلاً لا يرضى إلا بالانتصار على مالكه! والحرب تستمر بين ذلك العقل ومالكه! أردت أن أبتعد عن الحرب مبحراً بنظراتي في محيط ذلك المطعم، الإبحار يعني أن تنتقل نظراتي من هذا إلى ذلك، وبينما النظرات تنتقل إذ بها تسقط على وجه رجل كأنه من آسيا الوسطى، آسيا الوسطى، إنه يشبه بعينيه الناعستين حزن ذلك الشاعر الروسي: ميخائيل ليرمنتوف! آه ياربي، ليرمنتوف يحاول إرجاعي من البعيد واختطافي! إنني أشعر الآن وكأني مسجون على الرغم من أني حر طليق! مسجون يا سامي! يخرج من تلك الكلمة كلمة "سجن" سجن! نعم سجن! بدأ رنين تلك الكلمة يزداد ووجه ذلك الرجل يمتلكني وليرمنتوف يصرخ في داخلي ويختطفني ليعيد صياغة وجودي جاعلاً من الرغبة والكذب على الذات وذلك التمني أساس الوجود!

افتحوا لي السجن هيا
وأعطوني ضوء النهار
وفتاة ذات عينين بلونِ الليل
أعطوني حصاناً، أسود الشعر، طويلاً
واتركوني مرةً أعدو في الأرضِ، الفضاء
وأنا معتلياً ذاك الحصان

وامنحوني نظرة عن كثبٍ نحو الحياة
نحو دنيا حرةٍ.. مثلما ينظر إلى الصعب المنال

***

امنحوني قارباً هش الخشب
مقعداً كم قدمٍ فيه تكسر
وشراعاً بالياً أضحى ممزقاً
مزقته الريح والإعصار...
غار في الأيام بعداً..
أعطوني القارب كي أنزل إلى البحر
دون بؤسٍ وعذاب
أتهادى فوقها الأمواج
بل أهدأ في ذاك الصراع القاسي
في أعماقِ بحر هائج يرغي ويزبد

***

ولقصر عالٍ فأعطوني
ولكن.. ليكن فيه حديقة
جنةٌ من حوله كي أتنعم
بظلالٍ وارفة

بظلالٍ رائعة
وأمامي عنبٌ ينضج.. حلو الطعم.. والشكل جميل
وهنا نافورةٌ يعلوها ماء.. إنما دون توقف
وهدوء عم الصالة.. والصالة مرمر
وأنا السابح في أحلام جنة
إنني أغفو، وأصحو... دون أدنى انزعاج
وتراني أرتوي، يرويني ثلجٌ من رذاذ(66)

هيا.. هيا افتحوا لي السجن هيا! فإن الحياة الكبيرة تسجنني داخل غرفة حقيرة اسمها اليأس! اليأس من ظلم الدنيا لنا، نعم إن الدنيا في الثاني والعشرين من شهر يونيو قد ظلمتنا نحن الثلاثة ظلماً جعل من العيش أو محاولة التعايش مع ذلك الواقع أمراً مستحيلاً بل غاية في الاستحالة!

ويستمر ليرمنتوف بحزنه وألمه يتراقص في وجودي إلى أن قطع تراقصه صوت العامل يناديني لأخذ طلبي وأذهب خارجاً، خارجاً إلى أين؟! إلى سجن آخر! كانت المسافة بين المطعم وغرفتي قريبة، وصلت إلى الغرفة، فتحت الباب ودخلت الغرفة وإذ بعيني تسقط على ذلك المنظر..!

---

(66) قصيدة (رغبة) ميخائيل ليرمنتوف. ترجمة الدكتور ماجد علاء الدين، راجع كتاب (مختارات من الشعر الروسي من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر)، ص147، 148، 149، دار علاء الدين للنشر والتوزيع، سورية، الطبعة الثانية، 2002م.

(22)

.. ذلك المنظر الذي يقتل كل بهجة، يقتل كل جوع، يقتل كل شيء! ذلك المنظر لا يبقي أي معنى للابتسامة أو محاولة اصطناع واقع آخر! ذلك المنظر يثبت ما أسميته "بؤس الأصدقاء" نعم يوم بؤس الأصدقاء، في الثاني والعشرين من شهر يونيو ذلك التاريخ لن أنساه ما حييت!

".. وإذا ما الليل جنا
سوف لن أسمع أصوات البلابل
أو حفيف السنديان
إنما يوماً سأسمع
صوت بؤس الأصدقاء
وصرير السلسلة
وزعيقاً وشتائم.. "[67]

(67) قصيدة بعنوان (علني لا أفقد العقل) الكسندر بوشكين، ترجمة الدكتور ماجد علاء الدين، المرجع السابق، ص97.

.. دخلت الغرفة وقفت مذهولاً من ذلك المنظر وذلك الصوت الذي يعلو وينخفض! سقطت أكياس الطعام من يدي! سقط كل شيء من داخل سامي، وقفت لا أدري ماذا هنا! ولماذا كل ذلك! كانت عيناي تمثلان أعلى درجات التعجب والتساؤل والحيرة! اقتربت منه كان مستلقياً على الأرض وصوت النشيج الذي يعني الألم يخرج من أعماق روحه! وأنت تشاهده من بعيد تتخيل أنك أمام جثة هامدة لا تشعر بأحد ولا تهتم بأحد سوى الألم! اقتربت من صديقي أكثر كنت خائفاً أن يكون الإغماء قد عاوده مرة أخرى، زال ذلك التخوف بازدياد نشيج صديقي! اقتربت واقتربت وضعت يدي على ظهره ويا ليتني لم أفعل ذلك! آهٍ يا دنيا وتمدد شاهين على ظهره وعيناي تتأملان عيني شاهين ودموع صديقي على خديه تتساقط وتجري! الغرفة والدنيا وأنا وشاهين والوجود بأكمله كان صامتاً جامداً، فقط بكاء شاهين يكسر صمت الدنيا! فقط نشيج شاهين! فقط دموع شاهين! عنوان الوجود في ذلك الزمان! حسرة الإنسان تتمثل بكل جبروتها وفتكها في شخص شاهين، في ذلك الموقف لم استطع أن أتكلم لم استطع أن أجعل لساني يؤدي دوره الاعتيادي بخلق الكلمات! لم استطع أن أجعله ينطق كلمة، كلمة تعني سؤالاً! لم أستطع أن أبتعد عن الجمود الحسي! وأصبحت هنالك أمثل دور العاجز البائس! حاولت أن أستجمع قواي،

حاولت أن أخلق الكلمات أي كلمات المهم أن أتخلى عن جلباب العجز وأمتلك إرادتي! حاولت ولم أستطع ولم يخرج من لساني سوى أني قلت ودموعي تتناثر: "شاهين!!" حتى اسمه لم أستطع أن أكمله! لقد توقف كل شيء والعنوان هو بؤس الأصدقاء! عاودت مرة أخرى استجماع قواي وامتلاك إرادتي التي يمثلها لساني فقلت: "شاهين ماذا هنالك! لماذا تبكي؟!" قلت كذلك وكأني أزحت جبالاً كانت تخنقني وتقتلني، جبالاً كانت تشلني، قلتها وعين سامي تتأمل ذلك الوجه الذي تجتمع فيه الدنيا بأسرها، بدأ شاهين يرفع رأسه الذي كان منخفضاً، فارتفع الرأس وبدأت عينا شاهين تتأملان وجه سامي، مد شاهين يده نحو سامي وكأن الآية انعكست وبدأ ذلك العطوف يمسح دموع صديقه، يمسحها ناسياً دموعاً تتساقط على خديه! اعتدل شاهين في جلسته، أحضرت له كأساً من الماء البارد، وضعت المخدة خلف ظهره، بدأ يشرب من الماء والدموع تسقي الكأس! ثواني معدودة عاود شاهين النظر إلى وجهي، وضع الكأس على الأرض، تحرك قليلاً وبدأ يتكلم فقال:

- صديقي أنت تعلم أننا وحيدون، كلنا بلا أم وبلا أب، كلنا بلا أهل نعم كلنا وحيدون، والآن يا صديقي أشعر أن وحدتي بدأت تزداد في هذه الدنيا والغربة أصبحت أكثر قسوة وألماً والظلم أن ما يحصل لنا ليس بذنب اقترفناه!

أترى يا صديقي إلى هذه الدنيا إلى هذا الوجود بأسره؟ أتشاهد بعين واحدة أم تشاهد بكلتا عينيك؟! أخبرني! أتدري يا سامي في هذا اليوم، أيقنت أن صديقنا أحمد على حق في كل ما يقوله وفي كل ما يؤمن به! نعم إني أعلن الاستسلام لأحمد وكذلك أعلن الاستسلام لكل شيء! أتدري لماذا! لأني ضعيف جداً!

توقف شاهين فجأة عن الكلام فعاد الصمت واستقر ذلك الوجه الملائكي بين ركبتيه ونشيج اليأس ما زال يتردد! نعم اليأس من الحياة هو المحور، لم أكن أصدق أن ذلك الرسام، ذلك المبدع، ذلك الإنسان ذا الوجه النقي النظر، ذا الوجه الذي لم يتأثر قط بمصائب الدنيا، نعم لم أكن أصدق أن ذلك الوجه الملائكي يمثل أمامي وفي ذلك الموقف أعلى درجات الانهزام والضعف وكذلك اليأس من الحياة، نعم لم أصدق أن شاهين بكل ما يملكه من قوة ذاتية قد تلاشت منه في ذلك المكان وبين تلك الجدران.

رفع شاهين رأسه وعاد والحزن مستقر وماثل في نظراته، عاد شاهين بنظراته إلى وجهي وبحركة سريعة أمسك يدي وشد عليها ولحظات من التأمل والانتظار ومن ثم عادت يده إلى جسده ونظراته ترتفع إلى السماء وكأن الغرفة قد تلاشى منها السقف! والصمت يزداد والنظرات مسافرة صوب

السماء، زال الصمت فجأة عندما تكلم شاهين ونظراته ما زالت مرتفعة إلى الأفق:

- لقد صدقت يا جبران! نعم لقد صدقت والله...

وقل في الأرض من يرضى الحياة كما
تأتيه عفواً ولم يحكم به الضجر

عندما خرجتما في صباح هذا اليوم، جلست دقائق معدودة وبعد ذلك ذهبت إلى إحدى الحدائق المجاورة للمشفى المركزي، في الحقيقة يا سامي أني لم أكن أنوي الذهاب إلى المشفى ومنذ وضعت رأسي على المخدة وقرار عدم الذهاب كان أمراً محسوماً ومنتهياً، ولا أدري لم هذا التحول في ذلك القرار، فأثناء جولتي في الحديقة وبلا أي سبب تغير القرار وتوجهت قدماي إلى مبنى المشفى المركزي، كانت المسافة كبيرة جداً بين البوابة الرئيسية ومبنى المستشفى وكانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً، كنت أمشي ولا أعلم هل الدنيا كانت تمشي معي وتتسابق بخطواتها مع قدميّ! أيقنت وأنا أمشي أن ذلك الزمان الذي نقيس به امتدادنا في هذه الدنيا قد توقف عن المسير! وفجأة شعرت يا صديقي أن الدنيا ومكوناتها قد شُلت وأصابها النوم! نعم يا صديقي أمام مكتب الاستقبال شعرت بل أيقنت أن هنالك شيئاً ما وخطباً ينتظرني بل إني تأكدت أن الزمان

قد توقف هنالك، في ذلك الازدحام أحسست أني في مقهى وليس مشفى! وأمام شباك الاستقبال كنت أنتظر أن يتعاطف معي ذلك الموظف، أن يتواضع ذلك المبجل ويأخذ استراحة من التغزل بتلك الفتاة! كنت ككل المراجعين ننتظر من ذلك الموظف لحظات يلغي فيها الشهوانية ويكون إنساناً يحب كل بني الإنسان! في ذلك المكان وأمام شباك الاستقبال كانت نظراتي تتأمل ذلك الموقف رجل وامرأة والضحكات والهمسات أساسها الشهوانية! كنت أسأل ذاتي قائلاً: هل أنا في مشفى أم في محل دعارة؟! كانت تلك الأفكار التي خرج منها ذلك السؤال تأتي وتذهب خلال لحظات تزعجني، وفجأة تلاشت الفكرة وتلك الكلمات: مشفى، دعارة! تلاشت وكأني كنت أحلم أو كنت أتخيل صوراً لا وجود لها في الواقع! عدت إلى الواقع، رجل يمثل مشفى وأنا أمثل مواطناً وامرأة تضحك ويتفجر من وجهها كل ما له صله بالموضة كما يقال، تمثل لا أدري ماذا تمثل تلك المرأة، هل تمثل المشفى أم تمثل عارضة أزياء أم أنها نموذج قذر؟! ذهبت تلك العارضة وقبل أن تذهب أرسلت بعينيها رسالة غرام رسالة دعارة! دعارة مشفى! وبعد أن ذهبت عاد ذلك الموظف إلى واقعه وإلى عمله وبدأ يطالع جهاز الحاسوب ومن ثم يرفع عينيه بكل كبرياء ويقول: "اسمك؟" عندما قال كذلك أنا الذي ذهبت بعيداً عن الواقع وتوقعت بل إني

أيقنت أني في مركز شرطة وأمامي محقق وأنا متهم! ماذا متهم! هل أنا متهم أم مواطن أم مريض! تلاشت تلك الفكرة من رأسي ورجعت إلى واقعي فقلت بكل أدب وخوف مريض: "شاهين محمد عبدالله "بدأ الموظف ينتظر وأنا أنتظر كذلك، عاد مرة أخرى بنظراته إلى وجهي وقال بكل حنان!"بعد عبدالله ماذا؟" قلت له بكل حنان أيضاً "اسمي شاهين محمد عبدالله عمري تسع عشرة سنة، لو سمحت أريد أن أقابل الطبيب، أشعر بأن رأسي سينفجر.." وقبل أن أكمل كلامي قطع ذلك الموظف كلماتي وقال بكل استخفاف: "شعورك أجله حتى تدخل عند الطبيب!" سكت سكوت مريض لا يود الدخول في مناقشة مع متخلف وللأسف يقف في مكان مهم جداً والسبب أن له ظهراً يستند إليه وواسطة يعتمد عليها في حياته العبثية والشهوانية! اتجهت إلى غرفة الانتظار منتظراً دوري، جلست على أحد الكراسي وجدت أمامي كتيباً أخذته، قرأت العنوان وبسرعة رميت الكتيب! وسألت نفسي: من هو ذلك المسؤول الذي يختار عناوين الكتب التي توضع في غرف انتظار المرضى؟ وسألت نفسي أيضاً: هل يحتاج ذلك المريض المنتظر في تلك الغرف الكئيبة إلى كتيب يبعده عن الأجواء القاتلة أم إلى كتيب يقربه منها حتى يزداد خوفاً واستسلاماً؟! سؤالان لم أتعب نفسي بالبحث عن إجابة لهما تركتهما طائرين في السماء، تركت

الكتيبات القيمة وجلست كغيري أشاهد لعب الأطفال وصراخ رجلين يتناقشان أيهما الأفضل نادي التعاون أم نادي الرائد! حاولت أن أبتعد عن كل تلك الأجواء التي يغيب فيها كل ما له صلة بمفهوم الراحة، الأطفال يزداد لعبهم والرجلان يتحول نقاشهما إلى معركة من أجل إثبات الذات أمام الآخر! وأنا أتأمل ذلك الموقف سألت نفسي وفي ذلك المكان تكثر الأسئلة، قلت: لماذا لا يتنازل أحدهما ويريحنا ويريح الوجود بأسره؟! أإلى هذه الدرجة تعمل الرياضة بنا وتجعلنا نصل إلى مرحلة التقاذف والتشاتم! زال ذلك التساؤل كما زال قبله الكثير وكما سيزول بعده الأكثر! والانتظار يستمر وأعداد المنتظرين تتزايد ويدخل إلى غرفة الانتظار رجل غير سعودي ومعه طفله، عندما رأيت ذلك الرجل وطفله قلت في ذاتي: "الحمدلله أننا نستقبل الآخر حتى في مستشفياتنا ولا نفرق بين أحد!!" كانت تلك الفكرة تجول في ذاتي خلال ثوانٍ والفكرة ماثلة بشموخها أمام عقلي إذ بصوت الممرضة الرقيق ينادي اسم مريض ليدخل إلى الطبيب والمفاجأة أن المريض الذي أعلن عنه هو الشخص ذاته غير السعودي! لم أتعب عقلي فقد زالت المفاجأة عندما أرضخت عقلي لفكرة سامية وهي: "نحن عرب والعربي يكرم ضيفه، ويقدمه على نفسه حتى في المشفى" هذا الرضوخ الذي أصاب عقلي لم يكن رضوخاً جماعياً فقد تعالت الأصوات وازداد الصراخ

وتكاثر في غرفة الانتظار، لكن هذا الصراخ الرومنسي لم يغير أي شيء من الواقع فقد دخل الرجل وطفله للطبيب وخرجا وفي يديهما كيس من البضائع الصحية! استغربت ذلك المنظر وبينما الاستغراب ظاهر على عيني إذ بصوت قريب من أذني أسمعه يقول: "سبحان الله حتى الصيدلية قد انتقلت إلى غرفة الطبيب!"ابتسمت من ردة فعل ذلك المتكلم، وجلست أطرح على ذاتي عدداً من الأسئلة: أين هم المراقبون؟ بل أين هو المدير وكذلك المشرف؟! أين وأين وأين؟! كانت الإجابة بسيطة بدون أن أتعب عقلي الذي ينتظر سبب الدوخان والألم في الرأس، إن الإجابة ماثلة على أرض الواقع وبساطتها أبسط من أن تشرب كأس ماء! نعم يا صديقي إنهم جميعاً بلا استثناء راقدون في العسل، يفكرون فقط كيف يتم الغزل؟! تلاشت الأسئلة وتلاشت حتى الإجابة البسيطة إلى أرض بعيدة اسمها الحيرة!!

عند الساعة التاسعة والربع انكشف الغطاء وأتت الممرضة ونادت: شاهين محمد عبدالله، فأحسست من نظرات المراجعين أني أعرف مدير المستشفى وكل الموظفين! في الحقيقة أني أتمنى أن أعرف عمال النظافة فمعرفتهم في المشفى توصلك إلى كل ما تريده! كان الإحساس الذي تقمصته وهو أن توهم نفسك أمام الآخرين بأنك قوي بعلاقاتك، كان إحساساً رائعاً جداً! دخلت غرفة الطبيب

جلست على الكرسي المجاور، قال الطبيب وعيناه تتأملان في ملفي: "ماذا تشكو؟" قلت له: "أشعر بألم فظيع في رأسي يذهب ويعود، ليس مستقراً في مكان محدد بل إنه ألم ينتقل في كل أجزاء رأسي وأحياناً أصاب بالدوران والإغماء من شدته، هذا الألم له فترة ليست بسيطة تقارب الشهرين وأكثر، كنت أعالجه بحبات مسكن الصداع ولكن مع الأيام فإن أربع أو خمس حبات لم تعد تفعل شيئاً قط" رد الطبيب قائلاً: "لا أستطيع أن أحكم، لأن الأعراض غريبة لذلك خذ هذه ورقة طلب أشعة، خذها وعد إليّ بعد إجرائها" دلني الطبيب على قسم الأشعة، توجهت إلى القسم وهناك يا صديقي رأيت امرأة من وطني يفتخر بها الإنسان، احترام للمريض وقبل ذلك احترام للنفس وتقيد بالأخلاق وأدب وحياء، جلست عندها دقائق معدودة وأخذت لي الأشعة وأعطتني الملف وقالت لي: "شد حيلك الله يعينك!" تلك الكلمات التي قالتها لم يكن لها أي أثر أو أي أهمية لديّ إلا فيما بعد! توجهت إلى غرفة الطبيب وأعطيته الأشعة وطلب مني أن أنتظر في الخارج، عدت إلى غرفة الانتظار والواقع هناك لم يتغير! الصراخ كما هو، والأطفال ازداد عددهم ولعبهم، والرجلان المتناقشان مازال نقاشهما قائماً والتعاون والرائد هما كما هما لم يتغيرا! كل شيء هناك لم يتغير الواقع هو الواقع الذي تركته! المشفى هو المشفى!

والغزل والشهوانية مرتكزة هناك! أغلب النساء هناك لا يعرفن الحياء، أما الرجال فهم إما متناقشون في موضوع سياسي أو موضوع رياضي وإما إنهم كما موظف الاستقبال منشغلون بجمع أكبر عدد من الصيدات النسائية! وعلى الرغم من ذلك الواقع المر إلا أن هنالك والحقيقة تقال رجالاً هم الرجال ونساء هن النساء، الاحترام والخوف من الله والأدب تتمثل في ذواتهم وأفعالهم.

تركت تلك الغرفة المزعجة، خرجت إلى الممر، كانت روحي طائرة، وكان عقلي مشلولاً في ذلك الممر، كنت كما لم أكن! آهٍ يا صديقي! نادت الممرضة اسمي ووجهها النضر تحول إلى وجه امرأة حائرة وخائفة! نعم يا صديقي أقسم بالله وأنا ابن التاسعة عشر ربيعاً أني أعرف وجه المرأة الحائرة وجه المرأة الخائفة! لقد كان في ملامح تلك الممرضة كلام كثير وعلى مرمى من اللسان، توجهت إلى الطبيب دخلت غرفته جلست على الكرسي، كان ذلك الطبيب الذي لم أنتبه له في اللقاء السابق يتأملني بشدة! وفجأة خفض عينيه وأخذ جهاز الهاتف الداخلي وبدأ يتحدث باللغة الانجليزية وعيناه تنظران بكل تركيز في أشعتي! أصابني الذهول بل الخوف! لا أدري ما الحكاية؟! وبعد دقائق أغلق جهاز الهاتف وعاد إلى تأمل أشعتي وفجأة دخل علينا رجلان أحدهما طبيب من ملابسه والآخر يلبس ملابس مدنية،

استغربت كل ما يحصل! عرفت فيما بعد بأن الأول طبيب متخصص بالأشعة والتدقيق عليها، والآخر مشرف نفسي وأخصائي اجتماعي! جلس الرجلان وقام الطبيب وتركنا وحدنا! بدأ كل واحد منهما يتكلم في مواضيع بعيدة جداً عن الواقع وعن المشفى وعن الأشعة! وفجأة قال المشرف الاجتماعي بالحرف الواحد: "كل شيء بيد الله يا شاهين، إنك مصاب بمرض السرطان في رأسك!!"ماذا ماذا السرطان ولم أكمل العبارة وأغمي عليّ! وبعد دقائق بسيطة عدت إلى الواقع وبيدي ملف لمراجعة مركز علاج الأورام وأخبروني أنه يجب السرعة في الذهاب إلى المركز..!

السرطان تلك الكلمة ترن في أذني، خرجت من غرفة الطبيب أمشي ولا أدري ولا أعلم هل أنا موجود في هذه الدنيا؟ هل أنا شاهين قبل ساعات؟ هل أنا أحمل مرضاً في دماغي؟ هل ما سمعته صحيح أم حلم مزعج؟! كنت أمشي وجبال الكون أشعر بها فوق رأسي، شعرت فجأة وأنا أعبر الممر بأن الألم بدأ يزداد في مؤخرة رأسي بل شعرت بمطرقة تطرق وتطرق ولا ترحم! آهٍ يا دنيا دماغي التي أفكر بها، دماغي التي أفهم من خلالها، دماغي يقتلها يأكلها كائن حقير وأنا أموت يا صديقي! بعد خروجي من المستشفى وأثناء مسيري لم أكن أعلم إلى أين أذهب أو إلى من أتحدث

بل لم أكن أفهم إلى من أبكي وأبكي!! كانت دموعي المحبوسة تجعل نظرات البشر تزداد تأملاً في وجهي! نعم يا صديقي لقد كنت أرى الوجود حلماً وسيزول، بل إني أيقنت أن كل ما أحلم به سيموت بل سيفنى ويتلاشى..

الأورام السرطانية منتشرة في أجزاء كبيرة من الدماغ! كذلك قال لي الطبيب. أتعلم معنى الموت البطيء؟ دعك من هذا السؤال المميت والدخول في إجابته القاتلة! أعود يا صديقي إلى مسيري لم أكن أعرف إلى أين أذهب، كنت أمشي وأرى الوجود وكأنه فكرة بلا معنى بل إني رأيت الوجود حشرة حقيرة تريد فقط أن تلتهم شاهين! كانت الدموع المحبوسة محور الوجود وكان السؤال الماثل أمامي هو: إلى أين أذهب؟! كانت الساعة في حدود الثانية ظهراً. تذكرت أني لم أصلّ الظهر فاستقرت في عقلي فكرة التوجه إلى المسجد، توجهت إلى بيت الله، وضعت حذائي، حاولت يا صديقي أن أفتح الباب، باب المسجد، باب بيت الله، باب هو ملك لكل مسلم، كان الباب يا صديقي مقفلاً! وفجأة أتى عامل المسجد وقال بصوت مرتفع وبلهجة عربية متكسرة: "الباب مقفل ولا يفتح إلا في أوقات الصلاة" قال تلك الكلمات وذهب ولم أحاول الطلب منه بأن يفتح الباب فقد تركت البدء في مناقشة، لقد كانت عواطفي تريد في تلك

اللحظة أن تجمع كل البشرية نعم كل البشرية وتحرقهم كلهم! في ذلك المكان وأثناء ذلك الزمان تذكرت كلمات أحمد: "إني أكره الوجود!!"نعم يا سامي في ذلك الزمان وأمام بوابة المسجد المقفلة كرهت الدنيا كرهت الوجود، لبست حذائي مشيت خطوات قليلة، كانت الشمس حارة جداً، وقفت أمام الشارع كان باب المسجد المقفل خلفي وأمامي الشارع المزدحم، كنت أتأمل، عقلي الذي يمتلئ الآن بكائن غريب، بكائن يأكل خلايا دماغي، عقلي الآن تلاشت منه كل المعاني بل كل القيم! كما تلاشت منه كل المصطلحات وانبثق منه الألم! نعم إني وأمام ذلك الشارع وخلفي المسجد المقفل كان الألم محور الوجود، ذلك الألم يعني غياب الإرادة، غياب التواصل الروحاني مع الوجود! كنت أتألم ليس بسبب الكائن الحقير الذي يأكل عقلي بل إني أتألم بسبب فكرة تحتل وجودي وتطرح على أرض واقعي سؤالاً: لماذا أنا الوحيد الذي تطردني الدنيا؟! لحظات وكان السؤال يزداد جبروتاً وعظمة وفجأة سقطت على الأرض! دموعي تعلن للدنيا أني ضعيف، أخذت منديلاً مسحت دموعي، استجمعت قواي وقفت حاولت أن أجعل ذلك السؤال يتلاشى أو يختفي ولكنه كان جباراً فقد احتل عقلي وازداد وجوداً! كان مخرج ذلك السؤال عقل يأكله كائن خبيث،

لحظات وخرج من باطن مكان ما، مكان لا أدري ما اسمه! لكنه مكان في جسدي بل في روحي سمعته يصرخ بقوة محاولاً أن يقتل ذلك السؤال: "توقف، توقف يا عقل عن قتل إنسان!" صوت كالبركان انفجر من داخلي "توقف، توقف" كان المسجد المغلق على يميني وكان ممر السيارات على شمالي، للأسف كنت أفكر بتلك الأيام الماضية، كانت الساعة في حدود الثانية وخمس عشرة دقيقة ظهراً، كنت أفكر بالماضي، أنظر إلى المسجد فأزداد حيرة! أنظر إلى الشارع إلى تلك السيارات، إلى ذلك العامل الذي يلتقط القاذورات من الأرض، كنت أفكر! نعم أنا مريض إذن أنا أفكر! لا أستطيع إلغاء أية فكرة تخرج من عقلي الملوث! في ذلك الزمان أحسست فجأة أن كل من على الأرض قد زال صوت السيارات قد تلاشى! أشعة الشمس اختفت! البشر زالوا! أحسست أني المنفرد بالوجود في هذه الدنيا من الكائنات! كل شيء زال، التفت إلى يميني فرأيت أن كل شيء قد اختفى! والمسجد منتصب ولم يتغير فقد فتح بابه وبلا شعور دخلت المسجد المفتوح! لا يوجد شيء فقط أنا والمسجد! توجهت إلى المحراب، اقتربت واقتربت وقفت مذهولاً وحائراً ولكني أحسست لوهلة أني في قمة الأمان، وفي المحراب هواء بارد يغازل جسدي، وأستمر بالوقوف أمام

المحراب والهواء البارد يغشي جبيني والدنيا لا يوجد بها سوى شاهين والمسجد المفتوح! وفجأة أعود إلى واقعي باصطدامي بعامل النظافة! فعدت إلى التفكير في الماضي مرة أخرى، ذلك الماضي الذي يعني تسع عشرة سنة عشتها في هذه الدنيا، كنت أفكر في الماضي فازداد تفكيري وتعمقي به فتذكرت طفولتي وتذكرت حرماني وتذكرت الملجأ وتذكرت أدق الذكريات، تذكرت أول ريشة رسمت بها وتذكرت أول ليلة وضعت فيها رأسي على المخدة وكنت أشعر أني بحق فنان أرسم وأنحت وأنتج! وتذكرت أول لوحة رسمتها أناملي وتذكرت الألوان وبدأت أتعمق أكثر فتذكرت تلك الحديقة التي كنا نجلس فيها أثناء عيشنا في الملجأ، تذكرت تلك الشجرة التي كنا نسميها: شجرة أحمد! وازداد تفكيري فتذكرت أحمد وتذكرتك يا سامي وتذكرت ألاّ أم لي وتذكرت بأني بلا أب وتذكرت أني بلا أهل وتذكرت وأنا في قمة الحزن أني بلا حضن أبكي فيه وتذكرت وتذكرت وفجأة بدأت أفكر في المستقبل وفي ذلك العقل المحتل! ماذا سيكون مستقبلي؟! مرض استسلام، خوف؟ نعم لقد خفت من فكرة الاستسلام، هل يعقل أن يأتي يوم لا أستطيع إمساك الريشة فيه لأرسم! آه تلك الفكرة تقتل شاهين، أتعرف يا صديقي معنى أن تتذكر؟! أتدرك ذلك؟! أتفهم تلك

الجملة؟ معناها يا سامي أن تصرخ، أن تبكي، أن تموت في كل لحظة بل معناها أن تنتظر والانتظار هو الألم الحقيقي..

وعاد الصمت ولكنه في هذه المرة قد امتزج بحزن مرير جداً وتابع شاهين نجواه وعيناه تمتلئان خوفاً وترقباً وألماً!

- سامي أرجوك اتركني أنا ومرضي وحدنا! أريد أن أكون وحدي أرجوك!

- على راحتك يا شاهين..

قلت كذلك تاركاً آلاف الكلمات التي كانت تريد أن تخرج إلى مسمعه والتي تعبر عن صديق يواسي صديقه... نعم لقد تركت صديقي..

(23)

تركت صديقي، تركته والتأوهات ماثلة على تقاسيم وجهه، خرجت من الغرفة متجهاً نحو الشارع الفرعي الذي نسكن بجانبه المرتبط بالطريق الأساسي، كنت أسير خافض الرأس متأرجح المشية متمايلاً يميناً وشمالاً وبرغم ذلك كنت أسير، كنت أشعر في ذلك الزمان وعند الساعة الرابعة عصراً أني نزلت من عالم بعيد جداً عالم لا يعرف هذا الشارع، عالم لا يمت إلى هذا الوجود بأي صلة، كل شيء حولي قد تغيرت ملامحه! الشارع الضيق أصبح أكثر ضيقاً! ذلك المخبز في الركن الأيمن الذي اعتدت الشراء منه منذ سكنت قد تغير كثيراً حتى العامل ذو اللحية الطويلة قد تغيرت ملامحه وتلاشت لحيته! وقفت فجأة مذهولاً بل مرتبكاً حائراً كل شيء حولي يوحي بأنه قد تغير في لحظة زمنية حقيرة سرقت مني كل شيء كنت أحلم به وأعيش لأجله! وتتكرر تلك الكلمة وصداها يزداد "لأجله" نعم أعيش لأجله شاهين حبيب القلب صديقي، بيني وبينه مسافة أمتار قليلة هو هناك

يتألم، هو هناك يصرخ، هو هناك يبكي الدم، حاولت أن أبتعد بتفكيري عن هذا المحور "لأجله" لم أستطع، حاولت واستطعت أن أبتعد عن ذلك المحور وتبدلت الكلمات فجأة عندما خرجت تلك الكلمة التي تعني الذهول بل تعني الانتظار: " السرطان" ذلك الفتاك يقتل ويقتل ولا يرحم ينتقل من جسد لآخر ومن عضو لعضو، لا يعرف سوى الفتك، سوى أن يؤدي دوره الاعتيادي بخلق الموت البطيء، ذلك الفتاك الخبيث يعيش الآن في جسد صديقي لا بل في دماغ صديقي! أيعقل ذلك؟! هل تصدق الدنيا أن المآسي تجتمع الآن بجبروتها وفتكها في شخص شاهين! ألم الأفكار! ألم المستقبل الذي يعني العذاب، ألم الذكريات، إن الإنسان عندما يصاب بالمرض الجسدي يموت ليس بسبب المرض الكائن في جسده بل إنه يموت بسبب الذكريات، إن الذكريات تقتل المريض أكثر من غيرها! بل إن تلك الذكريات كثيراً ما تجعل المريض يستسلم لحاضره المرضي استسلاماً يعني انتظار الموت المنتظر، إن الذكريات تعني أن يزداد العقل في التفكير والتذكر وكلما ازداد في عملية استرجاع الذكريات ازداد المرض سوءاً وأدى بالمريض إلى الموت البطيء أي إلى الاستسلام...

(24)

أصيب شاهين بمرض السرطان وأصبح المرض واقعاً نعيشه نحن الثلاثة، عشت مع صديقي بغرفة واحدة منذ علمت بمرضه، كان صيف تلك السنة يعني الانتظار والدعاء، كنت أسهر بجانبه الساعات الطوال، عندما قرأت تقرير المشفى المركزي أيقنت أن المرض قد انتشر في أجزاء متعددة من جسده. .

في الغد ذهبت وشاهين إلى مركز علاج الأورام السرطانية كان ذلك بعد محاولات عديدة وامتناع لشخص شاهين، ذلك المركز الذي يعتبر من أكبر المراكز على مستوى الشرق الأوسط في علاج وتشخيص الأورام السرطانية، عندما دخلنا إلى المركز تم تمزيق كل التقارير والفحوصات السابقة التي جلبناها! فقد تم إجراء فحص شامل لشاهين وإجراء عدد من التحاليل والأشعة لكامل جسده، وكانت النتيجة النهائية بعد عدة أيام وأذكر أني ذهبت وحدي لاستلام النتيجة والاطلاع على تقرير الفريق الطبي الذي تم تشكيله ليشرف

على علاج شاهين، كان التقرير يلخص أن حالة شاهين متدهورة جداً وأن اكتشاف المرض كان بوقت متأخر جداً وكذلك فإن الأورام السرطانية منتشرة في أجزاء كبيرة من دماغه وعلى مشارف المخ وكذلك يحذر التقرير بأن المريض قد يفقد بصره بسبب انتشار المرض في الجزء البصري من الدماغ! وقد أوصت اللجنة المشرفة بأن يتم علاجه من خلال تسليط الإشعاع على الأماكن التي يصعب السيطرة عليها باستخدام العلاج الكيماوي! هذا العلاج الذي يعني الألم والاستفراغ المتكرر والصداع المتزايد، كذلك فإن من توصيات اللجنة بأن يتم إجراء عملية عاجلة لإزالة الكثير من الأورام المنتشرة في أجزاء كثيرة من جسد شاهين! كان التقرير يعني بكل بساطة الاستسلام للواقع والحقيقة أن شاهين لم يطلع على ذلك التقرير فقد كان يكفيه من واقعه المرضي أنه مصاب بمرض السرطان وأن ذلك الخبيث يعيش في دماغه.

عندما أتذكر ذلك الماضي وأطيل التمعن في ذلك المرض الغريب الذي كان يمارس على صديقي مبدأ الألم المتقطع، ذلك الألم الذي يتلاعب بالإنسان فأحياناً كنت أرى صديقي وأقول في ذاتي: "إنه سيموت الآن!" وأحياناً أراه وأقول: "إن المرض قد زال منه!!"نعم إن ذلك المرض كان يتلاعب بجسد صديقي وعقله وذلك من خلال استخدام

الألم على شكل جرعات!! كثيراً ما كنت أرى صديقي ودموعي مخنوقة داخل روحي، كنت أرى نشيجه وبكاءه الخفي من الألم! آهٍ من ذلك المرض الذي ينهي حياة الإنسان ويجعل منه لا شيئاً، خلال فترة عيشي بجانب شاهين تعلمت كثيراً وخفت أكثر، تعلمت أن ذلك الإنسان هو أشبه بالبعوضة أي شيء ينهي كل شيء، وخفت كثيراً من فكرة أن يأتي يوم ما ولا أرى عيني شاهين وابتسامة شاهين ووجه شاهين، كانت تلك الفكرة تقتل الفرح في محيطي..

.. أثناء إقامتي بجانب شاهين كنت أموت ألف مرة كلما تحرك وكلما ابتسم، كان الخوف من فقد كل تلك الأشياء التي اعتدتها يجعلني أكثر حزناً وخوفاً، حاولت بكل ما أوتيت من ذكاء أن أخرج شاهين من هذا الجو الكئيب وذلك من خلال قراءة القصص والقصائد وذكر الأحاديث، كنت بذلك أمارس دور الأم التي لم نتعود وجودها، وكان صديقي دائماً يختار قصيدة أو مقالاً يكون قد اشتاق إلى سماعه فيطلب مني قراءته على مسمعه وكنت أفعل ذلك عن طيب خاطر ودموعي تتأرجح داخل عيني. إن شاهين يعني لي الحياة كما هو أحمد، إننا ثلاثة كرؤوس المثلث إذا ذهب واحد منا فيعني أن المثلث قد انتهى..

***

وتمر الأيام وقد أخذت معها شعر شاهين وبصره الذي بدأ يضعف كثيراً بسبب تسليط الإشعاع على دماغه، وعلى الرغم من كل ذلك فقد كان شاهين يمسك القلم ويتحسس الأوراق ليكتب مشاعره ومذكراته وكنت أحترم خصوصيته ولا أتعدى على ما كتب، وأذكر في ذات يوم وبعد أن كتب مذكراته اليومية متحاشياً الأسطر محاولاً أن يُبعد الكلمة عن الأخرى مسافة تؤدي إلى عدم تشابك الكلمات طلب مني أن أحضر ديوان الشاعر العراقي العربي: بدر شاكر السياب وأن أقرأ له قصيدة كان يحبها، وبالفعل فقد أحضرت الديوان وقلت والوجود كله صامت بلا أدنى صوت فقط كان السياب يحتل الوجود كله بأنشودة المطر..

عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعة السحر،
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر.
عيناكِ حين تبسمان تورق الكروم
وترقص الأضواء... كالأقمار في نهر
يرجُّه المجذاف وهناً ساعة السحر
كأنما تنبض في غوريهما، النجوم...
وتغرقان في ضبابٍ من أسى شفيف
كالبحر سرح اليدين فوقه المساء،
دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف،

والموت، والميلاد، والظلام، والضياء،
فتستفيق ملء روحي، رعشة البكاء
ونشوةٌ وحشيةٌ تعانق السماء
كنشوة الطفل إذا خاف من القمر!
كأن أقواس السحاب تشرب الغيوم
وقطرةً فقطرةً تذوب في المطر...
وكركر الأطفالُ في عرائش الكروم،
ودغدغت صمت العصافير على الشجر
أنشودة المطر...
مطر...
مطر...
مطر...
تثاءب المساء، والغيومُ ما تزال
تسحُّ ما تسحّ من دموعها الثقال.
كأن طفلاً بات يهذي قبل أن ينام:
بأن أمّه - التي أفاق منذ عام
فلم يجدها، ثمّ حين لجّ في السؤال
قالوا له: "بعد غدٍ تعود..." -
لا بدّ أن تعود

- لا أظن أنها تستحق الانتظار! من يرمي طفلاً هو

حشرة تستحق القتل! وليس كل أم هي أم بالحقيقة! إني أرى الموت قريباً جداً مني وأقول والموت كذلك: يا ربي اجعلها في نار جهنم!!

قال كذلك شاهين مقاطعاً السياب، رفعت عينيّ عن الأوراق وتأملته فكانت دموعه تقول لي: أكمل بلا جدال!!

وإن تهامس الرفاق إنها هناك
في جانب التل تنام نومة اللحود
تسف من ترابها وتشرب المطر؛
كأن صياداً حزيناً يجمع الشِّباك
ويلعن المياه والقدر
وينثر الغناء حيث يأفل القمر.
مطر...
مطر...
أتعلمين أيّ حزنٍ يبعث المطر؟
وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟
وكيف يشعر الوحيد فيه بالضّياع؟

- الضياع.. الضياع.. إني أشعر بالضياع! إني ضائع وروحي تئن وتئن!

قال كذلك شاهين ولم أحاول الرد على آهاته، فقد كنت

أعلم أن مشاعره هي التي تتكلم وكنت أرى في وجهه تلك الآهات المدفونة التي تريد الانفجار!!

أتعلمين أيّ حزنٍ يبعث المطر؟
وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟
وكيف يشعر الوحيد فيه بالضّياع؟
بلا انتهاء - كالدّم المراق، كالجياع،
كالحبّ، كالأطفال، كالموتى - هو المطر!
ومقلتاك بي تطيفان مع المطر
وعبر أمواج الخليج تمسح البروق
سواحل العراق بالنجوم والمحار،
كأنها تهمّ بالشروق
فيسحب الليل عليها من دمٍ دثار.
أصيح بالخليج: " يا خليج
يا واهب اللؤلؤ، والمحار، والردى! "
فيرجعُ الصدى
كأنه النشيجُ:
"يا خليج
يا واهب المحار والردى.. "
أكاد أسمع العراق يذخر الرعود

- أرجوك يا سامي كررها وكررها، العراق يستحق أن

نصرخ لأجله، باسم السياب كررها واجعل البشر كلهم يسمعون صراخ العراق...

قال كذلك صديقي منفعلاً ومرتبكاً والعراق يحتل جبينه!

أكاد أسمع العراق يذخر الرعود
ويخزن البروق في السهول والجبال،
حتى إذا ما فضّ عنها ختمها الرّجال
لم تترك الرياح من ثمود
في الوادِ من أثر.
أكاد أسمع النخيل يشربُ المطر
وأسمع القرى تئنّ، والمهاجرين
يصارعون بالمجاذيف وبالقلوع،
عواصف الخليج، والرعود، منشدين:
" مطر...
مطر...
مطر...
وفي العراق جوع

- آه يا بلاداً تئن وتئن ونحن صامتون! آه يا بلاد الحضارات، يا عراق المجد!

قال كذلك شاهين وكأنه أمام السياب يجادله!

وفي العراق جوع

وينثر الغلال فيه موسم الحصاد
لتشبع الغربان والجراد
وتطحن الصّوان والحجر
رحىً تدور في الحقول... حولها بشر
مطر...
مطر...
مطر...
وكم ذرفنا ليلة الرحيل، من دموع
ثم اعتللنا - خوف أن نلام - بالمطر...
مطر...
مطر...
ومنذ أن كنّا صغاراً، كانت السماء
تغيمُ في الشتاء
ويهطل المطر،
وكل عام - حين يعشب الثرى - نجوع
ما مرّ عامٌ والعراق ليس فيه جوع.

- كيف ذلك؟! ما مر عام والعرق ليس فيه جوع!! هل يجوع العراق وهو بلاد الخيرات كيف؟!

قال كذلك صديقي وعيناه منطلقتان نحو المدى تنتظران إجابة تُرى!

ما مر عامٌ والعراق ليس فيه جوع.
مطر...
مطر...
مطر...
في كل قطرة من المطر
حمراء أو صفراء من أجنة الزهر.
وكل دمعةٍ من الجياع والعراة
وكل قطرة تراق من دم العبيد
فهي ابتسامٌ في انتظار مبسم جديد
أو حلمةٌ توردت في فم الوليد
في عالم الغد الفتيّ، واهب الحياة!
مطر...
مطر...
مطر...
سيُعشبُ العراق بالمطر..."
أصيح بالخليج: "يا خليج...
يا واهب اللؤلؤ، والمحار، والردى!"
فيرجع الصدى
كأنه النشيج:
"يا خليج
يا واهب المحار والردى."

وينثر الخليج من هِباته الكثار،
على الرمال، : رغوة الأُجاج، والمحار
وما تبقى من عظام بائسٍ غريق
من المهاجرين ظل يشرب الردى
من لجة الخليج والقرار،
وفي العراق ألف أفعى تشرب الرحيق

- تشرب الرحيق! والعراق فيه جياع وعراة ومهجرون! آهٍ يا عراق!

قال كذلك شاهين والعراق بعظمته يجتمع في وجه شاهين الحزين!

وفي العراق ألف أفعى تشرب الرحيق
من زهرة يربُّها الفرات بالندى.
وأسمع الصدى
يرنّ في الخليج
" مطر...
مطر...
مطر...
في كلّ قطرة من المطر
حمراء أو صفراء من أجنةِ الزهر.
وكل دمعة من الجياع والعراة

وكل قطرة تراق من الجياع والعراة
فهي ابتسامٌ في انتظار مبسمٍ جديد
أو حلمةٌ توردت على فم الوليد
في عالم الغد الفتي، واهب الحياة.. "
ويهطل المطر...

- ويهطل المطر يا سامي وسيظل يهطل وسيظل المطر وستظل القطرات على النخيل وستبقى الأنهار تجري في العراق والعراة والجياع على شط النهر يتألمون ويبكون جائعين ويصرخون: هل من مُعطٍ؟ هل من مغيث؟ وفي العراق كل شيء وأي شيء والعراة والجياع بلا سكن وبلا حضن والمهجرون من أبناء العراق في كل مكان بلا سكن وبلا حضن وفي العراق ألف جرثومة تأكل وتمتص الدماء وترقص على ملابس كانت سابقاً لعراة اليوم! حتى تلك القطرات التي كانت تستقر على النخيل والشجر ستسرق وسيأخذها أولئك نعم أولئك باسم مكافحة الإرهاب وسيجتث النخيل باسم إزالة الإرهاب والنخيل نخيل والإرهاب إرهاب! في العراق يا سامي الخيرات والنفط والعراة عراة والجياع جياع والحزن حزن العراق بل حزن العرب كلهم باسم العراق.. أين العراق وسط إنشاء الديمقراطية؟ العراق أتعرف يا سامي أين هو العراق؟! أتريد أن تعلم أين يعيش العراق؟!

العراق هناك، نعم هناك شامخ مجيد لأنه العراق، وستظل الجرثومة تأكل وسيظل العراق هناك لأنه العراق، قبل تلك الجرثومة أتى التتار وأتى بعدهم وقبلهم الكثيرون والعراق لم يتغير ولن يتبدل لأنه العراق وسيظل العراق وسيظل الشمال والجنوب عراقاً وستظل بغداد للعراق والعرق للعراق، أتعرف لماذا أقول ذلك؟! لأن العراق عراق والجرثومة جرثومة، والعراق شامخ عزيز لا ينام والجرثومة صغيرة وذليلة دائماً، وسيظل العراق لأنه العراق..

قال كذلك شاهين وعيناه اللتان لا تريان متجهتان نحو المدى، متجهتان نحو من ملك الكون كله وكأنهما تقولان: يارب أن يظل العراق للعراق والعرب للعراق.

عندما أنهى شاهين كلامه كان الوقت قريباً من منتصف الليل، طلب مني أن أحضر له سجادة ليصلي، جلس شاهين يصلي ساعة كاملة يسجد ويركع بانحناء بسيط، كنت أشاهده وهو يحاول أن يرفع يديه ليدعو ربه، كنت أشاهد دموع مريض، تلك الدموع التي تعني الألم الخفي، ذلك اليوم وتلك الليلة حفرا في داخل الروح وسيظلان كذلك إلى الموت، عندما أنهى شاهين صلاته طلب مني أن أقرأ له من القرآن، جلست أقرأ له كان صديقي مبتسماً تلك الابتسامة التي ظلت ماثلة على محياه وفجأة طلب مني أن أساعده على الاستلقاء على السرير، واستلقى صديقي وأكملت قراءة

الآيات، كنت أفعل ذلك وأتأمل نظرات شاهين المتجهة إلى الأعلى وبينما أنا أقرأ وعند الآية(55) من سورة طه التي تقول: (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) تحركت يد شاهين واعتدل في جلسته وكأن المرض قد تلاشى وأشار إلى الأرض وقال:

- من التراب من الأرض خُلقنا وفيها سنموت وندفن وسنبعث من الأرض كذلك، أشهد أن لا آله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وسقط شاهين من على السرير! أتعرف يا هذا معنى أن ترى إنساناً يحتضر؟! لقد كنت معه وبجانبه وهو يحتضر، كنت أقرأ القرآن وأتأمله والعرق يتصبب منه بكثرة، نعم كنت هناك وملك الموت يجلس معنا ويأمر الروح أن تخرج، نعم مات شاهين وذهب شاهين لم أستطع التحرك كنت أمام موقف جديد وفجأة صرخت قائلاً: مات شاهين!! اقتربت منه وضعت رأسي على رأسه وأنا أبكي وأبكي ودموعي على رأس شاهين تجري! حاولت أن أتمالك نفسي، توجهت إلى الباب لا أدري إلى من أذهب وماذا أعمل؟! التفت خلفي فرأيت جسد صديقي منطرحاً على الأرض، أشفقت عليه بل إني أشفقت على الدنيا بأجمعها، عدت إلى شاهين اقتربت منه مرة أخرى وحملته بيديّ وأعدته إلى السرير، جعلت رأسه مرتفعاً وقبلت جبينه و قبلت جبينه مرة أخرى وثالثة ورابعة

وانهرت بكاء، كنت أقبله وأصرخ والدم يجري بشدة: "مات شاهين صديقي مات!!" بدأت الدنيا تدور في عيني بل في كل رأسي، ذهب شاهين، غاب شاهين، راح شاهين، آه مات شاهين، حاول قلبي الضعيف أن يتمالك الموقف فلم أستطع، كان وجهه جميلاً مبتسماً وهو على فراش الموت، نعم لقد مات صديقي شاهين ومات معه كل شيء والذكرى تحمل خنجراً مسموماً يطعن جسداً ضعيفاً!

ذكريات الأمس الماضية
أبحرت بي فوق الأمواج العاتية
ذكرتني الذكريات بأصدقاء
لهم داخل قلبي إخاء

الذكرى.. آهٍ من الذكرى
تحمل بجناحيها أصداء
تجعلني أبكي على أصدقاء

الذكرى تحمل خناجر!
تطعن بها محاجر..

الذكرى تجعلني أطير بلا جناح!

أطير وقلبي ملء فحاح!

في ليلة لا تنسى ومع ضوء القمر كانت جثة شاهين ممددة على السرير وكنت أتأمل شاهين، ألتفت يميناً فتسقط عيني على لوحة رسمها! أتحاشى النظر فألتفت شمالاً وأرى لوحة أخرى حفرتها أنامله الطاهرة، أعود بنظراتي إلى صديقي إلى تلك الشعيرات المتناثرة على صدغيه إلى تلك الابتسامة الثابتة، أغمض عينيّ فتعود الدنيا إلى مستودع الذكريات نعم في اللحظات الكبرى ومع تزاحم الدنيا أمامنا تخرج لنا من مستودع الذكريات ذكرى بسيطة نامت منذ زمن في ذواتنا وخرجت في أهم اللحظات، نعم أمام شاهين وعيناي مغمضتان تذكرت تلك الساعة من آخر الليل، كنت نائماً أعيش أحلام طفولة يتيم! كنت نائماً والدنيا قد هجرتها خلفي وفجأة يوقظني شاهين ويمد لي قطعة حلوى كنت أحبها كثيراً ويقول لي: "لقد احتفظت بها من أجلك، أنت تحبها وهي لك" تلك الحادثة التي عاشت مدفونة في داخل الروح وخرجت وأنا أمام جثة شاهين تعني الذكرى، هذه الذكرى التي تلد الموت الآن، الموت الذي يبقيك حياً تتعذب من أجل الذكريات، العقل لا يفكر الآن، شلت كل الخلايا لم تبق إلا خلايا تتذكر فقط! تتذكر فيخرج الماضي، الماضي الذي يعني أحمد وشاهين، الماضي الذي يقلب الذكريات، آهٍ

من الذكريات، منذ أصيب شاهين بالسرطان والتفكير بلحظات الموت يشل ويقتل سامي والآن قد مات صديقي فمن يعزيني..!

(25)

مذكرات شاهين تلك العواطف التي قرأتها وأنا أمام جثة شاهين! نعم لقد كنت أقرأ وأتأمل صديقي، كانت الكلمات متباعدة بل أحياناً تجد كلمة واحدة تحتل معظم الصفحة! مذكرات شاهين هي ببساطة: مذكرات يتيم، مذكرات مريض، مذكرات فنان، إنك عندما تقرأ شاهين فأنت تقرأ الحياة..

* * *

كلمة لأجل التاريخ!

.. المهم والأهم، المبدأ الأساسي الذي يجب أن نعرف من خلاله صلتنا بهذه الدنيا، يجب أن ندرك إدراكاً ثاقباً للمهم والأهم، إنه مهم أن نتعلم ونبني أنفسنا وننهل من الثقافة ونقرأ التاريخ ونصل بذلك إلى تحقيق طموحنا ونرتقي إلى أعلى المراتب ولكن الأهم من كل ذلك هو أن نعيش لأجل الناس، لأجل البشرية جمعاء وأن نبتعد دائماً عن المهم وهو نجاح وتفوق الذات، بكل بساطة ولأجل التاريخ

أكتب: يجب أن نبشر برسالة وفلسفة وندعو لها ونحارب بل ونموت من أجلها..

5-1

عندي رغبة كبرى بأن أرسم لوحة فنية من يتأملها لا يدري من أي أنواع الرسم هي..

5-10

أخاف عليه كثيراً، أشعر أحياناً بأنه ضائع بين عالم الفلسفات الإلحادية وأحياناً تذهب تلك الفكرة الحقيرة، فكرة الإلحاد لدى أحمد من عقلي، لا أدري من أصدق هل أصدق عقلي الذي يقول إنه أكثر المؤمنين إيماناً أم أصدق أذني وعيني اللتين بهما أسمع وأرى أشياء غريبة، منذ سمعت أحمد يتحدث على لسان أبي العلاء المعري عن مقت الدنيا والزهد فيها وعدم أكل اللحوم خفت كثيراً عليه ذلك لأني أعتبر أنّا نحن الثلاثة شخص واحد ولا أظن أن سبب ذلك الارتباط الروحاني الذي يجمعنا يرجع إلى عيشنا طفولة واحدة وواقعاً مشتركاً بل إني أرى أن الارتباط كان سببه الحب، نعم الحب ذلك الشعور الداخلي الذي يخرج على شكل عواطف وأفعال تجاه الأشخاص الذين نحبهم، كم أتمنى أن يأتي يوم ويكون الحب موجوداً في حياتنا بأكملها،

كم أتمنى أن نعيش ثلاثتنا وفي أحضاننا ثلاث نساء، زوجات لنا ومن حولنا أطفالنا يرقصون ويصرخون وينادون بأعلى أصواتهم: بابا شاهين، بابا أحمد، بابا سامي، كم أتمنى أن تكون السعادة محور وجودنا.. لا أستطيع أن أكمل الكتابة فبعد تلك الأمنية يقف القلم مسجوناً فيها..

5-14

سبحان الله كم في القراءة من سحر يجعلك تنسى كل الموجودات المحيطة بك، بل يجعلك مسافراً في عوالم أخرى، عوالم بعيدة عن أرض الواقع، تبحر بك على سفينة الثقافة وتمر بك على شواطئ تغني عقلك الجائع الذي لا يعرف لمصطلح الشبع وجوداً في عالمه، كم أتمنى والأماني كثيرة أن أرى في يوم ما رواية تحمل اسم صديقي سامي ذلك لأنه مبدع و يستحق أن يطلق عليه لقلب " كاتب " لشد ما لقصصه القصيرة من تأثير في نفسي، حيث أني أعيش معها في عالم جميل جداً، يسحرني سامي بفنه وذوقه وأسلوبه وقدرته على تصوير الواقع من خلال أبطال قصصه...

إني أمسك القلم لأكتب مذكراتي وبعد ذلك أهرب إلى السرير ففي هذا اليوم كنت سعيداً فقد أهداني أحمد كتاباً جميلاً يتحدث عن فلسفة " أوجست كونت " كان قد حصل

عليه مؤخراً، لقد أعجبني كونت في كثير من أطروحاته الفلسفية وإعجابي به قد يحتوي على بعض الاختلاف معه من ناحية المعتقدات الدينية، ومما شد انتباهي وأنا أقرأ ذلك الكتاب الجميل جملة خطتها أنامل كونت في فترة من حياته: (المرأة مخلوق يعيش في حاله طفولية دائمة..) وإعجابي بها كان بسبب الربط الذي أوجده كونت بين الطفولة والمرأة، فأنا من مؤيدي تسمية المرأة بالطفلة، وقد يسألني سائل: ما المقصود بطفولة المرأة؟ وأرد على تساؤله قائلاً: هي أن تكون المرأة تلك المخلوقة العاطفية طفلة في تصرفاتها وملابسها وفي كل حياتها، والطفلة هذه لا تكون كذلك إلا مع من يستحق طفولتها، فالزوجة يجب أن تعيش حالة طفولية في أغلب الأوقات مع زوجها، وأن تكون طفلة متدلعة ومغرورة في نطاق عاطفتها أمام زوجها، كذلك تلك الفتاة المراهقة يجب أن تجعل طفولة المرأة نصب عينيها أمام أبيها، فأنا بطبعي أحب أن تكون ابنتي طفلة وهي أم لكثير من الأطفال، قد يكون كونت يقصد بطفولة المرأة غير ما أقصده وما أريد إيصاله لنفسي أولاً وللبشرية ثانياً.. لا أريد الخروج عن أساسيات كتابة المذكرات وهي التحدث عن الوقائع اليومية والابتعاد بقدر الإمكان عن العواطف، و في الحقيقة يصعب عليّ السير على هذا الخط فالعاطفة عندي

تقتحم الأحداث دائماً وما ذكري لحادثة معينة إلا وسيلة للتحدث عن عواطف كانت ومازالت تعيش في داخلي..

5-17

أشعر بألم يتكرر في أسفل رأسي وكأنه مطرقة تطرق مسماراً..!

5-19

"التفكير في الحب"، إن هذا المصطلح يراود كل شاب وكل فتاة، فالحب لدى الطرفين يعني اكتمال الحياة بشيء يضفي عليها لمسة سحرية تجعل من الأيام الرتيبة أيام سعادة وانتظار وشوق للحبيب، وعند الحديث عن الحب يخرج لنا سؤال مهم يقول: من هو الإنسان الذي يستحق أن يفكر في الحب؟! يتبادر إلى أذهان كل الناس أن مسألة التفكير بالحب يجب أن توجد لدى كل البشر بلا استثناء وأن عدم التفكير في الحب يعني نقصان جزء مهم لدى الإنسان، لكن السؤال الذي طرح يحتوي على فعل "يستحق" وعند إدخال ذلك الفعل للسؤال السابق تصبح الإجابة كالتالي: إن من يستحق التفكير في الحب هو ذلك الإنسان الذي قبل ذاته وبعد أن تقبل ذاته يتجه إلى طلب قبول الآخر الذي تتمثل فيه قيمة

الحب، بكل بساطة يجب على من يريد التفكير في الحب أن يتخلى أولاً وقبل كل شيء عن أي عيب أو نقص في ذاته يرى فيه خللاً يؤدي إلى عدم التفكير في الحب وطريقة التخلي هو أن يقبل به حتى يكون له الحق بطلب القبول من الآخر.. الخلاصة من يستحق التفكير في الحب هم كل البشر ما عدا سامي وأحمد وشاهين لأننا نحن الثلاثة لم نصل حتى الآن إلى قبول ذواتنا أي قبول واقعنا..

منذ ذلك الحين أمرضني وأضجرني
التفكير في الحب
بمرور الزمن احتفظت لنفسي بالكثير
رافضاً كل العروض بالزواج..!
متخيراً الحياة وحيداً هذه
السنين الطويلة...[68]

عظيم أنت يا بوشكين، عظيم وأنت تمثل ذلك الشيخ الفاقد لقيمة ذاته بالتفكير في الحب..

5-27

---

(68) راجع كتاب (التفكير في الحب ذاتياً وإنسانياً)، ص9، الدكتور محمد محمد بالروين، دار دمشق للنشر والتوزيع والطباعة، الطبعة الأولى، 1990م. الأبيات من ترجمة: رفعت سلام، راجع كتاب (بوشكين وقصائد أخرى)، بيروت، 1982م، ص133.

اعذريني أيتها الأوراق فقد غبت كثيراً عنكِ!! لأن من يكتب قصيدة لبوشكين ذلك الشاعر العظيم يجب عليه أن يصمت ولو أياماً حتى تعود المياه لمجاريها..!

6-5

أول يوم أمسك فيه القلم قبل أن أمسك ريشتي العزيزة لأرسم ما شاء ربي لي أن أرسم، وسبحان الله كم هو فرق بين الحالتين تقدم القلم على الريشة أو تراجعه.. الساعة الآن الحادية عشرة ليلاً في هذا اليوم ذهبت بصحبة صديقي لزيارة معرض الكتاب وكم أعجبتني كثيراً الكتب والعناوين المتنوعة، أحب دائماً أن أرى أمتي تتنافس في ميادين الفخر والعز وليس في ميادين الذل والاحتقار، وبما أني ذكرت كلمة "الأمة" فإنه يجب عليّ أن أقف و أتساءل تساؤل محتار بل تساؤل متأمل لواقع البشرية جمعاء! علام هذا القتال؟! لماذا نجد في كل مكان من هذا العالم أناساً يتقاتلون ويحاربون بعضهم بعضاً! لماذا صار الخير وهو أساس الوجود البشري أمراً غريباً وحدثاً استثنائياً؟ وأصبح الرفق والحب الذي يجب أن يكون الحل لكل مشكلات الإنسانية على اختلاف معتقداتها أمراً مستحيلاً وغير موجود؟ بل إن الحب والرفق إذا وُجدا لدى أمة من الأمم قيل عنها إنها ضعيفة وأصبح مصطلح القوة مرادفاً للقتل والتدمير

والنهب! إني أرى أن الإنسانية تعيش مكفنة تنتظر الموت! لأن ما نشاهده وما نتأمله من واقعها لهو شيء يبعث على التساؤل والحيرة! أوليس البشر كلهم سواء؟ إذاً لماذا الخير بدأ يتضاءل والشر ازداد بريقاً ووجوداً أهو المال أم النفط أم الدين؟!

ملاحظة: سأغيب فترة أيتها الأوراق حتى انتهاء الاختبارات النهائية.. آه في رأسي مطرقة تطرق بشدة!!

6-7

انتهت الاختبارات و الحمدلله أشعر أن كل موادي جيدة، وقد كان أول عمل قمت به بعد عودتي إلى حياتي التي اعتدتها قبل الاختبارات هو أني أمسكت أحد كتب جبران خليل جبران وبدأت أقرأ يا نفس..

يا نفس لولا مطمعي بالخلد ما كنتُ أعي
لحناً تغنيهِ الدهور
بل كنت أنهي حاضري قسراً فيغدو ظاهري
سراً تواريهِ القبور

***

يا نفس لو لم أغتسل بالدمعِ أو لم يكتحل
جفني بأشباح السقام

لـعـشـت أعـمـى وعـلـى بـصـيـرتـي ظـفـرٌ، فـلا
أرى سـوى وجـه الـظـلام

***

يـا نـفسُ مـا الـعيش سوى لـيـلٍ إذا جـن انـتـهـى
بـالـفـجـر، والـفـجـرُ يـدوم
وفـي ظـمـا قـلـبـي دلـيـل عـلـى وجـود الـسـلـسـبـيـل
فـي جـرةِ الـمـوت الـرحـوم

***

يـا نـفـس إن قـال الـجـهـول الـروحُ كـالـجـسـم تـزول
ومـا يـزول لا يـعـود
قُـولـي لـه إن الـزهـور تـمـضـي ولـكـن الـبـذور
تـبـقـى وذا كـنـه الـخـلـود

أحبك يا جبران..

.. أمسِ وبعد الانتهاء من المذاكرة توجهت إلى السرير راغباً بالنوم ولكن الألم في أسفل رأسي قد عاد بشدة هذه الأيام! لم أستطع النوم مطلقاً، ذهبت في وقت متأخر إلى الصيدلية وشرحت له ما أشكوه فنصحني بأن أراجع الطبيب والحقيقة أن مسألة الذهاب إلى الطبيب لم تخطر ببالي ولن

أفعلها! لأني بكل بساطة أكرة المستشفيات وسيزول الألم، والحمدلله فأنا أكتب الآن ولا وجود لألم..

6-17

.. أحياناً يفرح الإنسان منا عندما يكسب مبلغاً من المال أو يفرح بشدة بسبب نجاحه في عمل معين ولكن هل تظنون أن فرح أولئك أكبر من فرحي عندما أقرأ هذه الجملة الجبرانية وأنام:

".. إن المؤمن يعيش كل الأيام وكل الليالي، أما غير المؤمن فلا يعيش سوى ثوان معدودة منها.."(69)

نعم إنه واجب عليّ أن أدخل في مذكراتي اليومية هذه الأعجوبة: جبران خليل جبران، لأن جبران هو حياتي اليومية بكل بساطة، ذلك أن جبران أعظم من كتب على وجه الأرض فقد جمع كل شيء: فيلسوف، مفكر، قصصي، روائي، رسام، شاعر.. هل يوجد أحد مثله؟! لا أظن!

6-18

---

(69) جملة جبرانية من قصة (إرم ذات العماد) راجع المؤلفات الكاملة، المجلد 6، ص660، دار الجيل، "مكتبة السائح"، الطبعة الثانية 2000م.

.. للأسف منذ هذا اليوم أفتح صفحة جديدة في حياتي والدور الجديد، دور مريض! نعم دور مراهق يعيش في دماغه سرطان!

بلا وطن، مولاي
ألاحق نفسي..
أركب بحاراً من الأحلام الكاذبة!
مرافئ كثيرة..
بلا وطن.. مولاي
أهو غضبك.. أم فتنة أخرى؟!
.. ويستمر القدر
بل هي حكاية أخرى..
وتاريخٌ من الآهات المزيفة..
ويمر العمر..
مثل لمحة بصر..

6 -22

.. بلغت روحي مبلغ الألم الحاد، كل يوم يزداد الألم وأحياناً يختفي وكأن شيئاً لم يكن! أشعر أني في طريقي لأذبل وأختفي! أحاول أن أكون قوياً أمام الناس، أحاول أن أتجلد وأكابر مرضي الذي يجعلني لا أنام كما ينام الآخرون،

لقد تمنيت لو أني لم أعرف بمرضي قط فمعرفة وجوده جعلتني مريضاً وقبل معرفتي به لم أصدق أني مريض! كم هو حزين أن تكون مريضاً بمرض قل من ينجو منه أحد، منذ علمت بمرضي صرت أخاف أن أمسك ريشتي!

6-26

.. ظهرت نتائج مركز علاج السرطان هذا اليوم، لم أطلع على النتائج فقد كنت أراها ماثلة على وجه صديقي سامي..

6-27

.. ذهبت هذا اليوم إلى مركز علاج السرطان وأخذت أول جرعة من العلاج الكيماوي و استفرغت وأُصبت بالصداع الشديد، وقد وضح لي الطبيب: أنه يجب تسليط الإشعاع على الدماغ ليتسنى السيطرة على انتشار المرض في دماغي، هذا الإشعاع قد يسبب بعض التشويش في المجال البصري! بعد أن سمعت كلماته جلست أتساءل بيني وبين ذاتي: هل ما يحصل لي حقيقة أم أني أعيش خيال رسام يرسم لوحة؟!

6-29

.. دموعي تنساب على خديّ معلنة بلا صوت أو نحيب أني أتألم، بالله كم هي مقدرة العين بإحساس الإنسان عظيمة! هي دموعي تعبر صامتة من غير أي صوت عن حزن يعيش في داخلي، بل إنها تعبر عن ألم لا يجعلني أنام إلا نوماً متقطعاً، أحياناً وعندما يجتمع الألم دفعة واحدة أفكر في الاستسلام لواقعي بأن أعلن رفضي لذلك الواقع المؤلم وتتلاشى فجأة فكرة حقيرة من دماغي المريض..

7-1

.. آه لم أستطع النوم! أفكار شريرة تقفز إلى عقلي! اليوم كان الشيطان يحاول امتلاك إرادتي! أرجوك يا ربي ثبت الإيمان في عقلي، يا ربي اجعلني قوياً بإيماني وأبعد ضعفي أمام الناس.. الناس آه لقد تذكرت الجامعة وأني تقدمت بطلب الاعتذار في الفصل القادم والاعتذار يعني أن يتأجل الحلم...

7-10

بسبب الألم، والبصر بدأ يتشتت أريد الموت!

فيا موت زر إن الحياة ذميمة
ويا نفس جدي إن دهرك هازلُ[70]

7-12

---

(70) بيت لأبي العلاء المعري.

.. أمسكت القلم متحاملاً على الألم، مر أسبوع كامل كنت قد دخلت المركز الطبي لأن حالتي قد تدهورت كثيراً وصرت أشعر بصداع في رأسي عندما أفتح عينيّ! والسمع لا أكاد أسمع إلا الصراخ وكأنه صوت عادي! كل ذلك بسبب الإشعاع الذي يسلط على رأسي.. إنني أكتب الآن وأرى الأسطر متداخلة ولكن يجب أن أكتب عواطفي محاولاً بذلك أن أخرج الألم وخروج الألم على الأوراق يجعلني أشعر بارتياح عميق! آه كم بكيت اليوم عندما دخلت غرفتي الصغيرة واصطدمت بإحدى لوحاتي، في تلك الواقعة أحسست بشفقة سامي، كم كنت أتمنى أن ينزل الموت عليّ قبل تلك الحادثة!

7-19

.. سوف أرسم وأستمر بذلك! لأن الرسم هو كفاحي حتى وإن ذهب وتلاشى البصر!

7-22

.. أُجريت لي عملية لإزالة ورم سرطاني، ذهب التخدير وبدأ الألم والاستفراغ! السرطان ينتشر في جسدي ويشل إرادتي والإشعاع الذي يسلط على رأسي أصابني بالصداع

الشديد وجعلني أتعذب عندما أحاول فتح عينيّ! أصبحت لي الحياة مملة!

7-24

.. في غرفة العمليات كان كل شيء أبيض يدل على السواد! وكان أمل دنقل يصرخ في وجهي!!

في غرفة العمليات،
كان نقابُ الأطباء أبيض،
لونُ المعاطف أبيض،
تاج الحكيمات أبيض، أرديةُ الراهبات،
الملاءاتُ،
لونُ الأسرة، أربطةُ الشاش والقطن،
كوب اللبن.
كل هذا يشيع بقلبي الوهن،
كل هذا البياض يذكرني بالكفن!
فلماذا إذا مت..
يأتي المعزون متشحين..
بشارات لون الحداد؟
هل لأن السواد..
هو لون النجاة من الموتِ،

لونُ التميمةِ ضد.. الزمن..

* * *

ضد من.. ؟

ومتى القلب - في الخفقان - اطمأن؟!

* * *

بين لونين: أستقبل الأصدقاء..

الذين يرون سريري قبراً

وحياتي دهراً

وأرى العيون العميقة

لون الحقيقة

لون تراب الوطن!

7-25

.. اليوم أحسست بحب عظيم لوطني، هل الألم يعني خروج الحب؟ هل الألم يعني التعلق بالدنيا التي يمثلها في واقعي الوطن؟ أسئلة كثيرة تجوب دماغي المسرطن!

إذا ما فتحت عيني يوماً..

فلسوف أغمس بها بالتراب!
ولسوف أعانق النخيل مجدداً..
وأصيح بالبشر..
ورأسي مرفوعةٌ للأعلى،
هنا أرض القمر.

7-29

.. الحياة قاتلة، إني أذبل، أشعر أني سأموت قريباً!!
يا ربي ارحمني واجعلني في جنات الخلد، كل شيء أسود في واقعي.. كل شيء...

الظلمة وفقدان البصر..
وصوت الكلاب وقت السحر!
تدغدغ حبل أفكاري!
أعيش وحدي.. يأكلني الضجر.

* * *

يا ليل كم طال بنا الانتظار،
وتصاحبنا، وافترقنا..
أريد منك ماء!
اشتقت إلى رؤية الأنوار..

إلى همهمات الناس، إلى أصوات السيارات!
إلى قطرات الأمطار..!
إلى نظرة طفل مسكين
تاه في الصحراء بلا أنهار..!

8-5

.. لا أدري كم هي الساعة الآن ولكنني متيقن أنها تعدت منتصف الليل، أكتب الآن وأتمنى أن تكون الكلمات متباعدة فأنا لا أرى إلا ورقة مشوشة تتداخل أسطرها، في هذا الوقت من الليل كنت راغباً أن أقرأ أسطورة جبران خليل جبران " النبي " ولكن البصر قد تشتت ويصعب أن أقرأ من الكتاب وبدأت من قوة شوقي أنادي سامي وهو لا يرد عليّ، أظن أن النوم قد غلبه.. وأنا في هذا الموقف صرت أعيش على ذكرى سنوات مرت عندما كنت أشتاق إلى جبران فأذهب مباشرة إلى مكتبتي وأقرأ له أما الآن فالشوق في واقعي يعني أن أتألم أكثر!

8-11

.. الليل طويل ممل والألم كل لحظة يتلاعب بإرادتي، كم أنا ضعيف ولا حول لي ولا قوة، كم أنا لا شيء أمام هذا المرض الذي يأكل جسدي وأنا أتفرج!

يئست من الشفاء، يئست منه وهدني التعبُ
وحلّ الليلُ ما أطويه من سهر إلى سهر ومن ظلمٍ إلى ظلم(71)

8-21

.. الساعة الآن أظنها في حدود الخامسة مساءً، أمنية والشمس تسبح في الفضاء، والطيور تحلق في السماء، أمنية وأنا وحدي يأكلني السأم، أمنية أتمنى أن أرى وجهي في المرآة! نعم أتمنى ذلك فبصري يرى الأشياء مشوشة ومتداخلة.. أمنية!

8-22

.. الشمس تشرق وتغرب، وكل شيء كما هو، ظلام دامس..! وألم يشتد أكثر فأكثر، إني أشعر الآن وكأن أحداً يحفر في رأسي! نعم إن الألم الآن يشتد واليأس من

(71) أبيات من قصيدة (ليلة انتظار) لبدر شاكر السياب، وقد كتبت أثناء فترة علاج الشاعر في المشفى الأميري بالكويت. راجع كتاب (الأعمال الشعرية الكاملة، السياب)، المجلد 2، ص435، دار العودة، بيروت، 2005م.

الاستمرار بالحياة قد أضحى هو الواقع، يا رب السموات إن روحي تنقبض! آه يا ربي...

8-23

.. سأرحل قريباً عن هذه الدنيا، صدق أولئك الذين يقولون: إن الإنسان يشعر بالموت أحياناً قبل حدوثه بفترة، إني أراه قريباً مني!!

8-24

آه في قلبي كلام..
ولكني أحتضر!!
أعرب أنتم أم أصحاب اللغة العبرية؟!
أم صفر!
أم ملهاة ليلية؟!
...
...
...
وصيتي.. قد قرُب الموت وصيتي:

"اكتبوا على قبري، اكتبوا على قبري: هنا ترقد نفس ميتة منذ أن ولدت! والعار العار أين أنتِ يا من وضعتني؟!"

8-25

***

كنت أقرأ ما خطته أنامل شاهين والدنيا ساكنة أمام كلماته، كنت أقرأ ودموعي تعلن ذلي وخضوعي للقدر، كنت أقرأ وأبكي وشاهين عن يميني جثة هامدة لا تشعر بالدنيا، كنت أقرأ والغرفة وأنا وشاهين والأوراق نمثل الوجود الآن، كنت أقرأ و أنا ميت لأن من أحيا له قد مات، آهٍ من الدنيا ظلمتنا كثيراً، بل إن الدنيا ظلمتني أنا أكثر من أي شخص آخر يعيش فيها! لم أستطع أن أكمل قراءتي. توقفت وكأني تذكرت الآن أن شاهين ميت ويحتاج لفعل شيء ما! بل كأني استيقظت من حلم غريب ومزعج وعدت إلى واقعي الذي كنت هارباً منه إلى الأوراق! رجعت إلى الواقع إلى شاهين إلى روح اختفت إلى جسد بلا روح، ماذا أعمل؟! ماذا أفعل؟! وفجأة تذكرت صديقي أحمد، قفزت بسرعة متوجهاً نحو الباب وهممت بالخروج ولكني تراجعت وعدت إلى جثة شاهين ومسحت بيدي على وجهه الطاهر وعدت مرة أخرى إلى الباب، فتحته وتوجهت إلى غرفة أحمد المجاورة، طرقت الباب مرة وأخرى وثالثة ولم يرد عليّ أحمد، قلت في ذاتي: " قد يكون أحمد كالعادة خارج غرفته " عدت إلى غرفتي، جلست وحدي وجثة شاهين أمامي وحيرة رجل وظلم الدنيا معي، وضعت رأسي بين ركبتي وحزن الدنيا ماثل في ذلك المنظر: غرفة وجثة ورجل يتألم وحيرة!! خطرت ببالي العودة إلى غرفة أحمد مرة أخزى وبالفعل عدت وطرقت الباب ولم

يرد أحمد، أمسكت مقبض الباب وفتحته! لم أكن أعلم أنه غير مقفل! دخلت الغرفة، وجدت أحمد نائماً، اقتربت منه ناديته: " أحمد، أحمد، أحمد.. شاهين قد مات!!" ردت عليّ الدنيا ولم يرد أحمد وقالت: "حتى أحمد قد مات!!" نعم أحمد ممدد على سريره ميتاً! اقتربت منه أمسكت يده ودقات قلبه قد زالت والأنفاس رحلت والواقع جثة أحمد أمامي!! آهٍ من الدنيا، كيف أستطيع أنا العاجز أن أصف ذلك اليوم وتلك اللحظات التي تعني الألم الذي لا يزول؟ في يوم واحد غاب شاهين و غاب أحمد! جلست أمام جثة أحمد أبكي وأبكي وفجأة خطر ببالي أن أحضر جثة شاهين هنا وقفزت مسرعاً وحملت جثة من أحببت الحياة لأجله ووضعتها بجانب جثة أحمد! وأصبح الواقع: جثة شاهين، جثة أحمد، ورجل قد مات وهو حي! جلست أتأمل ذلك المنظر، لم أصدق أن ما يحصل لي حقيقة كنت أحسبني أقرأ رواية! لم أكن أصدق أن كل ذلك الألم قد اجتمع في يوم واحد! بدأت أتأمل الجثتين وأبكي، مسحت دموعي، اقتربت من شاهين وقبلته على جبينه واتجهت إلى أحمد وقبلته على جبينه وسقطت عيناي على أوراق بجانب جثة أحمد، أخذت الأوراق وبدأت أقرأ..

(26)

صديقيّ..

.. أكتب هذه الرسالة مجبراً، لقد أجبرتني إرادتي أن أكتب ذكريات الساعات الماضية، تلك الساعات الماضية التي يتلخص فيها الماضي وكل الأحداث التي عشتها والتي أكتبها الآن على شكل عواطف قد انفجرت على الأوراق! تاريخ هذا اليوم هو الخامس والعشرون من شهر آب ولكن تاريخي أنا كان بالأمس والأمس يا صديقيّ يعني لي التاريخ بأكمله!!

صديقيّ..

.. أمسِ وبعد خروجي من غرفة سامي، توجهت مباشرة إلى غرفتي، كانت الساعة الثالثة ليلاً، كان الحزن قد اجتمع في داخلي وذلك بسبب مرض شاهين وعدم قدرته على فتح عينيه، خطر ببالي أن أنام فالنوم يعني الهروب الجزئي من الواقع المر! وبالفعل فقد وضعت رأسي المثقل بأحزان الدنيا على المخدة ونمت... ورأيتني في المنام أسير في شوارع

فسيحة جداً، أسير وأسير وفجأة يقف أمامي رجل طويل القامة أبيض الملامح واسع العينين مشرق الوجه مبتسم الثغر، وقف أمامي وعلى مسافة أمتار كان يناديني بصوت جميل ورنان قائلاً: (قل هو الله أحد.. قل هو الله أحد.. انتبه على نفسك يا طفلي.. فالحياة الدنيا ممر للعبور فقط..) استيقظت من نومي وكنت أحسبني نمت ساعات عديدة والمفاجأة أني لم أنم سوى نصف ساعة! وأحسستني نشيطاً ولكن الخوف، نعم الخوف وصدى كلمات ذلك الرجل ترن وترن في أذنيّ..

".. قل هو الله أحد..
قل هو الله أحد..
انتبه على نفسك يا طفلي!
فالحياة الدنيا ممر للعبور فقط!!"

.. وبينما صدى كلمات ذلك الرجل ترن في أذنيّ إذ بصوت آخر يختلط بها، صوت قد اشتقت إليه ولم أعتد سماعه والتأمل به! كان صوت المؤذن ينادي لصلاة الفجر..

"... الله أكبر..
الله أكبر..."

.. كنت أسمع ذلك النداء الذي يقرع القلوب

وأحسستني لم أسمعه منذ زمن! نعم منذ زمن مضى، كان الصوت يعلو وينخفض وكنت ثابتاً قلباً فقط وعقلاً يتأمل، اعتدلت في جلستي بعد انتهاء الأذان وفجأة تعود كلمات ذلك الرجل الملائكي في أذنيّ ولكن هذه المرة كانت أكثر قوة!

".. قل هو الله أحد
قل هو الله أحد..
انتبه على نفسك يا طفلي..
فالحياة الدنيا ممر للعبور فقط.."

.. وما زالت الكلمات ترن في أذنيّ ودموعي بدأت تتساقط، نعم بدأت أبكي، أبكي على واقعي فمنذ زمن لم أعرف نفسي، قمت مسرعاً وكأن شيئاً ما يأمرني بذلك، توجهت إلى الحمام إلى ذلك المكان الفلسفي الأول، توجهت إليه لكي أزيل الفلسفة، لكي أتوضأ فأنا منذ زمن لم أتوضأ! منذ زمن لم أسجد! منذ زمن لم أصلِّ! دخلت الحمام، بدأت أغسل أعضائي، وقطرت الماء تختلط بدموعي، خرجت من الحمّام أخذت ركناً من أركان غرفتي توجّهت إلى القبلة، آه منذ زمن لم أقف أمام الله! كبرت وبدأت أصلي صلاة الفجر والدموع تعلن أني أبكي، أبكي لعل الله يرحمني، أنهيت الصلاة وما زلت أقف أمام الله،

رفعت يديّ، رفعتهما لمن ملك السموات والأرض، رفعت يديّ وعيناي تناجيانه وتطلبان الرحمة والغفران...

لك الحمد يا ذا الجود والمجد والعلى
تباركت تعطي من تشاء وتمنعُ
إلهي وخلاقي وحرزي وموئلي
إليك لدى الإعسار واليسر أفزعُ
إلهي لئن خيبتني وطردتني
فمن ذا الذي أرجو ومن ذا يشفعُ
إلهي ترى حالي وذلي وفاقتي
وأنت مناجاتي الخفية تسمعُ
إلهي فلا تقطع رجائي ولا تُزغ
فؤادي فلي من باب جودك مطمعُ
إلهي لئن عذبتني ألف حجة
فحبل رجائي منك لا يتقطعُ
إلهي لئن فرطت في طلب التقى
فها أنا إثر العفو أقفو وأتبعُ
إلهي أقلني عثرتي وامح حوبتي
فإني مقرٌّ خائفٌ متضرعُ(72)

(72) أبيات للإمام علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- راجع كتاب (معجم أجمل ما كتب شعراء العربية)، ص247، إعداد حامد كامل عبدلله

صديقيّ..

.. عندما أعترف بأخطائي التي ارتكبتها فهذا يعني أني أحرر نفسي من هذه الأخطاء وذلك يعني أني أقوم بدور التائب من الذنب، إني أعلن توبتي، فأنا غريب في هذه الدنيا، والغربة قاسية، تغتال الضوء الجميل في روحي، تجعل مني كهفاً موحشاً يحتله ظلام دامس، إني أعلن توبتي لأني سابقاً كنت لا أؤمن بشيء أبداً! ولكن الإيمان كان يعيش في داخلي منتظراً من يناديه قائلاً: (تعال هنا الأمان).

صديقيّ..

.. منذ أن عرفت نفسي، بل منذ تشكل الوعي لدي وفكرة قطع كل العلاقات مع البشر كانت أمراً يراودني في أغلب الأوقات! وكنت مؤمناً أن هذه الفكرة ستصبح واقعاً في يوم من الأيام حيث أني سأقتلع كل العلاقات الاجتماعية وأنزوي في غرفة بعيدة عن أنظار البشر وأعيش وحدي ممسكاً القلم! وقد يتبادر إلى ذهنكما: لماذا أريد ذلك؟! إني أريد قطع العلاقات مع البشر من أجل كتابة فكرتي! وفكرتي هي بكل بساطة تعني أن أكون ذلك الفيلسوف الفذ الذكي الذي يزن الأمور بميزان العدل والحق، الذي يرى الحقيقة

= حسين العربي، دار المعالي، الأردن، عمان، الطبعة الأولى، 1422هـ2002م.

من كل الزوايا ولا يحصر نفسه في زاويةٍ واحدة، إن فكرتي أن أكون متناقضاً بكل شيء ولكن المؤمن بالله، إن فكرتي التي لأجلها قرأت وقرأت وما زلت أقرأ تجعلني كثيراً ما أعشق الوحدة والانفراد مع ذاتي، وفكرتي هذه لم أستطع تطبيقها كما أردتها، نعم أنا أعيش الفلسفة، نعم أنا أتفلسف، نعم أنا أحاول أن أزن الأمور ولكن للأسف فكلما قرأت وفهمت فلسفة معينة بعدت عن فكرتي وهي ربط التفلسف بالإيمان بالله..

صديقيّ..

.. الاعتراف بالخطأ هو جزء مهم في علاجه، مشكلتي أني أغوص في كل شيء وأزن الاعتقادات بعقلي وكثيراً ما أجعل مصدر إيماني عقلي قبل روحي! تعلمت وأنا ابن التاسعة عشرة ألا أقول إلا ما أؤمن به وألا أؤمن بشيء إلا عن اقتناع ذاتي ولا أطرح اعتقادي الذي أؤمن به وأحارب لأجله إلا بكل إخلاص وأمانة، إني أقولها الآن وعيني تدمع وجسدي يرتجف: لقد كنت أعيش ولا أعيش! نعم كنت أعيش بلا هدف، بلا إيمان روحي، فمن يعشْ بلا إيمان يعشْ ظاهرياً والحقيقة أنه لا يعيش، كنت لا أعيش..!

صديقيّ..

.. كم أتذكر تلك السنوات التي قضيناها في الملجأ وبالأخص تلك المربية ذات البشرة السمراء "زينب " كم

كنت أنفر منها ومن التعامل معها منذ كنت طفلاً وأنا أبتعد عنها وأتحاشى النظر إلى عينيها لكن وعلى الرغم من كل ذلك النفور ما زلت أحبها لأنها تمثل دور الأم التي حملتني وتركتني وحيداً.. كثيراً ما يتبادر إلى عقلي: هل نستطيع تبادل الأدوار؟ هل يستطيع الأخ أن يكون أباً أم هل تستطيع الخادمة أم المربية أن تكون أماً؟ هل تتبدل الأدوار الرئيسية التي اعتدناها وخُلقنا بمقتضاها مع تبدل القيم والعادات والتقاليد بمقتضى التقدم والتطور والرقي ومواكبة العالمية أو بمقتضى الظروف؟

صديقيّ..

.. في الملجأ تعلمنا كيف نجعل أحزاننا داخل أسوار مغلقة لا يصل إليها أي مخلوق، نعم هنالك تعلمنا كيف نحزن وحيدين! وكيف نتألم منعزلين! وكيف نصارع الواقع مبتسمين! نعم كيف نجابه الواقع الذي يعني المجتمع الذي نعيش بداخله، ذلك المجتمع الذي منه خرجت مشكلة الواقع، وهذه المشكلة خرجت بسبب أن ذلك المجتمع يهتم بالجزيئات قبل اهتمامه بالأساسيات! ذلك المجتمع الذي يتكون من أفراد وأحد أولئك الأفراد هو ذلك المعلم المبجل الذي جعلني أعيش في سجن اسمه "سؤال"نعم صديقيّ رحلة الغربة عن الوجود تبدأ بنظرة احتقار أو نظرة شماتة من فرد تجعل من الغربة قدراً...!

صديقيّ . .

. . ما أحوجني الآن إلى استعارة أبيات من الشعر لأبي العلاء المعري، تعزيني بعدم مقدرتي على صياغة الشعر، فالشاعر هو أقرب إنسان لمبدأ الغربة لأنه بأبياته دائماً يصور غربة روحه، لذلك فالشاعر يملك الموهبة التي تجعله يتربع على قمة الغربة! نعم ما أحوجني إلى ذلك ففي مقدور الكلمات أن تعبر عن خلجات أرواحنا ومشاعرنا التي تعيش غربة روح ولكن الأبيات تعبر تعبيراً يختلط بالحنان، وما أحوجنا نحن بني البشر إلى الحنان!

إذا سألوا عن مذهبي فهو بينٌ
وهل أنا إلا مثل غيري أبلهُ!

. . نعم إني أبله! والأبله يمثل دور المتأمل للوجود من خلال ذاته، أعيش محاولاً الابتعاد عن الأسوار الاجتماعية خارج عالم الماديات، نعم إني أمثل أبله! كتبت رسالتي معلناً فيها توبتي ولكني أتوب من كل شيء إلا من قراءة أبله دوستويفسكي![73]

صديقيّ . .

. . بعد أن دعوت ربي دعاء من اشتدت عليه أحزان

---

(73) أبله دوستويفسكي مسمى أطلقته على رواية دوستويفسكي (الأبله).

الدنيا، كانت وحدة الذات تعيش معي. أردت أن أبتعد عنها ففتحت جهاز التلفاز لأشاهد أي شيء يُذهب عني وحدتي وإذ بي أنتقل إلى قناة تبث من المسجد الحرام صلاة الفجر، كنت أشاهد المسجد الحرام فتذكرت وأنا ابن التاسعة عشرة أني لم أذهب إلى هذا المكان إلا مجبراً أثناء وجودي في الملجأ! كنت أشاهد الطائفين فزاد حنيني وأحسست بشيء في داخلي يأمرني بالذهاب والوقوف هناك والبكاء توبة من كل فكرة غزت عقلي محاولة أن تحارب معتقداتي، أن تقتل إيماني النائم! أقفلت جهاز التلفاز، خرجت مسرعاً إلى الشارع، كانت الشمس تغازل الوجود محاولةً الشروق...

صديقيّ..

.. توجهت مباشرة إلى مركز النقل العام، كانت الشمس في تلك اللحظات ترسل رسائل بسيطة معلنه قدومها للوجود مرة أخرى، دخلت المركز سألت أحد المارة عن سيارات الأجرة المتوجهة إلى مكة المكرمة وبسرعة البرق توجهت إلى تلك السيارات وساقني قدري إلى ذلك الرجل، كان طويل القامة، كثيف شعر الشنب، ملخبط الملابس، يعيش ولا يعرف مبدأ التنسيق في ملابسه، والسيجارة لا تبتعد عن شفتيه الورديتين! اقتربت منه وقلت له: "أريد الذهاب إلى مكة، أريد الوصول قبل أذان الظهر" شخص ببصره في وجهي ونفث دخان سيجارته جانباً وقال: "خمسمائة ريال!" رددت عليه

وبلا أي مناقشة قائلاً: "موافق" وتوجهنا إلى سيارته الفاخرة جداً..!

.. ركبت في المقعد الأمامي بعد أن ركب السائق الذي عرفت فيما بعد أن اسمه "أبو زوربا" شغل المحرك وبلا أي انتظار تحركت القافلة! مشينا متوجهين نحو طريق الحجاز وأثناء مسيرنا فتح أبو زوربا جهاز المسجل وإذ بصوت رجل يترجم لأحد الرجال! اندهشت قلت له: "ما هذا؟!" رد عليّ والسيجارة ما زالت بين شفتيه: "هذا خطاب الزعيم الشيوعي لينين وهذا رجل يترجم الخطاب! ... يا ولدي إني شيوعي سابق وما زلت حتى هذه اللحظة أحن وأشتاق إلى الرفاق!" وبدأ يتحدث أبو زوربا عن تاريخه النضالي أيام الحرب العربية الإسرائيلية وأيضاً عن أمجاد وفتوحات القوميين العرب وكذلك الشيوعيين وفجأة وهو يتحدث إذ به يقول بصوت رنان وقد امتزج بضحكة ساخرة: "هل أنت رفيق!!" عندما طرح هذا السؤال دارت بي الدنيا وأحسستني أعيش في زمن الاتحاد السوفياتي وأن لينين ما زال يقوده، قلت له والدنيا تدور أمامي: "أنا أحمد" أعاد السؤال مرة أخرى ولكن بشيء من الشدة فرددت عليه: "أحمد فقط" كان يتحدث ذلك السائق وصوت المسجل يتداخل مع صوته ويختلطان بدخان سيجارته، وفجأة انقطع صوته وأسدل حاجبيه حتى كادا

يستقران في عينيه وكأنه بدأ يعيش حياة التذكر التي تؤلم وتكلم والحزن ماثل في ملامحه:

- يا ولدي! العمر الآن قد مضى وما كان بالأمس قد مات! في مرحلة من العمر الماضي لا أستطيع أن أجد مسمى لتلك المرحلة سوى اسم: "التخبط" نعم يا ولدي كنا نعيش التخبط وكنت أحلم وأريد بأن أهدم كل شيء أمامي وأبني ما هدمت حسب مزاجي! لم أكن أدرك أهم شيء في هذه الدنيا وهو الرضا بالواقع والحلم على قدرِ المستطاع، لقد كنت أحلم بأن أكون زعيماً مناضلاً ولم أكن أفكر إلا في ذلك الشيء الذي أصابني بالموت الداخلي وفقدان كل شيء! نعم يا ولدي لقد كانت الشيوعية تنشر أفكارها بيننا وكنا نستقبل الأفكار ولا نقيمها! وكانت الوجودية التي استطاعت أن تتغلغل في أفكارنا وسلوكنا قوية جداً حيث أنها عرفت ما كان ينقصنا وهي "الحرية" فصورت لنا الحرية في ذواتنا وأقنعتنا أنه مهما كان الواقع سيئاً والحرية مكبوتة إلا أنها توجد بالأفعال الذاتية وذلك جعلنا ننغمس في فكرة قذرة وهي "الحرية المطلقة" وكانت هذه الفكرة تطبق في الليالي الحمراء باسم الحرية والوجودية! آه يا ولدي لقد مضى العمر، كنا نعيش التخبط لم نكن نعرف وندرك الفرق بين الأفكار والقدرة على بناء مشروع يؤدي إلى الهدف، لقد

كانت الخطب تقول الأفكار الجميلة ولكنها في مجملها لا تعرف كيف تجعل من تلك الأفكار واقعاً!

صديقيّ..

.. كان ذلك السائق يتحدث مستمراً في تصوير الماضي على شكل تساؤلات عشت بها ومن خلالها وقرأت عنها الكثير وفهمت منها الوفير، كان يتحدث وكأنه يريد أن يعبر عن شيء ظل سنوات محجوراً في داخله، وكنت أنا أمثل دور المستمع إلى كل تلك الأفكار التي تعني الصراعات في داخل كل واحد منا! نعم كنت أستمع إليه وفي داخلي الكثير من المتناقضات وكنت أسأل نفسي: "من هو الذي يجب عليّ أن أنقذه أنا أم هو؟! كان ذلك السؤال يزيد في داخلي من الحروب وقطع ذلك السائق من وقع تلك الحروب الداخلية عندما قال:

- آه نظراتك الشبابية تذكرني بأيام شبابي! حيث كنت في عمرك ذاهباً للدراسة على حساب الدولة في مصر الشقيقة! وبدل الدراسة كنت أعيش الشيوعية والمظاهرات ضد الأنظمة وكنت أخرج مع الرفاق من الشباب والشابات الجميلات للمظاهرات وتوزيع المنشورات! ولن أنسى تلك المظاهرة التي خرجنا لها بسبب قصيدة أمل دنقل، كنا مراهقين وكان الحماس عنوان وجودنا بدل التحصيل الدراسي!

.. وعاد ذلك السائق صامتاً وعيناه تلوح فيهما ذكرى تعيش في مخيلته، ذكرى قد حفرت داخل الروح.. وفجأة يصرخ أبو زوربا متذكراً تلك المظاهرة:

(1)

لا تصالح!
.. ولو منحوك الذهب
أتُرى حين أفقأُ عينيك،
ثم أثبتُ جوهرتين مكانهما..
هل ترى..؟
هي أشياءُ لا تُشترى:
ذكرياتُ الطفولةِ بين أخيك وبينك،
حسكما - فجأة - بالرجولةِ،
هذا الحياءُ الذي يكبتُ الشوق.. حين تعانقُهُ،
الصمتُ - مبتسمين - لتأنيب أمكما..
وكأنكما
ما تزالان طفلين!
تلك الطمأنينةُ الأبديةُ بينكما:
أن سيفك سيفانِ..
صوتك صوتان

إنك إن مت:

للبيت رب

وللطفل أب.

هل يصيرُ دمي - بين عينيك -ماءً؟

أتنسى ردائي الملطخ..

تلبسُ - فوق دمائي - ثياباً مطرزةً بالقصب؟

إنها الحربُ!

قد تثقل القلب..

لكن خلفك عار العرب

لا تصالح

ولا تتوخَّ الهرب!

(2)

لا تصالح على الدمِ.. حتى بدم!

لا تصالح! ولو قِيل رأسٌ برأسٍ!

أكُل الرؤوس سواءٌ؟!

أقلب الغريبِ كقلبِ أخيك؟!

أعيناه عينا أخيك؟!

وهل تتساوى يدٌ.. سيفُها كان لك

بيدٍ سيفُها أثكلك؟

سيقولون:

جئناك كي تحقن الدم..
جئناك. كُن - يا أميرُ - الحكم

سيقولون:

ها نحن أبناء عم.
قل لهم: إنهم لم يُراعوا العمومة فيمن هلك.
واغرس السيف في جبهة الصحراءِ..
إلى أن يجيب العدم.
إنني كنت لك
فارساً.
وأخاً.
وأباً.
وملِك!

(3)

لا تصالح..
ولو حرمتك الرقاد

صرخاتُ الندامة
وتذكر

(إذا لان قلبُك للنسوةِ اللابساتِ السواد ولأطفالهن الذين تخاصمهم الابتسامة)

أن بنت أخيك "اليمامة"
زهرةٌ تتسربل - في سنوات الصبا -
بثيابِ الحداد.
كنتُ، إن عدتُ:

تعدو على درجِ القصرِ،
تمسكُ ساقي عند نزولي..
فأرفعها - وهي ضاحكة -
فوق ظهر الجواد.

ها هي الآن.. صامتةٌ.
حرمتها يدُ الغدرِ:

من كلماتِ أبيها،
ارتداءِ الثياب الجديدةِ،

من أن يكون لها - ذات يوم - أخٌ!
من أبٍ يتبسّمُ في عرسها..
وتعُود إليه إذا الزوجُ أغضبها..
وإذا زارها.. يتسابق أحفادُه نحو أحضانه،
لينالوا الهدايا..
ويلهوا بلحيته (وهو مستسلمٌ)
ويشدُّوا العمامة.
لا تصالح!
فما ذنبُ تلك اليمامة
لترى العش محترقاً.. فجأة،
وهي تجلس فوق الرماد؟!

(4)

لا تصالحْ
ولو توجوك بتاج الإمارة.
كيف تخطو على جثةِ ابن أبيك.. ؟
وكيف تصير المليك..
على أوجُهِ البهجةِ المستعارة؟
كيف تنظر في يدِ من صافحوك..
فلا تبصر الدم..

في كل كف؟
إن سهماً أتاني من الخلف. .
سوف يجيئُك من ألفِ خلف.
فالدمُ - الآن - صار وساماً وشارة.
لا تصالح،
ولو توجوك بتاج الإمارة
إن عرشك: سيفٌ
وسيفك: زيفٌ
إذا لم تزِن - بذؤابته - لحظاتِ الشرف
واستطبت - الترف

(5)

لا تصالح
ولو قال من مال عند الصدام
". . ما بنا طاقةٌ لامتشاقِ الحسام. . "
عندما يملأ الحقُّ قلبك:
تندلع النارُ إن تتنفس.
لا تصالح،

ولو قيل ما قيل من كلمات السلام.
كيف تستنشقُ الرئتانِ النسيم المُدنس؟

كيف تنظرُ في عيني امرأةٍ..
أنت تعرف أنك لا تستطيع حمايتها؟
كيف تُصبح فارسها في الغرام؟
كيف ترجو غداً.. لوليدٍ ينام
- كيف تحلم أو تتغنى بمستقبلٍ لغلام
وهو يكبُر - بين يديك - بقلب مُنكس؟
لا تصالح
ولا تقتسم مع من قتلوك الطعام.
وارو قلبك بالدم..
وارو التراب المقدس..
وارو أسلافك الراقدين..
إلى أن ترد عليك الطعام!

(6)

لا تصالح،
ولو ناشدتك القبيلة
باسم حزنِ "الجليلة"
أن تسوق الدهاء،
وتُبدي - لمن قصدوك - القبُول.
سيقولون:

ها أنت تطلب ثأراً يطول.
فخذ - الآن - ما تستطيعُ:
قليلاً من الحق.
في هذه السنواتِ القليلة.
إنه ليس ثأرك وحدك،
لكنه ثأر جيلٍ فجيل.
وغداً..
سوف يولدُ من يلبسُ الدرع كاملةً،

يوقد النار شاملةً،
يطلب الثأر،
يستولد الحق،

من أضلعِ المستحيل.

لا تصالح،
ولو قيل إن التصالح حيلة.
إنه الثأر.
تبهتُ شُعلتهُ في الضلوع..
إذا ما توالت عليها الفصول..
ثم تبقى يدُ العارِ مرسومةً (بأصابعها الخمسِ)

فوق الجباهِ الذليلة!

(7)

لا تصالح، ولو حذرتك النجوم
ورمى لك كُهانُها بالنبأ..
كنتُ أغفر لو أنني مِتُّ..
ما بين خيطِ الصواب وخيطِ الخطأ.

لم أكن غازياً،
لم أكن أتسللُ قرب مضاربهم
أو أحوم وراء التخوم
لم أمد يداً لثمار الكروم
أرض بستانهم لم أطأ
لم يصح قاتلي بي: "انتبه"!
كان يمشي معي..
ثم صافحني..
ثم سار قليلاً
ولكنه في الغصونِ اختبأ!
فجأةً:
ثقبتني قُشعريرة بين ضلعين...
واهتز قلبي - كفقاعةٍ - وانفثأ.

وتحاملتُ، حتى احتملتُ على ساعدي
فرأيتُ: ابن عمي الزنيم
واقفاً يتشفى بوجهٍ لئيم
لم يكن في يدي حربةٌ،
أو سلاحٌ قديم،
لم أكن غير غيظي الذي يتشكى الظمأ.

(8)

لا تصالح،
إلى أن يعود الوجودُ لدورته الدائرة:
النجومُ.. لميقاتها
والطيور.. لأصواتها
والرمال.. لذراتها
والقتيلُ لطفلته الناظرة:
كل شيء تحطم في لحظةٍ عابرة:

الصبا - بهجةُ الأهل - صوتُ الحصان - التعرفُ بالضيفِ - همهمةُ القلب حين يرى برعماً في الحديقة يذوي - الصلاةُ لكي ينزل المطر الموسمِيُّ - مراوغة القلب حين يرى طائر الموتِ وهو يرفرفُ فوق المبارزة الكاسرة.

كل شيء تحطم في نزوةٍ فاجرة.
والذي اغتالني: ليس رباً..
ليقتلني، بمشيئته
ليس أنبل مني.. ليقتلني بسكينته،
ليس أمهر مني.. ليقتلني باستدارتِه الماكرة
لا تصالح،
فما الصلحُ إلا معاهدةٌ بين ندينِ..
(في شرف القلبِ)
لا تُنتقض
والذي اغتالني محضُ لص
سرق الأرض من بين عيني
والصمتُ يُطلقُ ضحكته الساخِرة!

(9)

لا تصالح،
ولو وقفت ضد سيفك كل الشيوخ،
والرجالُ التي ملأتها الشروخ،
هؤلاء الذين يُحبون طعم الثريد،
وامتطاء العبيد،
هؤلاء الذين تدلت عمائمهم فوق أعينهم،

وسيوفهم العربية قد نسيت سنوات الشموخ
لا تصالح،
فليس سوى أن تريد.
أنت فارسُ هذا الزمانِ الوحيد
وسواك.. المسوخ!

(10)

لا تصالح

لا تصالح!

.. وأنهى أبو زوربا القصيدة المتمردة، تلك القصيدة التي تعيده إلى السبعينيات الميلادية عندما كان شاباً متمرداً على المجتمع بالالتحاق بصفوف المتظاهرين، إن الإنسان عندما يتذكر فهو كالطفل يصبح صغيراً في كل أجزاء جسده، وتصبح الذكرى أمام عينيه وتتقمصه بل وتقتله لأنها تقتل واقعه.. عندما أنهى ذلك السائق القصيدة أصبح الصمت أساس الوجود وفجأة والصمت كذلك إذ به يوقف سيارته ويخرج متوجهاً إلى المطعم ويحضر كأسين من الشاي الأسود المشبع بالسكر الكثير، ويمد لي كأساً، كل ذلك حصل والصمت ما زال ماثلاً والذكرى لدى السائق تعيش في

ملامحه، ذكريات الشباب، ذكريات التمرد، ذكريات القومية والشيوعية التي زرعتها تلك الأيام الماضية في كثير من الشباب المتحمسين، لم أحاول أن أقول كلمة تخترق تلك الجبال التي تمتد في ذاكرته، كنت أتمنى أن يبادر هو إلى التحدث ولكنه ظل صامتاً، وبعد أن نفد صبري وازداد شوقي لمعرفته قلت له:

- لا تصالح؟! هل أنت مع الصلح أم ضده؟!

التفت إلى وجهي واختفت نظراته متوجهة نحو الطريق، كان مسرعاً فخفض السرعة وقال:

- يا ولدي لقد قرأت كثيراً وفهمت كثيراً وأدركت كذلك ولكني أدركت متأخراً جداً! الصلح والمصالحة موجودان منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، هل نحن أفضل من محمد؟! نعم لقد خرُبت الدنيا في ذلك الوقت والأمة العربية انقسمت بين مؤيد ومعارض لمبدأ الصلح، ولكن لو حكمنا العقل الآن وقلنا: لو أن سوريا أخذت مبدأ الصلح في ذلك الوقت لكان الجولان الآن يدر على الشعب السوري آلاف الملايين، وكذلك لو رضي الفلسطينيون بالصلح لكان لهم الآن وطن بدل تشردهم وتشتتهم ولكنا نصلي الآن في المسجد الأقصى! الحرب يا ولدي تقتل وتدمر وترمل وتشل والصلح أحياناً يجب أن يكون مطلباً لأنه أفضل ألف مرة من الانتظار الذي نعيشه الآن! كنت في السابق وأيام التمرد ضد

الصلح وذلك لأني متحمس وبلا حكمة.. يا ولدي السنوات تعلمك والتجارب تفهمك وتجعل من رؤيتك للأمور تتغير وتكون أكثر حكمة ودراية بأحوال الدنيا، لقد علمتني الدنيا كثيراً ولكن للأسف علمتني بعد أن فقدت كل شيء، نعم كل شيء والمحصلة سائق تاكسي!!

وبسرعة البرق والحماس في داخلي يتوقد قلت:

- ماذا علمتك الدنيا يا أبا زوربا؟!

قال وعيناه تنظران إلى المدى:

- علمتني الدنيا كثيراً وأهم شيء تعلمته هو أن أترك السياسة لأهل السياسة وأن أركز على واقعي، لو طبقت هذه النظرية لكنت الآن في مركز مرموق ومتزوجاً ومستقراً ولي أطفال وبيت، نعم يا ولدي العبث والحماس والشعارات الكاذبة سرقت مني كل شيء وجعلتني أستيقظ وأرى كل من كانوا حولي قد أصبحوا بعيدين عني وأصبحت وحيداً، ضيعت الدراسة، ضيعت نفسي، كنت أسهر الليل وأسكر بحجة أن أنسى واقع أمتي العربية! وكانت الأفكار القومية تحتلني، نعم يا ولدي لقد ضعت لأني كنت غبياً جداً جداً!!

- غبياً جداً!

قلت كذلك وعلامة التعجب التي تعني انتظار الإجابة من أبي زوربا!

نظر إليّ وأخذ كأس الشاي وارتشف منه وأعاده إلى مكانه وقال:

- نعم يا ولدي لقد كنت غبياً، وهذا الغباء الذي سيطر على كثير من جيلنا كان بسبب غياب التواصل بيننا نحن الشباب وبين من يرفع الشعارات الكاذبة! في الماضي لم يكن هنالك من وسيلة اتصال لمعرفة التطورات الفكرية والثقافية وكذلك الفلسفية لدى المنظرين سوى الكتب والصحف ولم يكن هنالك وجود لعالم الاتصالات الرقمية والإنترنت والقنوات الفضائية، تلك الأشياء التي أعطت الكثير للشباب وذلك من خلال كشف الغطاء دائماً عن الشعارات الكاذبة، كنا يا ولدي ننساق خلف كل كذاب ولم نكن نعلم جيداً ما هو الحق من الباطل! وكانت الشيوعية والقومية تغزواننا في كل مكان وأتت الوجودية ونشرت بيننا سمومها باسم الحرية التي أدت إلى فقدنا الكثير من الأشياء، نعم يا ولدي إنه غباء جيل كامل كان يرى الخطب والقصائد الرنانة والحماس ولم يدرك ما يوجد خلف تلك الشعارات من كذب وخداع ونفاق وذاتية وحقد! عقود مرت يا ولدي وتعلمت أن الشعارات يجب أن أدعها لأهلها وأركز على العمل والعلم، نعم بالعمل والعلم نبني أنفسنا وبناء الذات يؤدي إلى بناء وطن وأمة، قد تقول: كيف تتكلم كذلك وأنت مجرد سائق أجرة، أين ذكاؤك وفطنتك، لماذا لم تصبح رجلاً ناجحاً؟!

أقول لك يا ولدي: لقد كنت أعيش في سنوات اسمها سنوات الضياع، لم يكن همي سوى أن آكل وأشرب وأسكر وأختار أجمل الفتيات باسم التحرر والوجودية، باسم الحرية المزعومة! نعم عشت سنوات كذلك ولم أستيقظ إلا عندما ذهبت سنوات البناء وأصبحت كبيراً بالعمر والذي يذهب لا يعود لا يعود أبداً..

عاد ذلك السائق الذي يحوي الكثير من الذكريات إلى الصمت، كان الصمت يؤدي بي إلى أن أفكر قائلاً في ذاتي: كم هو فرق بين أفكاره الذكية وبين ملابسه الرديئة؟!! وتلاشت تلك الفكرة من عقلي عندما انقطع الصمت بصوت أبي زوربا:

- يا ولدي الذي يذهب يستحيل إرجاعه، هل أستطيع الآن إرجاع سنوات القوة والحيوية؟! هل أستطيع العودة كذلك؟! قد يكون الجسد قوياً ولكن العقل والعواطف مريضة حتى الآن، تحتاج إلى علاج يُذهب الجرح الذي لا يزال هنا!! هل تظن أن واقعي الآن وعيشي مع سائقي سيارات الأجرة يحلو لي، هل تظن ذلك؟! إنه القدر، إنه الغباء، محصلة سنوات من الضياع، نعم الضياع! كانت الأموال بين أيدينا ولكن كنا نعبث بدل أن نبني أنفسنا! يا ولدي إني أرى نفسي بك الآن، ليس لي ولد وليس لي أهل فنصيحتي لك ألا تكون غبياً مثلي، مثلي أنا! حكم عقلك بكل شيء، وفكر

دائماً أن تعمل واهتم في كل حياتك بالمحصلة واجعل هدفك أن تعرف دائماً وأبداً ما هي النتيجة، نعم نتيجة كل شيء تود فعله يجب أن تدرك نتيجته قبل الإقدام عليه..

وعاد أبو زوربا إلى الطريق صامتاً، أردت أن أغير مجرى الحديث فقلت له:

- يا عمي لماذا تسميت باسم: أبو زوربا؟!

نظر إليّ وعادت نظراته إلى الطريق ودمعة تسقط من عينه تدل على ذكرى أرجعها سؤالي، مسح دمعته وقال:

- زوربا، زوربا، قد تظن أنت أو قد يظن غيرك أن سبب تلك التسمية هو حبي لقراءة رواية زوربا التي كتبها: "نيكوس كازانتزاكي" ولكن الحقيقة أن منطلق تلك التسمية كان من شفتي امرأة! نعم امرأة أحببتها حباً فوق الحب ذاته، كنت أنام وأستيقظ على حبها أو بالأحرى على حبي لها، كنت أبني أحلامي بها، كانت تعتبرني حبيبها البطل، لقد كانت فاتنة جداً بذكائها، كم أنا أعشق المرأة الذكية! كم أنا أعشق المرأة التي تفهمني بسرعة! عندما التقيتها في أول مرة كنا أنا وهي والأهرام شامخة بجانبنا، قلت في ذاتي: هي الحلم الذي انتظرته طوال حياتي، كانت يونانية الأصل والثقافة ومن أجلها قرأت أغلب التراث اليوناني، لقد كنت أحبها وبسبب حبها أصبحت تعيساً وذلك عندما استيقظت من غفلة الحب ورأيتني أعطيها كل ما تريد من المال والهدايا

والعطايا ولكني لم أكن ألمس شغاف قلبها! لقد كنت أحب من لا تحبني، وبسببها تدمرت كثيراً.. آهٍ من تلك الأيام التي عشت بها تحت مسمى الفوضوية، أتعلم يا ولدي على الرغم من أنها تركتني إلا أني مازلت أحتاج لها ولحبها! كم هو الحب عظيم وشامخ عند الرجل، لقد كنت في السابق غبياً جداً!

واستمر ذلك الغريب بالهذيان والشكوى من جور الزمان ومن ظلم الحبيب ومن غباء السنوات التي مرت عليه، كنت أستمع إليه وفي عقلي صراع بين الحق والباطل، صراع معناه: "أكون أولا أكون" عندما خرجت من غرفتي كان الحق يملأ عقلي وبعد سماعي كلامه ازداد الحق في التأثير بداخلي، بل إني أيقنت أن كل ما أقرأه لن يفيدني عندما تنفصل الروح عن العقل وأصبح إنساناً عقلانياً يزن الأمور وكل الغيبيات بميزان العقل الذي يعني الوصول والدخول في عالم الجحود والشك بكل شيء!

صديقيّ..

.. كم هي الدنيا جميلة عندما تصادفك بأشخاص يختصرون لك الأحداث وكل العواطف ويمنحونك الحكمة، الحكمة التي تجعلك تميز بين الحق والباطل وبين الخير والشر، تجعلك تلك الحكمة تفهم مبدأ المحصلة والنتيجة.. نعم كم هي الدنيا كذلك جميلة..

صديقيّ..

.. استمر أبو زوربا متحدثاً وفجأة ونحن على مشارف مكة قام بإخراج الشريط الشيوعي الثوري ورماه من النافذة، وكأنه يعلن بلا صوت أنه يتوب من الماضي المؤلم، لم أتكلم ولم أحاول أن أجعل من ذلك الحدث مجالاً للحديث وإنما ظللت صامتاً ولكن أبا زوربا رفض الصمت عندما قال كلمات ترن حتى الآن في أذنيّ!

- " يا ولدي الذكرى حتى وإن كانت مؤلمة يجب أن تظل لأنها مهمة، يجب أن توجد ليتذكرها صاحبها حتى يعلم ويدرك من خلالها أشياء وأشياء، يا ولدي الذكرى هي كتاب الحياة النابض.. إياك أن تتناسى ذكرياتك فذكريات الإنسان تعني الإنسان نفسه، وما رميي لذلك الشريط إلا مجرد فعل لا يعني أبداً نسيان الذكريات أو التخلي عنها، فالذكرى تبقى محفورة داخل أرواحنا تنام وتصحو متى شاءت ومتى ما حان الوقت المناسب لها، قد تخرج تلك الذكرى فتسبب دمعة وقد تخرج فتجعلنا نبتسم لها، الذكرى يا ولدي تعيش ولا تموت.. إياك أن تغفل عن ذكرياتك... "

صديقيّ..

.. إن سفري مع هذا الرجل قد اختصر عليّ الكثير من الأشياء التي كنت سأمر عليها في حياتي، منذ ركبنا وهو

يتكلم ويتحدث عن سنوات مرت من حياته وفي كثير من أحاديثه كنت أحسبه يتحدث عن أحمد! نعم عن نفسي! مرت الساعات معه وكأنها لحظات بسيطة بسبب الشوق الذي جعل من الساعات لحظات.. وصلنا إلى الميقات، دخلت الميقات وأخذت حماماً بارداً محاولاً أن أزيل بتلك القطرات ذنوباً قد جمعتها في سنواتي التي مضت! توجهت إلى مسجد الميقات، صليت ركعتين، خرجت من المسجد متوجهاً نحو سيارة أبي زوربا، وذهبنا إلى مكة المكرمة إلى بيت الله الحرام، هنالك فقط تجتمع الدنيا، ويزول الشك وتتلاشى الأباطيل.. هناك دخلت ورفعت عيني وإذ بي أشاهد الكعبة وكأني لم أرها منذ خلقت! وتسقط دموعي وأقف فجأة في مكاني وترتفع يداي نحو وجهي وأجلس أبكي وأبكي وحق لي البكاء وحق لي النشيج، نعم يحق لي كل ذلك، فأنا أريد التوبة وأرجو المغفرة لذلك يجب أن تتساقط دموعي حتى تشهد أرض المسجد الحرام بتوبتي، كنت أتأمل الطائفين والركع والمعتمرين و أتساءل: ما هي تلك القوة الروحانية التي تجمع ملايين البشر من مختلف الأقطار نحو هذا المكان؟ لابد أنها قوة خارقة في تأثيرها الروحاني، قوة لا يستطيع عقلي أن يصف مشاعرها وعواطفها التي تحدثها في أنفس البشر وفي نفسي.. عندما دخلت المسجد نسيت الدنيا كلها ونسيت الواقع المر وكذلك نسيت السائق، نعم كل شيء

زال ولم أتذكر إلا شاهين كنت أبكي وأدعو لنفسي بالمغفرة وله بالشفاء، كنت أتوسل من أجله وظللت رافعاً يديّ حتى حانت صلاة العصر، بعد الانتهاء من أداء الصلاة كان وقتي ليس قراءة جان بول سارتر ولا فريدريك نيتشه ولا هيجل ولا ألبير كامو... بل كان وقتي قراءة كتاب ربي الذي يجعلني أعرف نفسي أكثر، الذي يجعلني أحب البشر كلهم بلا استثناء، كنت أقرأ ولا أدري لماذا كنت أقرأ بكثرة وبلا انقطاع أو ملل وبلا اهتمام بمن حولي، هل هو الشوق إلى القرآن أم أن المكان الذي أجلس فيه كان يأمرني بذلك الفعل؟! لا يهمني الحصول على إجابة فالأهم عندي أني كنت أقرأ وقلبي يخفق خوفاً وإجلالاً لمن بيده ملكوت السماوات والأرض، كنت أقرأ وأدعو ربي بالغفران والرحمة والثبات على الإيمان والدخول في الجنة لنا لأننا أغراب في هذه الدنيا..

صديقيّ..

.. بعد أن أنهيت عمرتي توجهت إلى سيارة أبي زوربا، كانت الشمس تعلن قرب خروجها من نصف الأرض، وصلت إلى السيارة ومنذ ركبت حتى الوصول إلى غرفتي في الساعة الثانية عشرة ليلاً وشريط القرآن هو المسموع لي ولأبي زوربا. لم ينطق أحد منا بكلمة! ودعت أبا زوربا وتوجهت إلى غرفتي.

عندما وصلت إلى الغرفة كنت أسمع صوتكما و كنت محتاجاً للوحدة والانعزال، كنت أريد أن أظل عبداً أمام ربه، ومن أجل ذلك فقد أخذت القرآن وجلست أقرأ وأقرأ وصليت ودعوت ربي كثيراً ولم أفكر في النوم على الرغم من الإجهاد الجسدي الذي لازمني طوال الساعات الماضية! كنت لا أزال بحيويتي ونشاطي حتى الساعة الثالثة صباحاً فقد توجهت إلى السرير لأرتاح قليلاً قبل صلاة الفجر، ولكن النوم كان بعيداً عن جسدي المتعب، وفجأة شعرت بقوة داخلية تأمرني أن أكتب لكما وأن أشرح لكما من خلال رسالة سنوات مرت من عمري وأن أعلن فيها توبتي حتى أظل أخاً وصديقاً لكما..

صديقيّ..

.. قبل أن أختم رسالتي أريد الحديث عن موضوع شغلني وشغل كل البشر على اختلاف ثقافاتهم ومعتقداتهم إنه موضوع السعادة، كلنا نبحث عنها ونعمل أي شيء من أجل الوصول لتحقيقها، وهذا الموضوع قد شغل فلاسفة الكون منذ زمن بعيد، بل منذ وجد الإنسان والسعادة هي المفهوم المهم والغاية التي يبحث عنها، وخلاصة كل فكر فلسفي هي أن يجعل من غايته وهدفه الوصول إلى السعادة، نعم إن السعادة يا صديقيّ تعني ذلك الشعور الداخلي الذي يمثل

حالة نفسية وشعورية تدل على الرضا والراحة والسلام والانبساط في ذات الإنسان..

صديقيّ..

.. إن النظرة إلى السعادة قد أخذت سمات متعددة ذلك أن بعض الفلسفات تهتم بالسعادة من الناحية النفسية وأخرى تنظر إليها من الجانب المادي وبعضها ينظر إلى السعادة من الجانب البيولوجي، وقد يربط أحد الفلاسفة بين مفهوم السعادة واللذة ويرى ذلك الفيلسوف أن السعادة تعني حصول اللذة وإشباعها من جميع النواحي، فالخلاصة أن السعادة وتحقيقها يختلفان من شخص لآخر ومن ثقافة لأخرى، حتى أننا أحياناً نرى فعلاً معيناً ونستغرب ذلك الفعل، فعندما نشاهد شاباً يهب حياته وماله من أجل فكرة قد تكون فكرة قبيحة لنا ولكن بالنسبة إليه تمثل تحقق السعادة وكمالها، وكذلك عندما نرى شيخاً هرماً يحرث أرضه مع عماله وهو قادر على أن يوكل تلك المهمة إلى العمال ولأنه يسعد بذلك الفعل فتراه يشاركهم فيه..

صديقيّ..

.. في مرحلة من مراحل الضياع التي كنت أعيشها قرأت تعريفاً للسعادة وهو تعريف زينون الذي يرى أن السعادة تتحقق عندما يتفق المرء مع نفسه فلا يتألم ويتفق مع الطبيعة ومع العالم الخارجي فلا يطلب ما لا يمكن تحقيقه بل يطلب

الشيء الذي يمكن تحقيقه[74]، في الماضي كنت مؤمناً إيماناً جازماً بكلام زينون لكن ومع مرور الأيام ومع معرفتي البسيطة بالدنيا اكتشفت أن رأي زينون يختلف كثيراً عن المفهوم العميق للسعادة وخاصة في مسألة التألم، فالإنسان المتألم هو أكثر البشر سعادة وفرحاً، ووجود الألم قد يعني حصول السعادة بل اكتمالها أحياناً وذلك كما ذكرت سابقاً في مثال الشاب الذي يدفع بحياته وماله عن فكرة لديه..

صديقيّ..

.. في رسالتي لا أريد التعمق في مسألة السعادة ولن أتحدث عن آراء أفلاطون وأبيقور وسقراط الذي يرى أن السعادة بالمعرفة الحقيقية ولن أتعمق بالحديث عن أرسطو الذي يرى أن السعادة هي باكتساب الفضيلة والعلم الصحيح، كذلك لن أغوص في فكر ابن سينا الذي يرى أن السعادة في معرفة الخير والحق وإدراك ماهية الوجود، وأيضاً لن أدخل في الفكر الفلسفي لدى الغزالي الذي يرى أن السعادة تعني التقوى والابتعاد عن فعل الهوى، ولن أجعل من خاتمة رسالتي مكاناً للمقارنة بين أفكار هؤلاء وهؤلاء، كل ذلك لا

---

(74) لزيادة في هذا الموضوع راجع كتاب (بدايات التفلسف الإنساني، الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص141، دار د: مهدي فضل الله، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1994م.

يهمني أبداً. إني أريد أن أقول: إن السعادة تعني الإسلام و الإسلام يعني اكتمال السعادة وذلك من خلال توافق فطرة الإنسان مع معتقدات الدين، هذا التوافق يؤدي إلى حصول الطمأنينة التي تؤدي لا محالة إلى السعادة.. وأخيراً أقول يا صديقيّ: إني سعيد لأني مؤمن ولأن روحي مستقرة الآن...

صديقكما أحمد
الساعة الثالثة والنصف صباحاً
8-25

(27)

.. هكذا هي الدنيا، وهل نستغرب أفعالها وهي دوماً كذلك، نخلق داخل أرحام النساء بسبب شهوة جنسية ونعيش داخل ظلام دامس ونخرج إلى الدنيا ونحن نبكي لأن الألم قد زرع في أرواحنا، نأكل لكي نكبر ونكبر لكي نتألم ونتألم لأننا بشر ونموت بعد أن زرعنا دموع الفراق في أحبابنا، لعمري إن الحياة خسيسة وكل فعل يمثل نموذجاً للألم، تمر بنا السنوات ولا يظل في داخلنا سوى الحسرة والندم اللذين يمتزجان بالخوف! نعم الخوف مما هو قادم، الخوف من ازدياد الألم الذي لا بد من مجيئه لأنه قدر..!

.. مات أحمد ومات شاهين، نعم مات صديقاي فمن يعزيني! فمن يمسح دمعة في عيني ظلت سنوات وستظل سنوات أخرى! صديقاي لم يموتا بل إنهما قتلا!! نعم قتلا بسبب الواقع، ذلك الواقع الذي نعيش فيه، قتلا بسبب نظرات وهمسات وكلمات بشر، أين المحقق ليكشف القاتل ليقتل القاتل ليسجن مساعديه ومعاونيه؟! قتلا فلا أب ولا أم

ولا أهل ولا قبيلة ولا أحد يفهم لماذا قتلا؟! أتعلمون لماذا أكتب قصتي وقصة صديقيّ؟! لأعلن للبشرية جمعاء أنكم أيها البشر تقتلون بعضكم بعضاً ليس بالسم ولا بالمدفع ولا بأي جهاز قاتل وإنما تقتلون بعضكم بعضاً بكلامكم بنظراتكم باحتقاركم لأنفسكم! أحمد وشاهين أنتم أيها البشر أيها المجتمع من قتلهما لذلك لن ولن أُسلِم وسأظل منتظراً لحظة القصاص منكم!

.. يا من تقرأ قصتي اقرأ وافهم وتخيل أنك تريد إنقاذ صديق لك وتذهب إلى صديق آخر لينقذك وتجد المنقذ قد مات كذلك!! أتفهم يا من تقرأ آهاتي أم أنك ككل البشر تفهم ما تريد فهمه وتدع مالا يرضي غرورك وأنانيتك! أسمع صرخات الليل عندما كنت أمام جثتي صديقيّ، أدرك معنى الفراق بالموت، أفهم معنى أن تنتشل من روحك أغلبها وتظل روحاً ناقصة بلا إدراك وبلا فهم وبلا إحساس لما يجري حولك وخلالك! إذا فهمت يا من تقرأ كلماتي السابقة فهماً عميقاً يحق لك أن تكمل قراءة قصتي و إلا فدعك من الكذب على الذات!

***

.. ظللت أتأمل جثتي شاهين وأحمد وأتأمل بهما

ذكريات وذكريات وأحداثاً وعواطف مرت بنا نحن الثلاثة وكلما تذكرت حادثة معينة زادت الدموع جرياً من العينين، كنت أمثل نموذج اليائس من الحياة في ذلك الموقف، جثتا صديقيّ متجاورتان وأنا أمامهما أتأمل بهما الماضي كارهاً ذلك المستقبل الذي يعني الوحدة والغربة بلا شاهين وبلا أحمد، ظللت أتأمل شاهين وأتحسس وجهه وأبكي وأنتقل إلى رأس أحمد وإلى تلك الشعيرات المتبقية في رأسه وأتحسسها وأظل أبكي والدموع تعبر عن كل العواطف التي يعجز الإنسان أن يعبر عنها من خلال الحواس، تذكرت وأنا أمام جسدي صديقيّ أن كرامة الميت سرعة دفنه والصلاة عليه فاتصلت بالإسعاف حتى نتوجه إلى المغسلة ومن ثم نصلي عليهما.

(28)

.. صليت عليهما صلاة لا ركوع بها ولا سجود، توجهت بسيارة الإسعاف إلى المقبرة، إلى ذلك المكان الذي تدفن فيه الأجساد فقط والأرواح تذهب، هنالك وقفت وأنا ابن التاسعة عشرة لكي أدفن صديقيّ، قبران متجاوران، قبر أحمد وقبر شاهين، أدخلت أحمد إلى القبر وأدخلت شاهين إلى القبر، وقفت مذهولاً مرةً تذهب عيناي إلى قبر أحمد ومرة تذهب إلى قبر شاهين، حفرة مظلمة تذكرت وأنا أشاهد ذلك السواد ظلام الدنيا الذي سأعيش فيه، فجأة دعوت ربي أن أموت وأدفن في تلك اللحظة! لأن ظلام القبر الذي رأيته أرحم ألف مرة من ظلام الواقع الذي سأحيا فيه! تلاشت تلك الفكرة من عقلي فصرت أقذف بالتراب مرة هنا ومرة هناك، لم يكن معي في المقبرة سوى تسعة أشخاص، أحسست بأني غريب وتيقنت وأنا هناك أن الأرض ليست أرضي وأن الوجود ليس وجودي وتيقنت أني لا أعرف أحداً وأن الحزن هو عنوان وجودي القادم، بكيت كثيراً لأني أدفن

أحلاماً وذكريات وبكيت أكثر لأنهما شابان لم يعيشا الحياة حتى أتى القتل وقتلا! انتهيت من دفنهما وظللت جالساً بين قبريهما حتى بدأت الشمس بالمغيب فأتى حارس المقبرة وأمرني بالخروج، كنت لا أدري كيف أخرج وإلى أين أذهب؟! أحسست بأني لا أفهم أي شيء في هذا الوجود! خرجت من المقبرة وصرت أمشي وأمشي وأتأمل الدنيا وأولئك البشر الذين يمثلون نماذج للقتل! ازددت تأملاً بهم فصرت أبكي وبدأت أحس أن الناس تشاهدني وتتعجب من دموع رجل! هم للأسف لا يفهمون شيئاً ولا يريدون أن يفهموا. هم فقط يبحثون عن أي شيء لكي يتكلموا ويتناقشوا ويتجادلوا به! أولئك القتلة حتى في قمة الحزن الذاتي لا يدعونك بل يصرون على أن يخدشوا حريتك وحزنك بنظراتهم!

.. وظللت أمشي كنت لا أدري أفي هذا العالم أنا أم في غيره أحيا! كنت لا أدرك أي شيء، لقد كنت أعيش في عالم آخر بعيد جداً عن ذلك العالم الذي تحيا به البشرية! بل إني أعيش وحيداً على الرغم من أن البشر كانوا حولي وبجانبي يضحكون ويتمازحون ويشاهدون دموعي التي تتساقط رغماً عن إرادتي! لم أصدق أني قبل دقائق بيدي هاتين دفنت روحي وأحلامي وواقعي ومستقبلي! لم أصدق فكرة أن شاهين وأحمد قد اختفيا إلى الأبد، فأحسست بأني في حلم

مزعج، بل أحسست بأني أقرأ قصة من قصص تشيخوف السوداوية! أفقت من اللاشعور ومن حلمي عندما أظلمت السماء وأتى الليل والليل يعني الحزن الصامت القاتل...

***

.. منذ أن قتل صديقاي وأنا أحزن حزناً صامتاً ولا أتكلم عن حزني خوف أن أقتل أنا كذلك! أحياناً ومع قيمة الحزن الصامت أصاب بالجنون! أريد أن أذكر اسميهما أحاول وأحاول وعندما أنطقهما أصاب بالإغماء الشديد وأدخل غرفتي وأجلس متأملاً لوحات شاهين وكتابات أحمد، ذكريات وذكريات وأبكي وأنا أتأمل كل ذلك يحصل والحزن عنوانه الصمت بلا أي كلمة! الحزن الصامت كان عنوان حزني قبل أن أعلن حزني بكلماتي التي أكتبها الآن ليقرأها من يفهم ويدرك معنى الصداقة، تلك الصداقة التي هي أكبر من ألف رابط يربط حتى أخوان الرحم الواحد، نعم نحن الثلاثة أكثر ارتباطاً من أي ارتباط آخر! نحن الثلاثة قدر لبعضنا والقدر أكبر من كل شيء..

.. إن مشكلتنا في هذه الدنيا ليس الموت وليس الألم! بل إن المشكلة التي بسببها يحصل لنا كل ما يعكر صفو حياتنا هي الذكرى، نعم إن الذكرى قاتلة حتى وإن كانت ذكرى سعيدة! فما بالك إذا كانت الذكرى تولد حقيقة. إن

الفراق سيظل إلى الأبد ولكن وعلى الرغم من أن الذكرى تعني الفراق التام إلا أني أخذت عهداً على نفسي أني لن أُسلِم وسأظل رافضاً موت صديقيّ والذكرى ستظل معي أبد الدهر! نعم سأظل وفياً لذكراهما...

قِفا نبكِ من ذكرى أذابت حُشاشتي
ولا تبخلا بالدمعِ، فالدمعُ حاجتي
قِفا أسعفاني في مُصابي فإنني
أراهُ مصاباً قد تجاوز طاقتي
لقد كنت قبل اليومِ أحسبُ أنني
صبورٌ على الأرزاء يقرعن ساحتي
فلما دهاني ما دهاني، وجدتُني
ضعيفاً جزوعاً ذا شجى وكآبةِ
رجعت إلى قلبي، وأين اصطبارُهُ؟!
وراجعت ما أدري، وأين درايتي؟!
وقلت: لعل الشعر ينفعُ في الأسى
لعلي أرى فيهِ قضاء لبُانتي
تذكرت أيام السعادة علها
تخفف من حزني وتشفي حزازتي
وقلت لقد كُنا وكُنا، فزادني
أسىً والتياعاً ذكرُ تلك السعادةِ

فحاولتُ أن أنسى، فلم تُجدِ حيلتي
ولم يكن النسيانُ طوع إرادتي
تجلّدتُ، لكن لم يُفدني تجلدي
شكوتُ، ولكن لم تُفِدني شِكايتي
تعللت بالآمالِ أرقبُ وقتها
فلم تكنِ الآمالُ غير عُلالةِ
وأصبح عمري بعد ذلك فضلةً
أروح وأغدو فيهِ من غير غايةِ
وعادت لياليّ المِلاحُ مناحةً
تُقامُ بها الأتراحُ إثر مناحةِ
وبُدل عيشي بعد صفوي غصةً
أرددها في الصدرِ دون إساغةِ[75]

***

.. ما هو الحزن؟ الحزن هو ألم يخرج من داخل الروح، يخرج إكراهاً ليجعل من الإنسان حزيناً، الحزن يجعل الإنسان زاهداً مبتعداً عن كل مسرات الدنيا، الحزن يجعل

---

(75) أبيات مختارة من قصيدة (قفا نبكِ) للأديب الفلسطيني: خليل السكاكيني. راجع كتاب (كذا أنا يا دنيا)، ص305، الاتحاد العام للكُتاب والصحفيين الفلسطينيين، الطبعة الثانية، 1982م.

الإنسان منقطعاً عن الأكل وعن اللذة في كل شيء، الحزن هو ذبول العقل، تقلص الإدراك الكامل للوجود المحيط، الحزن يجعل المحزون محباً للعزلة وكذلك الانفراد الروحي، الحزن يجعل من تلك الدنيا داراً خالية لا يوجد فيها أحد. الحزن، آهٍ من الحزن فبعد مرور أسبوع من قتل صديقيّ ذهبت في صباح يوم الجمعة لزيارة قبريهما، دخلت المقبرة توجهت إلى قبري صديقيّ أحسست أن حزني يتسع في كل لحظة وأن الجرح الذي أحدثه قتل صديقيّ يكبر ويؤلم مع كل لحظة تمر والبكاء الذي هو تعبير عن الحزن وألم الجرح ووسيلة لخروج الآهات الدفينة لا يجدي ولا يفيد في إزالة اليأس من الحياة، فالحزن استوطن في داخلي ومهما مرت السنوات فالحزن باقٍ ولن يزول لأن صديقيّ قد قُتلا ظلماً ونكاية..

كيف يزول الحزن والذكرى موجودة؟ كيف يزول الحزن والدنيا أحس بأنها قد تغيرت ولم تكن كما كانت؟! كيف يختفي الحزن وكل شيء أراه هو صورة ما لصديقيّ؟! كيف لا تدمع العين ومن بهما أحببت الحياة قد ذهبا..

تغيرت البلاد ومن عليها
فوجه الأرض مغبرٌّ قبيحُ

تـــغـــيـــر كـــلُّ ذي طـــعـــمٍ ولـــونٍ
ولـــم يـــر فـــي الـــدنـــى شـــيءٌ مـــلـــيـــحُ
بـــكـــت عـــيـــنـــي وحـــق لـــهـــا بـــكـــاهـــا
وجـــفـــنـــي بـــعـــد أحـــبـــابـــي قـــريـــحُ(76)

.. عندما أمسكت القلم لأكتب قصتي كنت أعتقد أني سأخرج عواطفي وأرتاح قليلاً من الألم الكائن في داخلي. لم أكن أظن أن ما سوف أخرجه لا يعد شيئاً مقارنة بما يعيش في داخلي، نعم إني الآن وفي صفحاتي الأخيرة أعلن الهزيمة لأن ما كتبته لا يعد شيئاً أمام ما يعيش في داخلي، فالمعذرة منك يا شاهين ومنك يا أحمد فالكتابة عنكما باستخدام أسلوب الماضي يظل صعباً على سامي، يثير في داخلي عواطف الذكريات التي تجعلني أكثر حزناً واستسلاماً وتحسراً على كل دقيقة ذهبت، وسبحان الله كم يبدو الراحلون عظماء بعد رحيلهم، نحن للأسف لا ندرك قيمة أي شيء بين أيدينا إلا عندما يأتي الموت ويختطفه منا، هنا فقط ندرك ونعلم أن الذي تلاشى هو الذي يملأ الدنيا هو الذي بسببه كنا نحب الدنيا، بعد أن قُتل صديقاي أيقنت أني كنت أحب الدنيا لأني أحبهما..

***

(76) أبيات جميلة قرأتها في المرجع السابق ص322، 323

.. رحماكِ يا نفس فحسرة القلب ولوعة الشوق وذكريات الماضي تقتل سامي، تميت سامي، تشتت سامي، تشل كل إدراكه، رحماكِ يا نفس كيف لي أن أقرأ! كيف لي أن أفكر! رحماكِ يا نفس فإني أرى الشمس تشرق كل صباح وشمسي التي تنير لي الدنيا قد اختفت بمقتل أحمد وشاهين، رحماكِ يا نفس فخيال صديقيّ لا يفارقني، شعر أحمد المتبقي، نظراته، مشيته المتأرجحة، عينا شاهين، جسده الضخم، قد ازدحمت أمام عيني وتكاثرت الآن وصرت أسأل نفسي: هل يشعر شاهين بي الآن؟! هل يسمعني أحمد وأنا أدعو له؟! هل يحسان أني لهما وفيّ وأني مهما أوتيت ومهما أصبحت سأظل على مبدأ عدم التسليم لموتهما وأنهما قتلا! نعم قتلا! لا أكاد أتخيل أن القتل يعني ألا نلتقي مجدداً! لا أكاد أصدق تلك الفكرة التي لم تستقر حتى الآن في عقلي! لا أكاد أصدق أن صديقيّ ماتا كما يموت أي إنسان! صديقاي قتلا خيانة من البشرية جمعاء بل خيانة من المجتمع الذي وجدنا فيه وعشنا في محيطه سنوات...

.. عندما أتذكر تلك السنوات التي عشناها داخل الملجأ أتساءل بيني وبين ذاتي: هل الدنيا تلك الكبيرة ملجأ لنا كانت أم أنها سبب قتل صديقيّ؟! خرجنا من الملجأ ونحن على مشارف الثامنة عشرة من العمر وأخذنا في مكان واحد ثلاث غرف متجاورة، كنا لا نعرف إلا بعضنا، لم

يكن لأحد منا أي صديق أو رفيق، عشنا بجانب بعضنا، كنا أكثر تعلقاً ببعضنا من أخوان الرحم الواحد، كان واقعنا يتامى، نعم يتامى، بلا أم تحنو علينا، بلا أب يهتم بنا، بلا أهل يتوسطون لنا! يتامى تتقاذفنا الأمواج من شاطئ لشاطئ ونحن صامتون بلا صوت لأننا يتامى، يتامى كنا نعيش ولا نعيش، كنا ضائعين في وسط هذا المجتمع العنصري كنا لا نعيش، يتامى كانت الأيام لا تعني شيئاً لنا لأن الإنسان بلا روابط اجتماعية مهما أعطي ومُنح يظل حزيناً وضائعاً، نعم يتامى بلا أم تمسح يدها على جبيننا، يتامى بلا أب يفكر في مستقبلنا! يتامى باسم أب لا نعرفه! يتامى كنا نعيش ضائعين وسط الصحراء.. يتامى كنا كما لم نكن!

(29)

.. مرت السنوات فمنذ أن قتل صديقاي وأنا أعيش على مبدأ عدم التسليم لذلك الموت وأن القتل كان مصيرهما، كنت قد بدأت بكتابة كتاب يتحدث عن فلسفة جديدة أبشر بها وأحاول من خلال صفحات ذلك الكتاب أن أوثق فلسفتي وسبب وجودها. كان محور وأساس فلسفتي هو: "لن أُسلِم، الدنيا أضحوكة أيها البشر!" كنت أكتب تلك الفلسفة وقد عزمت على نشر ما كتبته وإهدائه إلى صديقيّ المقتولين! كنت على وشك الانتهاء من الكتاب وفي ليلة من ليالي الصيف كنت أرتب بعض الأوراق وأقرأ ما كتبه أحمد في حياته وإذ بعيني تسقط على ورقة كتب بها:

(... إياك الظن أن هذا العقل الضعيف وذلك الإدراك الناقص يستطيع أن يحيط بالكائنات وأسبابها ويقف على تفاصيل الوجود الكامل لها! إن هذا العقل وذلك الإدراك مهما أعطي ومُنح يظل عقلاً ناقصاً وغير مدرك لكثير من الأشياء، لذلك يجب عليك أيها الكائن

الضعيف أن تسلم بكل شيء ويكون التسليم والتوحيد بلا نظر في الأسباب الغيبية وبلا مناقشة أو عدم اقتناع أو رفض للواقع! بل يجب عليك أن تؤمن بلا جدال وتذكر قوله تعالى ((ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير*لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم والله لا يحب كل مختال فخور))[77] وكذلك قوله تعالى «ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم»[78]...)

أحمد
5-25

.. لقد صعقت من تلك الكلمات التي خطتها أنامل صديق كنت أظنه في ذلك الزمن ملحداً لا يؤمن بشيء ولا يعتقد بوجود قانون لهذا الكون! بعد أن قرأت في تلك الليلة التي لن أنساها ما كتبه أحمد والذي يأتي قبل قتله بثلاثة أشهر، بدأ سؤال ينبثق على أرض الواقع، سؤال يجب أن يخرج في تلك اللحظات..

---

(77) سورة الحديد، آية 22، 23.

(78) سورة التغابن، آية 11.

كيف استطاع هذا الشك وتلك الأفكار القذرة، تلك الأفكار الشيطانية الإلحادية أن تعيش مع أكثر وأعظم الأفكار قداسة ونبلاً واعتقاداً؟!

.. كان سؤالاً عظيماً جداً خرج إلى أرض الواقع في وقته الذي خُلق لأجله! كيف استطاعت تلك الأفكار المقدسة أن تختلط بأعظم الأفكار القبيحة؟! نعم إنه التناقض الذي يعيشه أحمد، بل إن هذا التناقض يعيشه كل إنسان. نحن بني البشر خُلقنا متناقضين مترددين مبعثرين، نعم نحن بني البشر خُلقنا على صفيحة من التناقض الغريب! أعدت قراءة تلك الكلمات التي كتبها صديقي وأيقنت وأنا أتأمل كلماته أن الإيمان هو في داخل كل إنسان حتى ذلك الإنسان الذي يمثل أكبر نموذج للجحود، تجد في داخله الإيمان والتقوى محفورين في ذاته لأنهما فطرة خُلِقنا بمقتضاها وهي كائنة فينا.. وأيقنت كذلك أنه يجب عليّ أن أُسلِم وأُسلِم بموت صديقيّ وأنه قضاء وقدر وأن كل ما حصل لنا في حياتنا منذ خلقنا هو قدر والقدر كبير جداً ويجب الإيمان به ولا تستطيع عقولنا الناقصة أن تدرك السر في ذلك والسبب في حصوله. نعم يا من تقرأ أسطري الأخيرة، نعم يا من تقرأ أسطورة ساش لقد كنت متكبراً أنا! نعم لقد كنت أرى الدنيا بعيني أنا لا بعين بصيرة وعادلة، كنت ككل المتكبرين أرسم الدنيا وفق مزاجي وأتفلسف وكأني أفهم كل الموجودات، نعم يا قارئ

كلماتي لقد كنت أعيش الجنون والحماقة حيث أن فكرة ما يحصل في هذه الدنيا أكبر من نطاق إدراكي كانت غائبةً عن عقلي الناقص! نعم لقد كنت أحمق لذلك سلمت وسلمت وأحرقت فلسفتي التي كنت أدعو لها وأكتب من أجلها، نعم لقد أحرقت كلمات كتبتها وأنا في قمة الحزن واليأس من الحياة، بل في قمة الحماقة البشرية!!

(30)

.. مرت السنوات وستمر غيرها وستظل أسطورة ساش عظيمة لأنها خُلقت من الألم! حتى وإن انتزع من أسطورة ساش اثنان ستظل الأسطورة قائمة. فموت صديقيّ كان بداية بدايةٍ أخرى لهذه الأسطورة.. خلال السنوات الماضية استطعت أن أتغلب على اليأس المحيط بي من خلال زيادة المذاكرة وهذا ما أدى بي إلى التخرج من الجامعة والحصول على القبول الفوري لاستكمال الدراسة في الخارج..

.. في الأسطر الأخيرة من أسطورتنا أريد القول إن أسطورة ساش ستظل عبر الأجيال يُحكى عنها ويكتب بسببها وستظل محط أنظار كل فئات المجتمع من المحللين والمفكرين والنقاد، إن أسطورة ساش خُلقت ووجدت وكُتبت من أجل كل البشرية، بل من أجل أجمل كلمة تتردد في الأفق.. الصداقة...

صالح بن إبراهيم السكاكر
الرياض
5-7-1429 هـ/ 2008م

المراجع التي ساعدت في إعداد الرواية

1- القرآن الكريم.
2- السنة النبوية المطهرة.
3- مجموعة مؤلفات فيدور دوستويفسكي، ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي. دار ابن رشد، الطبعة العربية الثانية 1985م.
4- مجموعة مؤلفات جبران خليل جبران، دار الجيل (مكتبة السائح)، الطبعة الثانية، 2000 م.
5- (ديوان أبي الطيب المتنبي)، شرح أبي البقاء العكبري، دار الفكر.
6-كتاب (الحرية والطوفان دراسات نقدية)، جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
7- (اللزوميات) أبو العلاء المعري، دار الجيل، بيروت، 1969م.
8- (مختارات من الشعر الروسي من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر)، دار علاء الدين، سورية، ترجمة د.ماجد علاء الدين، الطبعة الثانية، 2002م.
9- (فرانز كافكا، الآثار الكاملة مع تفسيراتها) ترجمة إبراهيم

وطفي، دار الحصاد للنشر، سورية، الطبعة الثانية، عام 2003م.
10- كتاب (دوستويفسكي حياته، أعماله) هنري تروبا، ترجمة: علي باشا، دار علاء الدين، الطبعة الأولى 2006م.
11- كتاب (المقصلة) البير كامو، ترجمة: جورج طرابيشي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.
12-(القصائد الشرقية، الكسندر بوشكين) ترجمة: د. طارق مردود، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى 1999 م.
13-(فيثاغورس) منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى 1981 م، تأليف: الدكتور مصطفى غالب.
14- (ديوان أبي نواس)، تحقيق وشرح سليم خليل قهوجي. دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، طبعة 1422هـ / 2003 م.
15- (الأعمال الشعرية الكاملة بدر شاكر السياب)، دار العودة، بيروت، 2005 م.
16- (أمل دنقل الأعمال الشعرية)، مكتبة مدبولي.
17- (القاموس السياسي)، تأليف ب. ن بونوماريوف، إعداد وترجمة عبدالرزاق الصّافي، دار الفارابي، الطبعة الثالثة، 1987م.
18- (موجز تاريخ الفلسفة)، تأليف: مجموعة من الأساتذة السّوفيات، ترجمة وتقديم د. توفيق سلوم، دار

الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، 1989م.

19- (المؤلفات الكاملة لينين)، دار التقدم، روسيا، 1977م.

20- (مختارات شعرية الكسندر بلوك)، ترجمة د. أبو بكر يوسف، دار رادوغا، 1985م.

21- (رسائل ابن عربي، كتاب ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق)، المجلد السابع، تقديم وتحقيق سحبان أحمد مروة، الانتشار العربي، الطبعة الأولى، 2006م.

22- (نقد كتاب حياة محمد)، عبدالله القصيمي، الانتشار العربي، الطبعة الثانية 2007 م ، بيروت.

23- (هذا الكون ما ضميره)، عبدالله القصيمي، الانتشار العربي، الطبعة الثانية 2001 م.

24- (أيها العقل من رآك)، عبدالله القصيمي، الانتشار العربي، الطبعة الأولى 2002 م، بيروت.

25- (الفصل الحاسم بين الوهابيين ومخالفيهم)، عبدالله القصيمي، الانتشار العربي، الطبعة الثانية 2007 م، بيروت.

26- (فرعون يكتب سفر الخروج)، عبدالله القصيمي، الانتشار العربي، الطبعة الثانية 2001 م، بيروت.

27- (عاشق لعار التاريخ)، عبدالله القصيمي، الانتشار العربي، الطبعة الثانية 2005 م، بيروت.

28- (أيها العار إن المجد لك)، عبدالله القصيمي،

الانتشار العربي، الطبعة الثانية 2001 م، بيروت.
29- (كبرياء التاريخ في مأزق)، عبدالله القصيمي، الانتشار العربي، الطبعة الثانية 2001 م، بيروت.
30- (صحراء بلا ابعاد)، عبدالله القصيمي، الانتشار العربي، الطبعة الثانية 2003 م، بيروت.
31- (العلم الجذل)، فريدريك نيتشه، ترجمة د. سعاد حرب، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ، الطبعة الأولى 1421 هـ - 2001م.
32- (تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق المِلك وسياسة المُلك)، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق ودراسة رضوان السيد، دار العلوم العربية للطباعة والنشر، لبنان، الطبعة الأولى 1987م.
33- (من بدائع السلك في طبائع الملك)، كتاب (حقيقة المُلك والخلافة)، لابن الأزرق أبي عبدالله محمد بن علي، اختيار وتقديم الدكتور نهاد نور الدين جرد، منشورات وزارة الثقافة في سورية عام 2005 م.
34- (مطارحات مكيافلي)، نيقولو مكيافلي، ترجمة خيري حماد، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة، شباط/ فبراير، 1982م.
35- (مقدمة ابن خلدون)، للعلامة المؤرخ عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، اعتناء ودراسة أحمد الزغبي،

شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

36- (ثقافتنا في ضوء التاريخ)، عبدالله العروي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثانية 1988 م.

37- (مفهوم الإيدلوجيا)، عبدالله العروي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الرابعة 1988 م.

38- (مفهوم الحرية)، عبدالله العروي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، 1988 م.

39- (الأنسنية والنقد الديموقراطي)، إدوارد سعيد، ترجمة فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى، باللغة العربية، عام 2005 م.

40- (الثقافة والإمبريالية)، إدوارد سعيد، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، الطبعة الثالثة، عام 2004 م.

41- (اشكاليات العقل العربي) جورج طرابيشي، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى، 1998 م.

42- (الفكر الإسلامي قراءة علمية) محمد أركون، المركز الثقافي العربي، الناشر: مركز الانماء القومي، رأس بيروت، الطبعة الثانية، 1996 م.

43- (المثقفون العرب والتراث التحليل النفسي لعصاب جماعي)، جورج طرابيشي، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، الطبعة الأولى، شباط/ فبراير، 1991م. .

44- (البدوي الأحمر)، محمد الماغوط، دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع، سورية، الطبعة الأولى 2006 م.

45- (التفكير في الحب ذاتياً وإنسانياً)، الدكتور محمد محمد بالروين، دار دمشق للنشر والتوزيع والطباعة، دمشق، الطبعة الأولى، 1990 م.

46- (معجم أجمل ما كتب شعراء العربية)، إعداد حامد كمال عبدالله حسين العربي، دار المعالي (الأردن - عمان)، الطبعة الأولى، 1422 هـ - 2002 م.

47- (بدايات التفلسف الإنساني الفلسفة ظهرت في الشرق)، د. مهدي فضل الله، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، اذار/مارس 1994م.

48- (كذا أنا يا دنيا) خليل السكاكيني، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، الطبعة الثانية 1982م.

49- (التراث والتجديد من العقيدة إلى الثورة)، د. حسن حنفي، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 1988 م.

50- (المعجم الموسوعي في علم النفس)، نوربير سيلامي، ترجمة / وجيه أسعد، منشورات وزارة الثقافة في سورية، عام 2001 م.

51- (سيرتي الذاتية الكلمات)، جان بول سارتر، ترجمة / الدكتور سهيل ادريس، دار الآداب، بيروت، الطبعة الثانية 1983 م.
52- (ما الأدب)، جان بول سارتر، ترجمة وتقديم وتعليق الدكتور محمد غنيمي هلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة عام 2005 م.
53- (سارتر)، تأليف: الدكتور مصطفى غالب، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام 1983 م.
54- (ديكارت)، تأليف: الدكتور مصطفى غالب، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام 1405 هـ - 1985م.
55- (كانت أو الفلسفة النقدية)، الدكتور زكريا إبراهيم، الناشر: مكتبة مصر، دار مصر للطباعة ، الطبعة الثانية 1972 م.
56- (هكذا تكلم زرادشت)، فريدريك نيتشه ، ترجمة: فيلكس فارس، دار القلم، بيروت.
57- (ما وراء الخير والشر)، فريدريك نيتشه، دار الفارابي، لبنان، الطبعة الأولى، 2003 م.
58- (إضاءات نيتشوية ما قبل الكلام. . . . وما بعده)، نديم نجدي، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى 2002م.
59- (أفلاطون والفضيلة)، تأليف: أنجلو شيكوني، ترجمة

الدكتور منير سغبيني، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى 1406 هـ - 1986 م.

60- (ديوان ابن زيدون)، شرح: د. يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، بيروت، 1424 هـ - 2004 م.

61- (مدخل إلى الفلسفة)، د. محمد محمد قاسم، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1421هـ - 2001 م.

62- (القدر بوصفه فرصة)، تورفالد دتلفزن، ترجمة د. إلياس حاجوج، منشورات وزارة الثقافة بسورية، 2002 م.

63- (آلام فارتر)، الفيلسوف الألماني جيته، دار أسامة، بيروت - دمشق، 1996 م.

64- (الأعمال الكاملة مكسيم غوركي)، دار رادوغا، الاتحاد السوفياتي، عام 1988 م.

65- (مؤلفات مختارة، أنطوان تشيخوف)، ترجمة الدكتور أبو بكر يوسف، دار رادوغا، الاتحاد السوفياتي، عام 1987 م.

66- (تاريخ الوجودية)، المستشار سعيد العشماوي، الوطن العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1984 م.

67- (مراجع الشخصية الهو، والأنا والأنا العليا)، مجموعة من المؤلفين، ترجمة وجيه أسعد، منشورات وزارة الثقافة في سورية عام 2002 م.

68- (الوجودية)، أنيس منصور، شركة نهضة مصر للطباعة

والنشر والتوزيع، الطبعة السادسة، نيسان/ ابريل 2007م.
69- (ماركس انجلس بصدد الدولة)، دار التقدم ، موسكو، طبعة عام 1986 م.
70- (الإنسان كما أعرفه)، محمد إبراهيم الماضي، مطابع الحميضي، الطبعة الأولى، 1426هـ - 2005 م.
71- (عالم بلا خرائط)، جبرا إبراهيم جبرا، عبدالرحمن منيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية 1992 م.
72- (فلسفة القانون والسياسة عند هيجل)، د. عبدالرحمن بدوي، دار الشروق، الطبعة الأولى 1996 م.
73- (رأس المال نقد الاقتصاد السياسي)، كارل ماركس، ترجمة / محمد عيتاني، مكتبة المعارف، بيروت 1988 م.
74- (كفاحي)، هتلر، ترجمة: لويس الحاج، بيسان، الطبعة الثانية 1995 م.

..يا من تقرأ قصتي إقرأ وافهم وتخيل أنك تريد إنقاذ صديق لك وتذهب إلى صديق أخر لينقذك وتجد المنقذ قد مات كذلك!! أتفهم يا من تقرأ آهاتي أم أنك ككل البشر تفهم ما تريد فهمه وتدع ما لا يرضي غرورك وأنانيتك! أسمع صرخات الليل عندما كنت أمام جثتي صديقيّ، أدرك معنى الفراق بالموت، أفهم معنى أن تنتشل من روحك أغلبها وتظل روحاً ناقصة بلا إدراك وبلا فهم وبلا إحساس لما يجري حولك وخلالك! إذا فهمت يا من تقرأ كلماتي السابقة فهماً عميقاً يحق لك أن تكمل قراءة قصتي وإلا فدعك من الكذب على الذات!

صالح بن ابراهيم بن صالح السكاكر،

- مواليد 1984 ـ المملكة العربية السعودية ـ الرياض
- اسطورة ساش، باكورة انتاجه الأدبي.

ISBN 978-9953-71-499-8
9 789953 714998